
نجيب محفوظ
المرايا

ابراهيم عقـــل

سمعت أول ما سمعت عن الدكتور ابراهيم عقل فى مقالة للأستاذ سالم جبر • لا فكرة لى الآن عن موضوع المقالة ولكنه ذكر فى سياقها الدكتور ابراهيم عقل باعتباره عقلا فذا بشر فى وقت ما بثورة فكرية فى حياتنا الثقافية لولا وشاية حقيرة أجهضته قبل أن يقف على قدميه ، رددها شخص لا خلاق له زاعما بأنه ــ الدكتور ابراهيم ــ طعن فى الاسلام ضمن رسالة الدكتوراه التى قدمها للسربون • وشن على الدكتور هجوم نارى فى عديد من الصحف والمجلات ، فاتهمــوه بالالحاد ، وتبنى آراء المستشرقين المبشرين لنيل الدكتوراه على حساب دينه وقومه ، ثم طالبوا بفصله من الجامعة • واهتز الدكتور من جذوره حيال الحملة العاتية ، ولم يكن ذا طبيعة مقاتلة ، ولا قبل له بتحدى الرأى العام ، فضلا عن حرصه على وظيفته وشدة حاجته اليها ، فأنكر التهمة ، ودافع عن عقيدته ، وتوسل بكثيرين ــ على رأسهم صديقه وزميله فى هيئة التدريس الدكتور ماهر عبد الكريم ــ لاخماد الفتنة واسترضاء مؤججيها • ولما التحقت بالجامعة عام ١٩٣٠ وجدته أستاذا مساعدا بها • والظاهر أن المحنة التى مر بها

علمته كيف يركز نشاطه فى دروسه الجامعية وينسحب من الحياة الفكرية خارج جدران الكلية • ولاحظنا أن همته يطويها الفتور والملال ، وأن دروسه أقرب الى التوجيهات العامة منها الى المحاضرات الدسمة التى يلقيها علينا زملاؤه ، رغم ما تمتع به من صحة وحيوية ، ونضج تربع فوق الأربعين من العمر • وما لبث أن انقلب فى مجالسنا نادرة ودعابة • ومرة سألته فى أثناء مناقشة بقاعة المحاضرات :

ــ لم لم تؤلف كتبا يا دكتور ؟

فرمانى بنظرة متعالية وقال بصوته الجهورى :

ــ أتظن أن عالم الكتب فى حاجة الى مزيد ؟

وجعل يهز رأسه الكبير فوق قامته المديدة ثم قال :

ــ لو فرشنا بالكتب سطح الأرض لغطته مرتين !

ثم بامتعاض وازدراء :

ــ ومع ذلك فلو عددنا الكتب المتضمنة جديدا من الفكر لما غطت سطح زقاق !

ولم يكن من النادر أن ألتقى فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم بقصره الكبير فى المنيرة • وما أكثر من عرفت من أهل الفكر فى ذلك الصالون العتيد ، وما زلت حتى اليوم أتردد عليه وان تغير مكانه وزمانه • وثمة ذكرى لاجتماع فيه ترد على الخاطر بوضوح ويسر كلما استدعتها الظروف والأحوال • ولعل الدكتور ابراهيم عقل كان أقرب الحاضرين تجانسا مع البهو الكلاسيكى الفخم بجسمه العملاق ومهابته الطبيعية

ونظرته الزرقاء الذكية • وعلى غير المألوف خاض الحديث فى شئون السياسة • وكنا نتجنبها اكراما لأستاذنا صاحب الصالون لعلمنا المسبق بنفوره من الأحاديث الانفعالية ، ولكونه من المنتمين الى الحزب الوطنى بحكم أسرته ونشأته على حين أن تلاميذه جميعا كانوا من شباب الوفد • غير أن الانقلاب الذى قام به اسماعيل صدقى فى ذلك التاريخ طوق المشاعر وضغط على الأفكار فلم يكن من اليسير تجاهله • وتكلم كثير من الطلبة الحاضرين حتى قال الدكتور ابراهيم عقل :

ــ ان حياتنا الدستورية مكسب ولكنها فى الوقت نفسه فخ !

فتحفز الشبان للنضال ولكنه قال :

ــ انحرف الجهاد الوطنى عن غايته الأولى ، عرقنا فى معاركنا الحزبية ، ولدى كل انقلاب يحدث رد فعل فظيع فى العلاقات والأخلاق ، ويوما بعد يوم يتفتت البناء الشامخ الذى ورثناه عن ثورة ١٩١٩ ••

فقال أحد أفراد مجموعتنا الشابة :

ــ بناء الشعب غير قابل للتفتت •

ابتسم أستاذنا ماهر عبد الكريم ، وتفكر قليلا ، ثم قال بصوته الناعم الهامس :

ــ شعبنا مثل الوحش المذكور فى بعض الأساطير الشعبية يستيقظ أياما ثم ينام أجيالا •

فعاد الدكتور ابراهيم عقل يقول :



ـ لن نضار ألبتة اذا استمسكنا بالمثل العليا •

وجعل ينقل عينيه الزرقاوين بن وجوهنا المتجفزة ثم كرر بنبرة منغومة :

ـ المثل العليا •• المثل العليا •

وكان يرددها كثيرا فى محاضراته عن الأخلاق حتى أطلق عليه زميلنا عجلان ثابت « دكتور مثل عليا » •

ولعل الدكتور تذكر موجة الالحاد التى كانت تجتاح الكلية فى ذلك الوقت فقال :

ـ أرجو ألا تعتبروا المثل العليا نتيجة لعقيدة دينية ، اعتبروها اذا شئتم المنبع الذى تدفقت منه العقيدة نفسها ••

فقال شيخ أزهرى لا يحضرنى اسمه الآن :

ـ السياسة ترمى بنا كل يوم فى محنة جديدة ••

فقال الدكتور ابراهيم عقل باصرار :

ـ المثل العليا ، حسبنا أن تبقى لنا ••

فقال الأستاذ سالم جبر وهو غائص بجسمه البدين فى فوتيل وثير :

ـ يا سيدى الدكتور ما الأخلاق الا علاقات اجتماعية ، وعلينا أن نغير المجتمع ••

فسأله بهدوء :

ـ أقرأت كتاب برجسون عن أصل الأخلاق والدين ؟

فقال سالم جبر باستهانة :

ـ انى أقرأ برجسون كما أقرأ قصيدة حالمة !

فقال له الدكتور ماهر عبد الكريم :

ـ انك يا أستاذ تحلم بثورة كالتى قامت فى روسيا منذ أربعة عشر عاما ، وهى تتكشف كل يوم عن مضاعفات خطيرة ..

فقال سالم جبر بحدة :

ـ نحن لا نعرف عن روسيا الا ما نقرأه فى صحف الغرب وكتبه .

وحلت هدنة ريثما نشرب أقداح القرفة وننعم بحشوها الطيب من البندق واللوز والجوز . ثم خرق الهدنة شاب قائلا :

ـ لا حل الا القضاء على أحزاب الأقلية الطامعة فى الحكم .

فقال سالم جبر :

ـ هذه ترجمة ركيكة لصراع الطبقات .

ولكن الدكتور ابراهيم عقل قال :

ـ ان رئيس الوزراء يزعم أنه يسعى للحصول على الاستقلال فلندعه يسع !

ـ وان فرض علينا معاهدة مثل تصريح ٢٨ فبراير ؟

فقال الدكتور بشىء من العنف :

ـ الاستقلال الحقيقى فى المثل العليا وبنك مصر !

طالما عذبنى التناقض بين تناول الأوساط الشعبية للسياسة وتناولها فى الأوساط الثقافية الرفيعة ، فهى هناك انفعال

مضطرم سرعان ما يسيل دما ، وهى هنا مناقشات متفلسفة لا تخلو من تثبيط للهمم وتخييب للآمال .

فكرت فى ذلك ونحن راجعون من قصر المنيرة ، وتبادلنا الآراء فى سرعة محمومة :

ـ لابد من ثورة !

ـ أيكفى الاضراب لاشعال ثورة ؟

ـ هكذا قامت ثورة ١٩١٩ فيما يقال .

ـ كيف قامت ثورة ١٩١٩ ؟

ـ ما أقربها وما أبعدها ..

وفى صيف ذلك العام قابلت الدكتور ـ كان بصحبته أسرته المكونة من زوجة وغلامين ـ فى كازينو الأنفوشى بالاسكندرية . كنت أجلس هناك فى الصباح ـ عقب الاستحمام ـ فأشرب القهوة وأقرأ الصحف ، وأشاهد فى الوقت نفسه ما يجرى على مسرح الكازينو من بروفات للعروض المسائية رغم نفورى الطبيعى من الغناء الافرنجى .

وقدمنا الدكتور الى حرمه وأظنها كانت مفتشة بوزارة المعارف . ولاحظت بسرور غرامه الأبوى بابنيه وملاطفاته لهما مما دعا زوجه لاعلان استنكارها لتدليله لهما . واستمالنى لأول مرة بعواطفه الأبوية ، فلم أكن أكنّ له احتراما يذكر لعزوفه عن التأليف ، ولعدم اخلاصه فى عمله . وما أعجبنى فيه الا منظره وخفة روحه وسخريته المموهة بالتفلسف .

وسألنى :

— أتستحم عادة فى الأنفوشى ؟

فأجبت :

— ان أمواجه أهدأ بكثير من الشاطبى •

— عندما يتم بناء الكورنيش سيتغير وجه الاسكندرية •

فوافقته على قوله فقال باسما :

— ولكنكم تكرهون اسماعيل صدقى !

فقلت وأنا أدارى العواطف المريرة التى استفزها ذلك الاسم :

— ليس بالكورنيش وحده يحيا الانسان •

فضحك قائلا :

— لا يوجد مثل السياسة مفسدة للتفكير البشرى •

ثم أشار الى زوجه وقال :

— والدتهـا — حماتى — عضـوة فى اللجنـة الوفدية للسيدات •

فرمقت السيدة بامتنان اكراما لوالدتها •

وفى مطلع العـام الدراسى تولى الدكتور ابراهيم عقل منصبا جامعيا كبيرا ولكنه اغتال فى سـبيله جميع مثـله العليا • كانت الهتافات العدائية للسراى تتردد فى جنبات الوادى • ونشرت جريدة التيمز أن مظاهرة فى أسوان هتفت لمصطفى النحاس رئيسا للجمهورية ، وانقسمت البلاد الى أقلية موالية للملك وأغلبية معادية تكاد تجهر بعدائها • واذا بالدكتور ابراهيم عقل ينشر مقالة فى الأهرام يدعو فيها

للولاء لصاحب العرش وينوه بأيادى أسرته على نهضة البلاد وبخاصة محمد على واسماعيل • كانت أزمة تهاوت فيها القيم الى الحضيض وتقوضت كرامات الكثيرين من الرجال • ورمى الأبرياء المهزلة بأعين حمراء ولكن حتى صفوفهم لم تبرأ من فساد • عصر الزلازل والبراكين المتفجرة • عصر احباط الأحلام وانبعاث شياطين الانتهازية والجريمة • عصر الشهداء من جميع الطبقات • وظل الدكتور يخطر بيننا ، متظاهرا بالثبات والشجاعة ، يطالعنا بنظرات متحدية تخفى فى أعماقها احساسا بالهزيمة والذنب • ونا نلقاه بالاحترام اللائق بمركزه على حين نضمر له الاستهانة والسخرية • الاستهانة والسخرية أجل ، لا البغضاء ولا الرغبة فى القتل ، كما شعرنا بهما نحو كثيرين من رجال السياسة • لم تكن شخصيته تثير شيئا من ذلك ، وكان لخفة روحه ومناوراته البهلوانية خليقا بأن يتبدى لنا مهرجا أو دجالا لا شريرا أو سفاكا للدماء أو عدوا حقيقيا للشعب •

— وفى اليوم الأخير للدراسة ، ونحن ذاهبـون لعطلة قصيرة نتقدم بعدها لامتحان الليسانس ، دعانا الى الاجتماع به فى مكتبه • كنا عشرة ذكور ، هم طلاب الليسانس للقسم الذى يرأسه الى جانب منصبه العام •

أجلسنا أمام مكتبه وراح ينقل بين وجوهنا عينيه الزرقاوين مطيلا الصمت والتأمل ، وابتسم وهو يهز رأسه فى تعال ساخر ، وقال :

ـ نحن على وشك الفراق ولا يجوز الفراق بلا كلمة ..

وعاد ينقل بصره بيننا مواصلا هز رأسه ، ثم قال :

ـ طالما خمنت ما دار بنفوسكم يوما ، ولكن ليس الأمر كما توهمتم !

ها هو يطرق الموضوع بعد صمت طويل . صمت طويل جدا . ولكن علينا أن نلزم أنفسنا الأدب والحذر . علينا أن نذكر أننا سنمتحن فى كل مادة تحريريا وشفويا معا . وعلينا أن نذكر أن من حق مجلس القسم تعديل نتيجة الامتحان ـ بصرف النظر عن الدرجات الحاصل عليها الطالب ـ لتتفق مع مستواه العام كما يقرره الأساتذة . كل ذلك يضعنا تحت رحمته بلا مراجع ولا معقب . وواصل حديثه قائلا :

ـ المسألة أننى وجدت أناسا يخطبــون وأناسا يعملون فاخترت الانضمام الى العاملين . وكلنا فى النهاية مصريون .

ولذنا بالصمت الا واحدا فقال بجرأة :

ـ ان من يخطب مطالبا بالاستقلال والدستور خير ممن يبنى الكورنيش ويسفك الدماء ..

كان القائل يدعى اسحق بقطــر ، وكان الغنى الوحيــد فينا ، وكان سيمضى عقب الامتحان الى مزرعته عند مشارف القاهرة لزراعة أفخر أنواع الزهور . ولم يغضب الدكتور ابراهيم عقل . ابتسم وقال بشىء من الأسى :

ـ ليس كالسياسة مفسدة للعقل ..

ثم بنبرة تشى بالرجاء :

ـ الحقيقة ، اعبدوا الحقيقة عبادة ، ليس ثمة ما هو أثمن ولا أجل منها فى الوجود ، اعبدوها واكفروا بأى شىء يتهددها بالفساد .

ظللنا ملازمين الصمت ، متذكرين الامتحان الشفوى وحق مجلس القسم ، أما هو فعاد يقول :

ـ لن أناقش بقطر ، لن أتفوه بكلمة فى السياسة ، انما دعوتكم لنلقى نظرة معا على المستقبل ..

فانتشر الارتياح فى نفوسنا كالضوء . نجونا من مزالق السياسة وها هو يفتح باب المستقبل الذى نرقبه بوجوم قاتم مذ صدرت القرارات الوزارية بوقف التعيينات والترقيات والعلاوات لأجل غير مسمى . ماذا بقى لنا من أمل وماذا عند أساتذتنا من وعود ؟ . قال :

ـ هذه أيام أزمة ، أزمة تدلحن العالم كله وليست خاصة ببلادنا كما يصور البعض ، ماذا أنتم فاعلون ؟ !

وسكت قليلا ثم قال :

ـ لن تجدوا وظيفة بالسرعة المطلوبة ، ولن تكونوا أسرة فى أجل قريب ، وربما تفاوتت بينكم الحظوظ ..

وتلقى نظراتنا التى اطفــأ نورها الفتــور بابتســام وقال :

— حتى الفرص الضعيفة التى يفوز بها الطبيب أو المهندس أو الحقوقى فى الميدان الحر ، حتى هذه الفرص لا نصيب لكم فيها ، ولكن يبقى لكم شىء هام ، جوهرة لم يتعود أحد أن يتحلى بها بعد !

فاشتعلت أعيننا بالاهتمام مرة أخرى فواصل حديثه قائلا :

— أمامكم طريق الحقيقة والقيم !

تذكر كل منا آله وحبيبته والآمال المعقودة على الوظيفة المنتظرة ، أما هو فقال :

— تخففوا من غلواء الطموح الدنيوى وارضوا من الدنيا بما تجود به أما الشوق للحقيقة فلا ترسموا له حدا !

ترى أدعانا الرجل ليعذبنا ويسخر منا ؟

— ان الجوس تحت شجرة فى يوم صاف خير من امتلاك عزبة .

أنت تقول ذلك يا من بعت جميع القيم من أجل ..

— ان حكمة الحياة هى أثمن ما نفوز به من دنيانا ذات الأيام المعدودات ..

وما غادرنا الكلية حتى انفجرنا ضاحكين من عنف المفارقة واليأس . واستبقنا الى نعته بكل قبيح :

— الوغد .

— المهرج .

— الدجال .

ومنذ تخرجنا فى الكلية انقضى زمن طويل لم أره فيه مرة واحدة . غاب عن عينى كما غاب عن وعيى الا فى النادر من المناسبات . وكان يتجنب صالون الدكتور ماهر عبد الكريم منذ وثوبه الانتهازى الى الوظيفة الكبيرة أن يتعرض لهجوم بعض المتطرفين فاقتصرت مقابلاته لصديقه على الزيارات الخاصة . لذلك مرت ثلاثة عشر عاما دون أن أراه حتى عرضت مناسبة غير سارة ، بل مناسبة مؤسفة غاية الأسف اذا فقد ابنيه الوحيدين فى وباء الكوليرا الذى اجتاح البلاد عام ١٩٤٧ . عانيت صدمة وأنا أتلقى الخبر ورجعت بى الذاكرة الى كازينو الأنفوشى وهو يلاعب الغلامين . يا لها من ذكرى ويا لها من نهاية . وذهبت الى الجيزة للاشتراك فى تشييع الجنازة . جنازة مؤثرة مفعمة بالأشجان . وسار الرجل وراء النعشين بقامته الطويلة كأنها صورة ناطقة لليأس الأعمى . ولا أظنه عرفنى وأنا أقدم له العزاء ، لم يتلفت الى أحد ، ولم يهتم بشىء مما يدور حوله ، ولكن عندما تقدم الدكتور ماهر عبد الكريم لتعزيته خفض جفنية على دمع تفجر رغم اصراره على الظهور بمظهر الثبات والصبر . وعند منتصف الليل دعانى الدكتور ماهر عبد الكريم الى مرافقته فى سيارته الى المدينة . وفى أثناء الطريق تمتم بعطف :

ـ الله معه ، انها كارثة لا تحتمل ..

فوافقته على رأيه وكنت فى الحقيقة متأثرا جدا فعاد يقول :

ـ ولكن حديثه أقلقنى !

فسألته عما أقلقه فأجاب :

ـ جعل يقول بنبرة متهدجة ان الموت جميل ، وانه مظلوم ، وانه لولاه لما كانت للحياة قيمة ..

فصمت متفكرا فعاد أستاذى يقول :

ـ الله معه ..

غاب الدكتور ابراهيم عقل عن عينى مرة أخرى وان لم تغب عنى مأساته طويلا . وفى صالون قصر المنيرة علمت بما طرأ عليه من أحوال فى الأعوام التالية للحادث . قيل أنه أصبح يرى كثيرا فى جامع الحسين . وأنه يمضى الساعات متربعا أمام المقام . وفى كلمة أنه يتدروش ويسلم للايمان تسليما بلا قيد ولا شرط . وأثار مسلكه الكثير من الجدل عن الايمان بصفة عامة ، والايمان بالنشأة ، والايمان بالاقتناع ، والايمان بسبب الكوارث ، وايمان الفلاسفة ، وايمان العجائز ، وكان ماهر عبد الكريم يفند كل حجة يأنس منها هجوما ولو من بعيد على مسلك صديقه القديم . وفى عام ١٩٥٠ ترك الدكتور ابراهيم عقل الخدمة لبلوغه السن القانونية فتفرغ تماما الدروشة . وفى يوم من عام ١٩٥٣ صادفته أمام الباب الأخضر بحى الحسين ـ ذاهبا

أو راجعا من الجامع لا أدرى ـ فجذبتنى طلعته المهيبة المجللة بالمشيب . واقتربت منه مادا يدى للمصافحة فصافحنى وهو يحدجنى بنظرة لا يلوح فيها أنه عرفنى ، فلما ذكرته بنفسى هتف بصوته الجهورى :

ـ أنت ! . كيف حالك ؟ . ماذا تفعل ؟

فلما أجبته قال :

ـ لا تؤاخذنى فأنا لا أقرأ .

وسايرته حتى موقف سيارته فى ميدان الأزهر وهناك سألنى :

ـ ماذا يدور فى الدنيا ؟

فذكرت من الأمور ما رأيته جديرا بالذكر منوها بصفة خاصة بالثورة الجديدة فقال :

ـ هبوط صعود ، موت بعث ، مدنى عسكرى ، فلتسر الدنيا فى طريقها أما أنا فانى أستعد لرحلة أخرى .

وغاب عنى من جديد حتى قرأت نعيه عام ١٩٥٧ على ما أذكر . وأطرف ما سمعت عنه بعد ذلك ما قيل من عثور ابن أخيه على مخطوط له لترجمة غاية فى الجمال لديوان « ازهار الشر » لبودلير لم يعرف بالضبط تاريخ ترجمته . ولما كان ابن أخيه هو الوريث الوحيد له ـ توفيت زوجته فى العام السابق لوفاته ـ فقد أذن بنشره ، وهكذا بقى اسمه فى المكتبة العربية مقرونا باسم بودلير على ديوان «أزهار الشر» .

ولا خلاف فى الرأى عن الدكتور ابراهيم عقل بين طلبته ، فقد اعتبروه ــ بلا استثناء ــ مهرجا • ولكن ثمة مفكرا له وزنه مثل الأستاذ سالم جبر كان يراه ضحية لمجتمع فاسد وان لم يغفر له انهزاميته • وذات يوم قال لى أستاذى ماهر عبد الكريم بصوته الهامس :

ــ انكم تظلمون ابراهيم عقل •

فلم أتكلم احتراما لعواطفه نحو صديقه ، فقال :

ــ انه عقلية فذة ، وكان يبهرنا بذكائه ونحن فى السربون •

فقلت :

ــ لم يفد أحد من ذكائه شيئا ••

فقال متجاهلا تعليقى :

ــ وهو الوحيد فى مصر الذى يتمتع بعقل فلسفى ، بالنظرة الشاملة للأشياء ••

ونظر الىّ باسما ثم استطرد :

ــ لم يخلق كاتبا ، ولكنه محدث موهوب ، نوع من سقراط ، خص أصدقاءه الحميمين بزبدة أفكاره ، وطرح أيسر ما عنده على الناس •

فقلت له :

ــ لعله يحتاج الى أفلاطون جديد ليرد اليه اعتباره !

ولكنه اندثر فلم يبق منه الا مأساة وترجمة نادرة لأزهار الشر •

أحمد قدرى

يقترن أحمد قدرى فى ذاكرتى بالشهد والفطائر المثلتثة والسينما ، كما يقترن بواقعة لا تنسى • وهو قريب لى من أسرة ريفية ، كان يفد الينا فى بعض المواسم لقضاء أيام فى القاهرة • وكانت اقامته تنقضى فى اللعب فى شوارع العباسية الهادئة المحفوفة بالحقول والحدائق • كنت فى التاسعة أو العاشرة وكان يكبرنى بخمس سنوات ، وكان وحيد أبويه ، وكان عفريتا بكل معنى الكلمة • واقترح ذات مرة القيام برحلة ، ولكى يؤكد براءتها استأذن والدى فى أن يصطحبنى معه • وذهبت معه مرتديا بدلتى القصيرة • وقال لى ونحن فى طريقنا الى محطة الترام :

ــ سأشترى لك بسكوتا بشرط •

فسألت عن الشرط فقال :

ــ أن تحفظ تماما ما سأقوله لك ثم تردده عند عودتنا ••

فسألت عما ينبغى لى حفظه فقال :

ــ اننا ذهبنا الى سينما أوليمبيا وشاهدنا فيما لشارلى شابلن •

فوعدته بذلك وأخذت البسكوت ثم ركبنا الترام ،

وغادرنا الترام فى شارع لم أره من قبل ، فمضى بى من حارة الى حارة فى عالم جديد وغريب ومثير • وجرنى من يدى الى مدخل بيت آية فى الغرابة كان يجلس فى دهليزه ثلاث نساء يبهرن النظر بألوان وجوههن وملابسهن ولا يبالين أن ينكشف من أجسادهن ما ينكشف فوق السيقان وتحت الأعناق • نهضت اليه احداهن فأجلسنى مكانها وهو يقول :

— لا تتحرك من مكانك حتى أرجع اليك ••

ووصى بى المرأتين ومضى بصاحبته الى الداخل • وركزت بصرى فى بلاط الدهليز المعصرانى متجنبا النظر الى المرأتين ، شاعرا فى الوقت نفسه بأن مخالفة خطيرة ترتكب على كثب منى ، ومتابعا من حين لآخر صوت احدى المرأتين وهى تغنى « يوم ما عضتنى العضة » • ثم مالت نحوى الأخرى فسألتنى :

— هل معك نصف ريال ؟

فأجبت بالنفى فسألت :

— معك كم ؟

فأجبت بخوف وأدب :

— شلن •

— عال ، تحب أفرجك على شىء لطيف لم تره ؟

— ولكنه قال لى ألا أتحرك ••

— دقيقة واحدة فى هذه الحجرة أمامك ••

— كلا !

— لا تخف ، مم تخاف !

وأخذتنى من يدى الى الحجرة وأغلقت الباب وهى تقول :

— هات الشلن ••

فأعطيتها اياه بلا تردد فقالت وهى تمسحنى بعينيها :

— اخلع بدلتك ••

فقلت بفزع :

— كلا ••

واذا بها تنزع ثوبها فتبدو أمامى عارية • رأيت امرأة عارية لأول مرة • ملأتنى الحركة المقتحمة المستهترة فزعا • وملأنى المنظر الذى رأيته خطفا فزعا أشد • تراجعت نحو الباب وأنا أنتفض •

فتحت الباب وهرولت الى الخارج وضحكتها المائعة المتموجة تتعقبنى كثعبان • وتلقتنى المرأة الأخرى بقهقهة • وأشارت الى الكرسى كى أجلس • ولكنى وقفت فى وسط الدهليز لا أريد أن ألمس شيئا ولا أريد لشىء أن يلمسنى • وجعل المتسكعون خارج البيت ينظرون الى فى دهشة ويطلقون فى وجهى أبشع النكات • ولبثت أعانى محنة وأى محنة حتى رجع أحمد فسألنى بفتور :

— مالك واقف كالديدبان ؟

فقبضت على ذراعه كالمستغيث فمضى بى الى الخارج ، ولم تكن العودة يسيرة كالذهاب اذ صادفتنا مظاهرة ضخمة فشق طريقه خلال أزقة جانبية وأصوات الرصاص تدوى فى



الجو • ولما جلسنا فى الترام سألنى بنبرة الممتحن :
ـ أين كنا يا بطل ؟
فأجبت من فم جاف :
ـ فى سينما أوليمبيا •
ـ ماذا شاهدنا ؟
ـ شارلى شابلن •
ـ عظيم ، ولكن مالك مخطوف الوجه ؟
ـ لا شىء •
ـ ضايقتك المرأتان ؟
ـ كلا ••
وجعل يراقبنى بقلق ثم عاد يسألنى :
ـ مالك ؟
ففاض بى الحزن حتى كدت أبكى فسألنى بقلق :
ـ مالك ؟
فقلت بمرارة :
ـ لا شىء ، انه شىء خاص جدا ، دورا ، ليست دورا جميلة كما توهمت ••
ـ دورا ! •• من هى دورا ؟
ـ حبيبة دان ••
ـ ومن هو دان ؟
ـ بطل المغامرات ، ألم تقرأ مجلة الأولاد ؟ !
ـ أولاد ؟ ! •• بم تهذى ؟ •• ابسط وجهك ، لن نرجع الى البيت حتى ترجع الى حالتك الطبيعية !

لم يعلم بمدى شغفى بدور ، ولم يدر بأنى تخيلت جسدها من الماس النقى ! •

ولكن بصفة عامة كانت أيامه بالقاهرة من أسعد أيامى • علمنى كرة القدم والملاكمة ورفع الأثقال ، وأمتعنى بنوادره الفكاهية ، وكان يقلد شابلن فى مشيته ، ويغنى المنولوجات المشهورة ، ويحاكى عمدة القرية وشيخ الخفراء • وانتقل والداه الى القاهرة فأقاما فى عابدين فلم يعد يزورنا الا كل حين ومين • وتعثر فى دراسته الثانوية فاختار الالتحاق بمدرسة البوليس • وعقب تخرجه عين فى القاهرة لتقدمه ، وشغل بحياته الجديدة فانقطع عن زيارتنا وبتنا كالغرباء • لم أره طيلة عمله الأول بالقاهرة الا خطفا ومصادفة وهو يتسلل خارجا من سراى عصام بك عقب مغامرة غرامية • وتوفى والداه وكدت أنساه تماما ، بل نسيته حتى ذكرتنيه الحوادث فى أثناء الحرب العظمى الثانية وما تلاها بعد أن اختير عضوا فى البوليس السياسى • لم يعد أحمد قدرى بأحمد قدرى الذى عرفته ، انقلب شخصية مخيفة تنسج حولها أساطير الرعب ، سلّ سوط عذاب فى أيدى الطغاة يلهبون به الوطن والوطنيين • وكنت أسمع عنه وأتعجب ، كيف استحال الظريف الماجن شيطانا من شياطين العذاب ، كيف يمثل بالشبان من ذوى العقائد الحرة فيجلدهم ويطفىء السجائر المشتعلة فى جفونهم ويخلع بآلات العذاب

أظافرهم ! • وحدث أكثر من مرة أن نوقش مسلكه على مسمع منى فى بعض مجالس الأصدقاء من أهل الفكر والوطنية مثل رضا حمادة وسالم جبر وغيرهما ، وقيل انه ما دام لا توجد ثورة شاملة فلا أقل من أن توجد جمعيات سرية لممارسة الاغتيال السياسى دفاعا عن الشعب الأعزل • وقد حدثت بالفعل محاولة لاغتياله أمام نادى محمد على ولكنه نجا بأعجوبة وأفلت مما سموهم وقتها بالجناة الهاربين •

وعقب ثورة يوليو ١٩٥٢ قدم الى التحقيق فاكتفى باحالته الى المعاش ، ومضى بالنسبة الىّ يذوب فى ماء النسيان ، حتى دعيت فى خريف ١٩٦٧ تليفونيا الى المستشفى الأنجلو أمركى • هناك وجدته راقدا مصابا بأزمة قلبيه • لم أعرفه لأول وهلة • جاوز الستين وذكرنى بصورة أبيه فى أيامه الأخيرة • قال :

— معذرة عن ازعاجك ••

فشجعته بما حضرنى من كلمات فقال :

— لا أحد لى غيرك فى الواقع ••

ثم بصوت هامس :

— لكى تدفننى اذا قضى الأمر •

فعدت الى تشجيعه • وخلوت الى الطبيب مستعلما فأكد لى أنه اجتاز مرحلة الخطر وأن صحته بعد ذلك تتوقف على ارادته • ولما سمع بتلك المعلومات قال :

— عندى أكثر من داء ! •

فخمنت وراء قوله الخمر والنساء والقمار ، فقلت :

ـ تجنب الانفعال لكى تتجنب أزمة أخرى •
فقال باستهانة :
ـ انها آتية لا ريب فيها !
وجعلت أنقب فى وجهه المريض عن الوحش الضارى الذى نشر الفزع فى الزمان القديم أو الشاب المهرج الظريف ولكن عبثا ، ولم يكن فى صدرى حياله الا شعور بالواجب • وعلمت أنه يقيم بشقة صغيرة بالزمالك وأنه لم يتزوج طبعا ، وأنه لم يعد له من صديق سوى نفر من كهول اليونانيين المدمنين لسباق الخيل • وهز رأسه ثم غمغم :
ـ يخيل الى أننى انتهيت كما انتهوا ••
ففطنت على البداهة الى من يعنى • كان ٥ يونية ما زال ممتزجا بريقنا كالعلقم • وأدركت من فورى مدى الحقد الذى عاشره منذ احالته على المعاش • وكرهت مناقشة شماتته المنغصة بسوء حاله لتحديها الجارح لعواطفى الشخصية • وعلى أى حال لم تتحقق نبوءته السوداء فيما يتعلق بحياته أو حياة الثورة • غادر المستشفى عقب ذلك بثلاثة أسابيع • وزارنى فى بيتى للشكر • تبدى فى حال صحية مقبولة وراح يغازل ذكريات الجيل السابق • وطيلة الوقت وجدت اغراء لا يقاوم فى نبش ماضيه الغريب ، حتى واتتنى الفرصة فقلت :
ـ أتدرى أننى لم أكن أصدق ما يقال عنك ؟
خيل الى أنه تجاهل قولى تماما • اقتنعت بأننى

أخطأت • ولكنه قال وكأنه يقرر حقائق لا علاقة لها بحديثى :
ـ يحدث أحيانا أن تصدم سيارة أحد المارة فترديه قتيلا ••
وأشعل سيجارة متحديا أولى نصائح طبيبه ثم قال :
ـ من الخطأ أن نحمل السيارة تبعة ما حدث ، التبعة تقع على السائق أو الطريق أو المصنع أو الضحية نفسها أما السيارة فلا ذنب لها ••
وقال أيضا :
ـ لم لم نعذب أحدا فى عهود الوفد ؟ ! المسألة أنه يوجد نوعان من الحكومة ، حكومة يجىء بها الشعب فهى تعطى الفرد حقه من الاحترام الانسانى ولو على حساب الدولة ، وحكومة تجىء بها الدولة فهى تعطى الدولة حقها من التقديس ولو على حساب الفرد ••
وقال أيضا :
ـ لم نعذب أحدا بالمعنى الذى تظنه ، كنا نصب العذاب كما تملأ أنت الاستمارة ٥٠ ع• ح• ، أو كماتكتب تقريرا بناء على طلب الوزير ، عمل ليس الا له مقاييسه من الاتقان وتقديره فى حساب الواجبات العامة ، واذا وجد بيننا من يغالى فى عمله أو ينفذه بلذة خفية أو ظاهرة فكما يوجد أحيانا فى أوساطكم من يفرط فى العمل ليدارى نقصا أو تعاسة ملحة ••
وفى أثناء الحديث ثبتت عيناه على صورة قائمة على منضدة فتطلع اليها مليا ثم تساءل :

ـ أليس هذا هو الدكتور ابراهيم عقل ؟
فقلت بدهشة :
ـ بلى ، بين بعض الزملاء القدامى وبعض الأساتذة ، أكنت تعرف الدكتور عقل ؟
ـ كلا ، ولكن ظروفا معينة جعلتنى أتابع ما كان ينشر له من صور فى الصحف ..
ـ أى ظروف يا ترى ؟ !
تفكر طويلا ثم قال :
ـ لعلك تذكر وفاة ابنيه ؟
ـ أجل ، هلكا فيمن هلك من ضحايا وباء الكوليرا .
فضحك قائلا :
ـ يبدو ـ والله أعلم ـ أن الكوليرا لم تكن هى الجانية ..
فهتفت بذهول :
ـ ماذا تقول ؟!
ـ رئيسى رحمه الله همس لى يوما فى مجلس صداقة حميمة بأنهما قتلا !
ـ قتلا ؟ !
ـ اضبط أعصابك ، ذاك تاريخ مضى وانقضى ..
ـ ولكن كيف قتلا ومن الذى قتلهما ؟ !
ـ لا شىء مؤكد ، صدقنى لا شىء مؤكد ، حتى رئيسى نفسه لم يكن لديه أكثر من همس ، تسلل اليه خبر عن غرام امرأة هامة وشخص من رجال الملك وجريمة قتل فى بيت خلوى بالطريق الصحراوى ..

ـ أعطنى مزيدا من المعلومات ..
ـ لا مزيد عندى ، ولا شىء مؤكد ، صدقنى لا شىء مؤكد ..
وأصر على موقفه فلم أجد مبررا لتكذيبه . وقد أفضيت بما بلغنى منه الى أستاذى الدكتور ماهر عبد الكريم فأبدى من الدهشة ما لم يعلنه وجهه الهادىء من قبل . وقال لى :
ـ لا أصدق أن المرحوم ابراهيم عقل كان يخفى عنى سرا ..
ـ لعل صلة الأمر بالسراى ألزمته بالصمت ..
فهز رأسه وهو فى شك وحيرة ، وقررت تناسى الموضوع من أساسه . أما أحمد قدرى فقد اختفى من حياتى مرة أخرى . وكنت ألمحه أحيانا فى مقهى فنكس وسط نفر من كهول الخواجات ، وفى أوائل عام ١٩٧٠ رأيته ـ من بعيد ـ سائرا فى ميدان طلعت حرب . وثبت لى من تهدل شدقيه أنه خلع أسنانه ، ولكن صحته بدت خيرا مما توقعت .

أمانى محمـــد

كان التليفون واسطة التعارف بين أمانى محمد وبينى • بدأت حديثها بالتحيات والمجاملات المعروفة • واستأذنتنى فى طرح أسئلة عن بعض المناقشات التى تتابعها فى التلفزيون • وآنست منها اهتماما بالفن ورغبة فى التزود ببعض المراجع وحماسا للقاء تتم به الفائدة • دعوتها الى مكتبى ولكنها عالنتنى بنفورها من جو المكاتب واقترحت لقاء فى الخارج • وتم اللقاء فى استراحة الهرم فى أواخر ربيع عام ١٩٦٥ • توقعت أن تجيئنى طالبة أو خريجة حديثة العهد بالتخرج • ولكن التى أقبلت كانت امرأة ناضجة ، فى الأربعين ، ريانة البدن ملونة العينين ، تخطر على الحد الفاصل بين حرية المرأة العصرية وبهرج الغانية • ولدى رؤيتها غازلنى شعور مستفز بأن الفن لن يكون ــ وحده ــ ثالثنا • لم يهزنى قبول ولا صدنى رفض فسلمت أمرى للظروف • جلسنا فى طرف الحديقة المطل على المدينة ونظراتنا المتبادلة تعكس الحياء والترقب • قالت بلسان يحور الراء غينا :

ــ معذرة عن جراتى ••

ثم كالمستدركة :

ــ كان لابد أن أقابلك ••

فأكدت لها سرورى باللقاء فقالت :

ــ ان فراغ حياتى لن يملأه الا الفن ، ومن حسن الحظ أننى لا أخلو من استعداد •

ــ سيدتى موظفة ؟

ــ كلا ، ولا حاصلة على شهادة عالية ، الثانوية العامة فقط ، ولكنى قارئة ممتازة ، وكتبت أكثر من تمثيلية اذاعية ••

ــ لم يسعدنى الحظ بسماعها ••

ــ لا غرابة فى ذلك •

وتفضلت باغداق الثناء فشكرت لها تقديرها فقالت :

ــ انى بحاجة الى مراجع تاريخية لأواصل الكتابة •

ــ مطلب يسير فيما أعتقد •

ــ أود أن أكتب عن أشهر نساء الشرق وبخاصة اللاتى لعبن أدوارا خالدة فى الحب ••

ــ موضوعات شائقة ••

فابتسمت ابتسامة رقيقة وقالت :

ــ أطمع أن تشترك معى فى العمل •• ؟

فاعتذرت بلا تردد قائلا :

ــ انى مشغول بأعمال أخرى •

ــ ممكن أن تمدنى بالمراجع والمادة العلمية وأن تشترك فيما يعجبك من الموضوعات ••

ــ سأهديك الى المراجع •

ولكنها تجاهلت اعتراضى وقالت وهى ترمى بنظرتها الى رءوس أشجار الحور تحتنا :

— سنعمل فى الحدائق ..

ثم بعد توقف قصير :

— الا اذا تفضلت بتشريف بيتى .

نجحت الغزوة الجديدة فى اقتحام ترددى فتساءلت :

— بيتك ؟

— لم أعرفك بحالتى الاجتماعية ، انى مطلقة ، أقيم مع خالتى العجوز ، ولى ابن وابنة يقيمان مع والدهما .

— لكن خالتك ؟ !

— لا عيب فى العمل ..

ثم وهى تنظر بعيدا :

— يمكن تدبير الأمر لنهيىء جوا صالحا للعمل .

— ولكن ..

— ولكن ؟

— أصارحك بأنه من المؤسف ألا تنعم سيدة مثلك بحياتها الزوجية ..

فقالت بامتعاض :

— لم تكن حياة موفقة ، ولا يوما واحدا ..

— عجيبة .

— علمنى كيف أمقته ، ولم أحبه من قبل .

— ولم قبلت الزواج منه ؟

— زوجت اليه وأنا بنت ستة عشر ، أبعد ما تكون عن النضج وبلا وزن لرأيى .

— زيجات سعيدة كثيرة بدأت كذلك .

— انه أنانى نذل متوحش .

لم تشأ أن تنتقل من العموميات الى التفاصيل ففتر اهتمامى بالموضوع ، وبخاصة وأنه أصبح من ذكريات ماض بدا أنه ذهب الى غير رجعة . حتى الفن نفسه تراجع الى الهامش وذاب فى الظلام . وبحركة غير متوقعة تسللت يدها البضة فاستقرت فوق يدى على طرف المائدة :

— انى فى حاجة الى انسان أطمئن اليه ..

ورغم احتمال المبالغات بل والأكاذيب فانى شعرت نحوها بعطف ورثاء . ومع ذلك سألتها مداعبا :

— يهمك الفن لهذا الحد ؟

فقالت ضاحكة :

— الفن والحياة !

ولكننا نسينا الفن والتاريخ ونحن نتجول فى صحراء الهرم . تركزت همومنا فى الواقع المعاصر ، واقع البيت بالذات ، وخالتها بصفة خاصة ، سنها الطاعنة ، ونومها الثقيل ، وحواسها الضعيفة ..

— الا اذا أردت أن نلتقى فى بيت آخر !

وباندماجى فى المؤامرة تدفق طوفان الرغبة فى دمى فقلت :

— ليكن اليوم .

ولكنها قالت بسرور وبلا مكر :

— أمهلنى حتى أهيىء الجو ..

وعندما جمعتنا الحجرة هفت على حواسى أخلاط روائح مركزة من العطر والبرفان والخمر تسبح فى أمواج نور أحمر خافت فردتنى الى ذكريات بعيدة ما كنت أتصور أنها ستعود · وجدتنى مرة أخرى موثقا بالحرير مذعنا لرغبة سكرى بيقظة مباغتة ، وبلا حب بالمعنى الحقيقى · أما أمانى فكانت متفانية فى المودة ، اهتدت الى مرفأ بعد تخبط فى ليل بهيم ، لهفة بلا حدود على الحب والحنان يزفرها قلب محروم من الحب والأمومة والثقة · وجعلت تصارحنى بخباياها فى لقاءاتنا المتتالية :

ـ حالتى المالية حسنة ، ليس لدى ما أشكوه من هذه الناحية ··

أو تقول :

ـ ربنا يسامح بابا ويرحمه ، كان السبب ··

أو تقول :

ـ لا أمان لشبان هذه الأيام ، ربنا يحفظ بنتى ··

وتضخم شعورى بالمسئولية ، وكان يستفحل كلما تذكرت بأن حياتنا المشتركة تقوم على غير أساس مشترك ، وأنه لا يمكن أن تمضى هكذا الى الأبد ، وأن العطف والجنس لا يكفيان لاستتباب الأمن فى أسرتنا ذات الجناح الواحد · وذات يوم من أيام العام نفسه ـ أواخر الصيف أو أوائل الخريف · زارنى فى مكتبى الأستاذ عبده البسيونى ، تذكرته من أول نظرة رغم التغير الهائل الذى طرأ عليه · ورحبت به بحرارة

كأننا لم نفترق حوالى ربع قرن على الأقل · ترى ماذا غيره بهذه الدرجة رغم أنه لا يكبرنى بأكثر من بضعة أعوام ؟ · وسألته :

ـ ماذا تفعل الآن ؟

ولكنه تجاهل سؤالى وسأل بدوره :

ـ لعلك تسأل عما دعانى الى زيارتك بعد ذاك العمر من الانقطاع ؟ ·

فقلت ببراءة :

ـ لعله خير يا زميلى القديم ·

فقال وهو يرمقنى بهدوء :

ـ انى أزورك بصفتى زوج أمانى محمد !

مرت ثانية وأنا لا أعى لقوله معنى وفى الثانية التالية انفجر معناه فى وعيى كصاروخ · الحق انى غبت عن الوجود بمعنى ما ، تلاشى المكان والزمان ، لم أعد أرى الا وجه عبده البسيونى الأسمر المستدير، كأنه وجه شخص آخر ، وجه تمثال يقوم أمام مكتبى منذ الأزل · لم أنبس بكلمة ، وطبعا لا فكرة لى عن الصورة التى انطبعت فوق صفحة وجهى ، ولكنه هز رأسه بهدوء وقال بنبرة مستأنسة :

ـ لا داعى للجزع ·

وابتسم ابتسامة ما وقال :

ـ لا علم لك بشىء ··

ثم بتوكيد :

ـ لم أحضر للانتقام ·

مضيت أرجع الى مقعـدى وحجرتى ولكن شعورا حادا اجتاحنى بأن دنياى على وشك التصدع والتلاشى ·
وسمعته يقول :
ــ من حسن الحظ أن الأيام التى عشتها فى باريس لم تضع عبثا !
وقلت وأنا مستسلم تماما للمقادر :
ــ لعلك تعنى امرأة أخرى ·
ــ أعنى المرأة التى كنت عندها أمس !
ــ ولكنها مطلقة !
ــ بل على ذمتى وأنا زوجها !
فغمغمت :
ــ يا لها من كارثة !
ــ لم أزرك بدافع غضب أو انتقام ·
ــ ولكنى أموت أسفا وحزنا ·
ــ لا ذنب عليك ·
ثم بامتعاض شديد :
ــ وما أنت الا آخر صيد لها !
ــ ماذا ؟
ــ مرة ومرة ، وفى كل مرة أتدخل لانقـاذها من التدهور ، لانقاذ مستقبل ابنى وابنتى ··
ــ يا لها من حياة ! ·· ولكن ··
وتريثت مرهقا ثم عدت أتساءل :
ــ ولم تتحمل ذلك كله ؟
ــ لا مفر ، انى أرفض تطليقها رغم مطالبتها به ·

ــ لم ؟
ــ هى أم ابنتى وابنى ، وهمـا فى طور المراهقة ، والطلاق يعنى لها التدهور حتى الاحتراف !
ــ قد تتزوج مرة أخرى ·
ــ لم تعد أهلا لذلك !
ــ موقف عسير محزن ·
ــ لذلك فانى مصمم على اسـتردادها ، وانقاذ ما يمكن انقاذه ، ومن حسن الحظ أن حياتى فى باريس لم تضع هدرا !
فقلت بحزن :
ــ ما أبغض الحياة اذا فسدت ··
ــ أجل ، لعلها حدثتك عنى ، وعندى أيضا ما أقوله ، ولكنى مصمم على انقاذ ما يمكن انقاذه ··
فقلت متأسفا :
ــ ما تصورت يوما أن أقف منك موقفى هذا !
فلم يكترث لأسـفى هـذه المرة · أشعل سيجارة وراح يدخن متفكرا · بدا لى هرما متهدما · ثم نظر الى قائلا :
ــ أنت تذكر بلا شك حياتى الماضية !!
أجل أذكر · زمالته فى الجامعة · سفره الى باريس فى بعثة خاصة على حسابه · عودته بعد عامين أو ثلاثة بلا نتيجة · انتخابه عضوا بمجلس النواب · تمتعه بجاه الأسرة والحزب والنيابة · قلت :
ــ طبعا أذكرها ··

فقال :
ـ لما قامت ثورة يوليو لم أجد تناقضا بينها وبين فكرى الحر ..
ـ معقول جدا ..
ـ وعملت فى نطاقها باخلاص ولكنى اتهمت ظلما فى مؤامرة اتهم بها بعض أقطاب الحزب فقبض علىّ حينا ثم صودرت أملاكى ..
وجمت لا أجد ما أقوله فقال :
ـ وجدت نفسى فى الطريق متسولا !
ـ ولكن حرمك ذات مال !
فضحك قائلا :
ـ أفقر من الفقر نفسه ، لها خالة غنية ولكن لها وريثا ، ولعلها كذبت عليك فى ذلك أيضا .
وشملنا الصمت حينا حتى قلت :
ـ أذلك ما أفسد حياتكما ؟ .
ـ كلا ، لقد توثبت للعمل الجدى من أول يوم ، كرست وقتى وما أزال للترجمة والاقتباس ، واستعنت على النشر ببعض الزملاء القدامى المنتشرين فى الصحف والمجلات ، غير أن أخلاقى تغيرت فى سياق المحنة ، ونشب نزاع متواصل بينى وبينها ..
ـ ولكن تلك أمورا طارئة يمكن معالجتها .
ـ كان قد فسد الأمر .
ـ خسارة فادحة وغير مقنعة ..

ـ انها حمقاء ، غير جديرة بالمحافظة عليها لولا مصلحة ابنى وبنتى ..
وصمت لحظات ثم قال بنبرة اعتراف :
ـ ضربتها مرة وأنا فريسة لجنون الغضب فلم تغفرها لى ..
ـ يؤسفنى ما صادفك من سوء حظ ..
فقال بنبرة متجددة :
ـ انى أطالبك بقطع علاقتك بها ..
فقلت وأنا لا أصدق بالنجاة :
ـ طبعا ..
ـ وأن تحاول اقناعها بالرجوع الى بيتها ..
ـ سأبذل جهدى وفوقه ..
فقال وهو يلوح بحركة قاطعة :
ـ حسبنا كلام فى هذا الموضوع البغيض ..
تنفست من الأعماق . وجعل يتذكر عهدنا القديم . وذكر فيمن ذكر الدكتور ابراهيم عقل وأستاذنا الدكتور ماهر عبد الكريم . قال :
ـ لقد انقطعت عن صالونه منذ سفرى الى باريس ولكنى زرته مرارا زيارات خاصة ، وأفكر فى الرجوع الى اجتماعات الصالون ..
وهز رأسه قائلا :
ـ لقد ضاعت أراضى أسرته فى الاصلاح الزراعى ، وباع قصر المنيرة وابتاع فيللا فى مصر الجديدة انتقل اليها صالونه العتيد .

ـ أعرف ذلك فأنا من المترددين عليه بانتظام منذ عام ١٩٣٠ ··
فراح ينوه بنشاطى وتقدمى ثم قال :
ـ انى أكدح بلا انقطاع للمحافظة على كرامتى ··
ـ أنت مثال طيب ·
ـ ولدى مشروعات ترجمة لا حصر لها ·· كتب · مسرحيات ·· قصص سينمائية ··
ـ عظيم ·· عظيم ··
ـ ولكن تلزمنى عقود مع المؤسسات الثقافية ··
ـ اعرض ما لديك ··
فسكت قليلا ثم قال :
ـ قيل لى انه لا جدوى من العرض وحده ؟
فتساءلت متبالها :
ـ ماذا تعنى ؟
ـ قيل ان الوصول قد يقتضى مالا ولا مال لدى !
ـ لا تصدق جميع ما يقال !
ـ أو أن أكتب مقالات نقدية تقديرا للبارزين فى المؤسسات ··
ـ قلت لا تصدق ··
ـ أنا على استعداد لتقرير أن أى بغل فيهم أعظم من أحمد شوقى ولكن المتنافسين فى التقدير لم يدعوا مجالا لشخص مثلى لم يعرف كناقد من قبل ! ·· وفضلا عن ذلك فلست اذاعيا ولا تليفزيونيا لأدعوهم

الى برامج أو أعرض أعمالهم ، فلم يبق أمامى الا الطريق الطبيعى وهو كما تعلم غير طبيعى ··
وضحك لأول مرة فشعرت بالنجاة أكثر ، وحاولت تبديد ظنونه وتشجيعه · وقام وهو يذكرنى بمطلبه الأصلى فقلت له :
ـ سأبذل ما فوق طاقة الانسان ··
وقد بررت بوعدى · وما ان طرقت الموضوع حتى هتفت أمانى :
ـ الوحش وصل اليك !
واحترقت عيناها بنار الغضب فذكرتها بواجبها نحو ابنها وابنتها فصاحت :
ـ أنت لا تعرفه !
فقلت :
ـ بل أعرفه من قديم ، ليس سيئا كما تتوهمين ، وهو خير من كثيرين ··
ـ كلا ·· أنت لا تعرفه ··
فأصررت على نصحها فصاحت :
ـ كفى ·· لا تضطهدنى ··
ـ بل لى عليك عتاب ، كيف تخفين عنى علاقتك الزوجية وأنت تعلمين أنه يطاردك ؟
فهتفت :
ـ لا غيرة عنده ألبتة !
ـ انه يحب ابنه وابنته ··
ـ بل يحب نفسه وحدها ··

ـ المسألة ٠٠

فقاطعتى بحدة :

ـ المسألة أنك لا تحبنى ٠٠

ثم وهى تجفف عينيها :

ـ مات الحب فى هذه الدنيا منذ زمن بعيد ٠٠

ثم رمتنى بنظرة عتاب وقالت :

ـ لم تقل لى انك تحبنى ولا مرة واحدة ، ولكنى لا ألومك ٠٠

فقلت معتذرا :

ـ أنت تستحقين الحب أما أنا فلم أعد أهلا له ٠٠

ـ كلام ٠٠ كلام ٠٠ كلام ٠٠

ـ ستجدين فى بيتك ما هو أهم ٠

رجعت وفى أعماقى شعور بالتحرر والنجاة والندم ثم اجتاحنى حزن عميق ٠ وظل احساس حاد بالرثاء يطاردنى نحو زميلى القديم عبده البسيونى وزوجه أمانى محمد ٠ وتوقعت أن يتصل بى ولكنه لم يفعل ٠ وأردت أن أتصل بها لأطمئن عليها ولكنى لم أجد فرصة ولا وسيلة ٠ والتقيت بعد ذلك بأزمنة متفاوتة وفى أماكن مختلفة بعبده البسيونى فأشعرنى سلوكه بأنه يتقدم فى طريقه المرسوم بارادته الكادحة ٠ وفى ١٩٦٨ أو ١٩٦٩ وكنت سائرا بشارع رمسيس أمام مبنى التليفون وجدت أمانى مقبلة نحوى على بعد خطوات ! ٠ وبحركة عفوية مددت يدى فصافحتنى

بلهوجة وارتباك أشعرانى بتسرعى وخطئى ٠ وهمست معتذرا :

ـ ان شاء الله تكونين بخير ٠٠ ؟

فأجابت وهى تمضى :

ـ الحمد لله ٠٠

تبدت مفرطة فى البدانة والرزانة غير أن ارتباكها أقنعنى بأنها تعانى مسئولية السيدة المتزمتة اذا ورطتها ظروف خارجة عن الارادة فى مصافحة رجل « غريب » ٠

أنور الحلوانى

اسمه قادر على استدعاء عالم متكامل بأسره · ميدان بيت القاضى المتربع بين الجمالية وخان جعفر والنحاسين ، وأشجار البلخ المثقلة بأعشاش العصافير ، وقسم الجمالية العتيق ، وحوض الماء القائم فى الوسط تسقى منه البغال والحمير ، وكشك حنفية المياه العمومية ، وهو ملعب طفولتى وصباى · وكنت أتطلع باهتمام الى أنور الحلوانى فى ذهابه من بيته الملاصق لبيتنا أو فى ايابه اليه · لم يكن شابا عاديا ، كان من رواد المتعلمين الأوائل فى الحى ، كان طالبا بمدرسة الحقوق · وربما كنت معجبا بطربوشه المفرط فى الطول ، وشاربه الغزير المبروم ، وبذلته الأنيقة · وكان يسير فى رزانة لا تناسب سنه فكان يحلو لى أن أقلده ما تيسر لى ذلك · وكنت أتذكر جيدا الشربات الذى شربته احتفالا بنجاحه فى البكالوريا ، قدمته لى أمه بيدها وهى امرأة من أصل ريفى كان يحلو لى أيضا أن أقلد لهجتها · والظاهر أن أحداثا كانت تجرى فى خفاء من حولى وأنا ألعب تحت أشجار البلخ ·

استيقظت ذات صباح على صوات يترامى من بيت جيراننا · وحدث اضطراب شامل فى بيتنا فجعلت

أتمسح فى المضطربين والمضطربات مستطلعا · وعرفت فى ذلك الصباح أن جارنا الشاب أنور الحلوانى قد قتل ، برصاصة ، فى مظاهرة ، بيد جندى انجليزى · عرفت لأول مرة فعل « القتل » فى تجربة حية لا فى حكاية من الحكايات الشعبية ، وسمعت لأول مرة عن « الرصاصة » فى أول اتصال سمعى باحدى منجزات الحضارة ، وثمة لفظة جديدة أيضا « مظاهرة » استدعت الكثير من الشرح والتفسير ، وربما لأول مرة سمعت عن ممثل جنس بشرى جديد فى حياتى الصغيرة هو « الانجليزى » · وتطايرت الأحاديث فى البيت وفى الميدان مكررة لتلك الكلمات ومضيفة اليها غيرها مثل الثورة والشعب وسعد زغلول · انهمرت على الكلمات حتى أغرقتنى وانطلقت منى الأسئلة بلا حساب وبالحاح شديد ، قتل ·· ما معنى قتل ؟ وأين ذهب أنور ؟ وماذا ينتظره فى العالم الذى ذهب اليه ؟ ومن الانجليزى ولم قتله ؟ وما معنى الثورة ؟ وما معنى سعد زغلول ؟ وما وما وما ؟ وما لبثت الأحداث أن تدافعت الى الميدان نفسه فى جنون خيالى ·

قبعت وراء شيش النافذة أنظر بعينين محملقتين الى جموع البشر المتدفقة مَن ذوى البدل والجبب والقفاطين والجلابيب ، حتى النساء فى الحناطير والكارو ، يحملون الأعلام ويهتفون · وسمعت أزيز الرصاص، أجل لأول مرة أسمعه ، ينطلق من اللوريات ومن فوق صهوات الخيل ، ورأيت الانجليز رؤية

العين بقبعاتهم العالية وشواربهم النافرة ووجوههم الغريبة ، ورأيت الجثث بالعشرات مطروحة فى جوانب الميــدان ، ورأيت الدم البشرى يلطخ الملابس وأديم الأرض ، وسمعت الحناجر وهى تهتف من الأعمــاق « يحيا الوطن » ، و « نموت ويحيا سعد » ·

بدر الزيادى

كان زميلا بالمدرسة الثانوية · وكان بدينا خفيف الروح ، يحب الطعام واللعب والبنات ويحب الوطن · وكان أبوه ضابط المدرســة ، عاصرناه عامين ، ثم اتهم فى ظروف لا أذكرها بالعيب فى الذات الملكية فقدم الى المحاكمة التى أدانته وحكمت عليــه بالحبس ستة أشهر مع وقف التنفيذ ولكنه فصل من وظيفته · وكان بدر يفاخر بشجاعة أبيه ووطنيته فجاريناه فى ذلك اذ كان العيب فى الذات الملكية يعد درجة لا بأس بها من درجات الجهــاد يضمن لصــاحبه موضعا فى صفحة المجاهدين · وكان بدر تلميذا عاديا فى الفصــل ، بل خاملا ، أما مجده الحقيقى فكان يتألق فى فناء المدرسة· فى فناء المدرسة كان قطبا ينجذب اليــه بعض تلاميذ فصله وتلاميذ من الفصول الأخرى · وعنــدما يجد نفسه محورا تتحرك مواهبه ويجيش صدره بالعطاء ، فيلقى بعض الأزجال الوطنيــة ، ويحكى النــوادر اللطيفة ، أو يتصدى لتحديات غريبة · سألنا مرة عن أوفق الأماكن لمارسة الحب ، فأجاب كل بمــا خطر له ، ولكنه جعل يهز رأســه ساخرا حتى نضب معين خواطرنا ، ثم أجاب هو قائلا :

ـ القرافة !

ودهشنا ، وضحكنا مما ظنناه مزاحا فعاد يقول :

ـ فى المواسم يبيت الناس فى أحواش المقابر ، نساء ورجالا ، والنساء يكن عادة أضعاف أضعاف الرجال، وفى ظلام الليل تسنح فرص لا تخطر على بال ٠٠

فقال بعضنا :

ـ ولكنها مناسبة لا تفتح النفس للحب !

فقال بيقين :

ـ الحب لا يتخير مناسبة فهو صالح لكل مناسبة !

وقص علينا كيف انقض على خادمة فى مكان خال من البيت وجثة عمته مسجاة تنتظر من يكفنها والنائحات ينحن فى ساحة البيت ٠ وفى ذاك المجال كانت له حكايات غريبة لا تنفد ٠ أما امتيازه الحق فقد ناله بكل جدارة فى كرة القدم ٠ كان قلب الهجوم فى فريق المدرسة ٠ ورغم بدانته اشتهر بالسرعة وخفة الحركة غير أن اندفاعه المتناقض مع وزنه كان يثير فى الملعب عاصفة من الضحك ٠ وعرف بقدرته الخارقة فى المحاورة والمداورة ، والسيطرة على الكرة كأنما يشدها الى مجال قدميه بقوة مغناطيسية ، والمكر الأريب الذى يفقد أعداءه توازنهم ويطرحهم أرضا ، كما امتاز بقوة ضرباته للكرة ٠

وكان يعد نفسه للعب فى النوادى ويحلم بالاشتراك فى الأوليمبيات العالمية ٠ وكان مستر سمبسون المدرب العام بوزارة المعارف يعجب به فنصحه فى ختام احدى المباريات العامة بين المدارس بتخفيف وزنه فكانت

استجابته للنصيحة أن التهم ـ فى حفل الشاى الذى أعقب المباراة ـ طورطة كاملة وحده مع عديد من السندوتشات والفطائر ! ٠

وذات صباح وقف بدر الزيادى يهتف ـ مع الهاتفين ـ بحياة دستور ١٩٢٣ وسقوط الدكتاتورية ٠

كان الملك فؤاد قد أقال مصطفى النحاس وعهد بالوزارة الى محمد محمود فأعلن هذا تأجيل العمل بالدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد ٠ وأضربت المدارس جميعا ، ومنها مدرستنا ، غير أن قوات الشرطة حاصرتنا فلم نتمكن من الخروج ٠ ولكى نتسلح بما يلزمنا فى المعركة اقتلعنا الأشجار والنوافذ والأبواب واقتحمنا المطعم فاستولينا على الأطباق والحلل والمغارف والشوك والسكاكين ٠ وتصاعدت هتافاتنا العدائية مقتحمة كل مقام حتى مقام الملك ٠ وعند ذاك هجم الجنود فجأة ومن جميع الأبواب وانهالوا علينا بالعصى الطويلة على حين أطلق الكونستبلات الانجليز الرصاص فى الهواء على سبيل الارهاب ٠ ودارت معركة غير متكافئة ، ولم ينج واحد منا من ضربة أو أكثر ، وسقط جرحى كثيرون ، واستشهد فراش وتلميذ ٠ كان بدر الزيادى هو التلميذ الشهيد اذ قضت عليه ضربة أصابت مؤخر رأسه ٠ وصممت المدرسة على تشييع جنازته فى اليوم التالى ولكن الشرطة ضربت حصارا حول قصر العينى الذى كان عامرا بالشهداء من جميع المدارس ٠

وحملت الجثث رأسا من المستشـفى الى المدافن تحت حراسة الشرطة ، ولكننا ذهبنا فرادى الى بيت ضابط مدرستنا القديم لنقدم له واجب العـزاء · وما زال الرجل حيا حتى اليوم ولعـله فى الخامسة والسبعين من عمـره · أراه نادرا فى بعض زياراتى للعباسـية وهو جالس فى مقهى صغير قريب من مسكنه · مهدما بالكبر وضيق ذات اليد فيما يبدو · لا يتصـور من يراه أنه كان من ذوى العقـائد الحرة أو أنه جابه الحياة بشجاعة وأنه فقد فى سبيل ذلك وظيفته وابنه · ومن مكانه المنزوى يراقب السيارات المنطلقة حاملة الناجحين من رجال المجتمع المعتزين باقبـال الحياة الذين لم يكتووا بنار تضحياتها وقيمهـا السامية · ترى ماذا يدور بخلده وهو يتابع هذا التيار الغريب المتدفق ؟ ، أم أن الكبر والزمن قد أعفياه من كل شىء الا ما يعانيه فى لحظته العابرة !!·

أما بدر فما زالت الصورة التذكارية لفـريق كرة القـدم تجمعنا ، وهو يتوسـط الفـريق ، الكرة بين قدميه ، يطالع الكاميرا بنظـرة مرحة مترعة بالثقـة بالنفس ··

بلال عبده البسيونى

التقيت به مصادفة فى فيللا الأستاذ جاد أبو العلا فى أوائل عام ١٩٧٠ · ورغم أننا لم نتصادق ، بل ولم نلتق مرة أخرى الا أنه ترك فى نفسى أثرا يستحق أن يذكر · ولما ذهبت الى الفيللا ذلك المساء لم يكن ببهو الاستقبال الا الأستاذ جاد أبو العلا صـاحب الفيللا وزميلى القديم عبده البسيونى وشاب وسيم به شبه منه سرعان ما قدمه الى قائلا :

ـ ابنى ·· الدكتور بلال ·

وفى الحال تذكرت قصة الابن والابنة اللذين كانا محور حديث ذى شجون بين عبده وبينى ثم بينى وبين أمانى محمد منذ سنوات خمس · واشتركت فى حديث ممـا يجرى بلا هـدف وقد عاودنى شـعور بالذنب القديم · واذا بعبده البسيونى يقول مشيرا الى ابنه :

ـ الدكتور يفكر فى الهجرة !

واسترعى قوله اهتمامى فنظرت الى الشـاب من جديد بحب استطلاع آسر · ان كلمة « الهجرة » من الكلمات الجديدة التى غزت قاموس حيـاتنا وأثارت فى جيلنـا القديم العجب · ها هو واحد من فرسانها فما أطيب الفرصة ·

وعاد عبده يقول :

ـ انه مرشح لبعثة دراسية قصيرة بالولايات المتحدة ولكنه يضمر الهجرة ..

فسأله جاد أبو العلا :

ـ وما رأيك أنت ؟

فأجاب عبده ضاحكا :

ـ وما قيمة رأيى أو رغبتى ؟

ـ على سبيل العلم بالشىء ؟

ـ لا أوافق ٠ ٠

ـ وأمانى هانم ؟

ضاعف من ارتباكى الخفى ذكر الاسم ولكنى عرفت لأول مرة أنها رجعت الى أسرتها ، كما أدهشنى أن يتحدث جاد عنها بتلك الألفة ٠ أما عبده فأجاب :

ـ انها ترحب بالفكرة وتتخيل أنه سيكون بوسعها أن تسافر الى الولايات المتحدة كلما شاءت ..

فضحك مضيفنا وجاريته فى ضحكه ثم قال مخاطبا الشاب :

ـ ينتظرك هنا مستقبل باهر ٠

فقال الدكتور بلال :

ـ انى أتطلع الى بيئة علمية صحية ..

فقال عبده البسيونى :

ـ ان هجرة صديق له يدعى الدكتور يسرى أدارت عقله ولكنه فى اعتقادى شخص شاذ لا يصلح مثلا طبيا ، كان طبيبا ناجحا سواء فى المستشفى أم فى العيادة ولكن غضبه على كل شىء لم يكن يهدأ لحظة

واحدة ، ولم يكن يكف عن النقد المر ، كان يفور بكراهية غريبة نحو البلد ومن فيه ، فانتهز فرصة وجوده فى اجازة دراسية ثم قرر البقاء هناك ..

فقال دكتور بلال :

ـ ونجح هناك نجاحا فريدا ، فى العمل والبحوث على السواء ..

ـ وكان هنا ناجحا أيضا فما معنى الهجرة ؟!

ـ البيئة العلمية يا أبى ! ، واليك قصة وكيل قسم بالمستشفى الذى أعمل به ، درس حتى حصل على درجة الدكتوراه بامتياز رائع ، انتظر أى تقدير فلم يظفر منه بشىء ، بل حورب حتى لا يحتل المكان العلمى اللائق به ، فما كان منه الا أن هاجر ، ولدى عرض بحثه فى الولايات المتحدة تلقى أكثر من عرض للعمل فى الجامعات والمستشفيات ..

لاحظت أنه كان يتكلم بحدة تقارب الغضب ، فقلت :

ـ قد يوجد خلل ولكن ليس للحد الذى يدفع الناجحين الى الهجرة ..

فقال لى دون أن يخفف من حدته :

ـ بل الشأن فى كل شىء يدعو للرثاء !

ـ حسن أن تشعر بذلك وأن تؤمن به ولكن منذا الذى ينبرى للاصلاح سواكم ؟ ..

ـ لن أشغل نفسى بهذه الأفكار ..

ـ ولكن وطنك قيمة لا يمكن انكارها أو تجاهلها ؟

فقال بهدوء نسبى :

ـ وطنى الأول هو العلم !
ثم بعد تردد كأنما حاسب فيه نفسه :
ـ الوطن ·· الاشتراكية ·· القومية العربية ·· ماذا أقول ؟ · لا تتصورنى عابثا ·· كلا ·· ولكن ماذا بقى لنا بعد ٥ يونية ؟!
فقلت :
ـ مضت على النكسة أعوام خليقة بأن تجعل منها درسا لا نكسة ··
فقال لى عبده البسيونى :
ـ لا فائدة ، انه جيل لا يقتنع الا بما فى رأسه ··
فقال جاد أبو العلا :
ـ لا بأس من ذلك ولكن لا يجوز أن ينسى وطنه ··
فقال الدكتور بلال :
ـ لا منقذ لنا سوى العلم ، لا الوطنية ولا الاشتراكية ، العلم والعلم وحده ، وهو يواجه المشكلات الحقيقية التى تعترض مسير الانسانية ، أما الوطنية والاشتراكية والرأسمالية فتخلق كل يوم مشكلات نابعة من أنانيتها وضيق نظرها وتبتكر لها من الحلول مايضاعف فى النهاية من حصيلة المشكلات الحقيقية ·
فسألته :
ـ وماذا يمنعك من أن تكون باحثا وعالما فى وطنك ؟
ـ توجد موانع وموانع ، استعداد بدائى للبحث وجو خانق للفكر والعدالة والتقدير ، لذلك أفكر فى

الهجرة ، وسأكون فى أمريكا أعظم فائدة لوطنى مما لو بقيت فيه ، فالعلم لجميع البشر ، باستثناء علم الحرب والهلاك فالعلم لجميع البشر ··
وسأل جاد أبو العلا عبده البسيونى :
ـ وماذا عن شقيقته ؟
ـ ستحصل على بكالوريوس فى الصيدلة فى نهاية العام الدراسى وهى متحمسة أكثر منه للهجرة ··
فضحك الرجل عاليا وقال :
ـ وفتى الأحلام ؟ ·· ألم تفكر فى هذه المشكلة ؟
ـ ان ما نعده مشكلة يعدونه لعبا ··
فقال جاد أبو العلا :
ـ من المؤسف أن الفن لم يقدم لنا بعد نموذجا من هذا الجيل ، كم أود أن أسبق الى ذلك !
فقلت له :
ـ انه يتقدم بلحمه ودمه فوق مسرح حياتنا المسكينة !
فقال عبده البسيونى مخاطبا ابنه :
ـ انكم تحلمون بالهروب والسفينة تواجه العاصفة!
شعرت بأن عبده غير جاد فى معارضته وأنه لا يحسن اخفاء اعجابه بابنه · وهز الدكتور بلال منكبيه استهانة فأيقنت أنه يمثل موقفا جديدا من « الوطنية » تلك الأمانة القديمة التى أرهق جيلنا حملها · وقال بلال ضاحكا وقد ذكرتنى ضحكته بأمه :



ـ الحق أنى أحلم بهيئة علمية تحكم العالم لخير العالم .

فسألته :

ـ وماذا عن القيم ؟ .. العلم لا يتعامل معها ، وحاجة الانسان اليها لا تقل عن حاجته الى الحقائق .

فنظر الى فيما يشبه العجز ثم قال :

ـ يجب ألا يعنى ذلك التمسك البائس عديم الجدوى بقيم بالية ، انكم لا تتمسكون بها الا خوف المغامرة بالبحث عن غيرها ، والعلم لا يعطى قيما ولكنه يضرب مثالا حسنا فى الشجاعة ، فعندما تهاوت الحتمية الكلاسيكية كيَّف نفسه برشاقة فوق أرض الاحتمال وتقدم لا ينظر الى الوراء ..

فقال جاد أبو العلا :

ـ من العبث أن تناقش قوما ليس بينك وبينهم لغة مشتركة ..

فقلت وقد أخذ رأسى يحمى بالحدة :

ـ انكم تودون الهجرة الى الحضارة بدل أن تنموها فى أرضكم ..

فقال محتدا :

ـ الانسان فى الأصل كائن مهاجر وما الوطن الا المكان الذى يوفر لك السعادة والازدهار ، لذلك لا تقبل على الهجرة الا الصفوة ، أما المتخلفون ..

وتوقف كالمتردد فقلت :

ـ أما المتخلفون فيحسن التخلص منهم !

فباخت حدته وقال ضاحكا :

ــ لو سار الازدياد السكانى على معدله الحالى وعجزت الوسائل عن تغذيته فربما تقضى المصلحة العامة للحضارة بافناء أجناس برمتها !

فهتف به أبوه :

ــ حسبك !

وقال جاد أبو العلا :

ــ ما أسعد اسرائيل بكم !

فعاودت الشاب حدته وهو يقول :

ــ أتحدى اسرائيل أن تفعل بنا مثلما فعلناه بأنفسنا !

وقد بت ليلتى متفكرا فى حديث الدكتور بلال ، مستعيدا جمله وعباراته ، متأملا الموضوع من شتى جوانبه ، حتى اقتنعت فى النهاية بأنه لا نجاة للجنس البشرى الا بالقضاء على قوى الاستغلال التى تستخدم أسمى ما وصل اليه فكر الانسان فى استعباد الانسان وخلق صراعات مفتعلة سخيفة تستنفد خير ما فيه من امكانيات رائعة ، وذلك كخطوة أولى لجمع العالم فى وحدة بشرية ، تستهدف خيرها معتمدة على الحكمة والعلم ، فتعيد تربية الانسان باعتباره مواطنا فى كون واحد ، وتهيىء لجسمه السلامة ولقواه الخلاقة الانطلاق ليحقق ذاته ويبدع قيمه ويمضى بكل شجاعة نحو قلب الحقيقة الكامنة فى ذلك الكون الباهر الغامض . اما ذلك واما مستقبل جعلنى أشعر

بالامتنان لكونى من جيل يوشك أن يختم رحلته فى هذه الحياة العجيبة التى تدور بخيرها وشرها فوق فوهة بركان .

وقد التقيت بعبده البسيونى بعد مرور أشهر فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم فبادرته بالسؤال عن ابنه فأخبرنى بأنه سافر ، ثم قال :

ــ وستلحق به أخته فى القريب !

ثم قال بنبرة اعترافية :

ــ أجد كثيرا غمزا أليما فى قلبى ولكن زمانى علمنى التسليم للمقادر ..

وبعد قليل من الصمت عاد يقول :

ــ لا أخفى عنك أنى مقتنع بقرارهما ، لم لم تؤهلنا دراستنا العقيمة للهجرة ؟!

فقلت :

ــ العلم لغة عالمية أما مهنتنا فألغاز محلية ..

وأفضيت اليه بالخواطر التى اجتاحتنى عقب استماعى لحديث ابنه فضحك طويلا ثم قال :

ــ نحن الكهول مطالبنا يسيرة ، سعادتى اليومية تتحقق لدى شرب قدح من القهوة باللبن مع قطعتين من البسكوت ..

ثريا رأفت

رأيتها أول عهدى بالوظيفة عام ١٩٣٥ . كانت تتردد على الوزارة لزيارة عمها فقدمنى اليها فتعارفنا . وكانت طالبة بالمعهد العالى للتربية وعلى وشك أن تعمل مدرسة . وكانت متوسطة الجمال ولكن بارعة القد والقامة ، تنم عيناها عن ذكاء وشخصية . ولاحظ الأستاذ عباس فوزى وكيل السكرتارية اعجابى بها فقال لى يوما ـ عقب ذهابها مباشرة ـ وهو يوقع لى على بعض الأوراق :

ـ آن لك أن تفتح بيتا وتستقر .

فأدركت أننى ضبطت متلبسا وقلت :

ـ أترى ذلك ؟

ـ ان صافى مرتبك ثمانية جنيهات وهى تكفى للزواج من اثنتين !

فضحكت وقلت مرددا مشاعر جيلنا :

ـ ولكن هل تحبذ الزواج من موظفة ؟

فقال بتهكمه المعهود :

ـ كما قد توجد منحرفة بين ستات البيوت فقد توجد مستقيمة بين الموظفات !

فعلمت أنه يحذرنى بأسلوبه الملتوى ، ولكن سيطرة الفتاة الجنسية على كانت فوق أى تحذير

فسعيت الى توثيق علاقتى بها . وكانت ـ كطالبة ـ تتمتع بقدر من الحرية خليق بأن يثير فى سوء الظن ، فضلا عن نظرة عينيها الساخنتين الجريئة ، واستجابتهما المثيرة للقلق . كان كل أولئك جديرا بأن يصدنى عنها ولكنه أغرانى بها فانتظرتها فى الخارج بدافع هو خليط من حسن النية والجرى وراء مغامرة . صافحتها وسرت الى جانبها وأنا أقول :

ـ أود أن نجلس معا قليلا من الوقت ..

فسألتنى متظاهرة بالدهشة :

ـ لم ؟

فقلت :

ـ رغبة فى مزيد من التعارف .

ـ ليس اليوم ..

وأرادت أن تودعنى فقلت :

ـ ولكنك لم تحددى يوما آخر ؟

فأبطأت قليلا كأنما غلبت على أمرها وقالت :

ـ ليكن يوم الاثنين ، العاشرة صباحا ، بحديقة الحيوان ..

ومع أن استجابتها لبت صميم أمنية القلب الا أنها فى الوقت نفسه ثبتت سوء ظنى بحريتها ، وغلبت فى فى نفسى جانب المغامرة على حسن النية . والتقينا أمام باب الحديقة ، ورحنا نتمشى فى أرجائها ونتكلم . أعلنت عن اعجابى بها ، ثم جرنا الحديث الى تفاصيل حياتينا ، ومستقبلنا . وكانت عواطفى المكبوتة

تعذبنى ، وكنت شديد الثقة فى أنها ستستجيب لها كما استجابت الى الميعاد · وحاولت لدى أول فرصة لخلو المكان أن أقبلها · وتجنبتنى ، ونظرت الى ، والظاهر أنها قرأت فى عينى معانى لم ترتح لها فتساءلت فى استياء :

ـ ماذا بك ؟

فأشرت الى خميلة وقلت :

ـ لنجلس هناك ··

فقالت بحزم تغيرت به صورتها :

ـ يخيل الى أنك أسأت بى الظن ··

فقلت وموجة باردة تجتاحنى :

ـ كلا ··

ـ أو أننى أحسنت بك الظن خطأ ··

فقلت بحرارة مصدرها الندم :

ـ لا هذا ولا ذاك من فضلك !

أجهضت العاصفة فجلسنا جلسة بريئة وواصلنا حديثنا الجاد السعيد ، ثم افترقنا على ميعاد جديد ، وانجذبت اليها بقوة فحتى الزواج منها فكرت فيه جادا وراغبا · وفى اللقاء الثانى أهدتنى قلم أبنوس فأثرت فى الهدية تأثيرا نافذا وساحرا · وقالت لى :

ـ ترددت طويلا ، فكرت فى الانقطاع عنك ··

فسألتها بجزع :

ـ لم ؟

ـ أخاف من خيبة الأمل ·

فضغطت على يدها بحنو وقلت :

ـ أنت تدركين تماما أننى أحبك ··

وفى المقابلات التالية تبلور الاتفاق بيننا وفكرنا فى الخطوات العملية التى تسبق عادة اعلان الخطوبة · وجاءت معها مرة شقيقتها الكبرى المتزوجة ، وتركز الحديث فى الوظيفة وهل تبقى بها أم تتفرغ للبيت ، وقلت ببراءة :

ـ لا أتصور كيف يستقيم أمر البيت اذا تمسكت بالوظيفة ··

فتساءلت شقيقتها :

ـ وعلام كان الجهد والتعب ؟

فقلت :

ـ ان مرتبى يغنينا عن توظفها ويوفر جهدها للبيت ··

فقالت الأخت ضاحكة :

ـ رغم ثقافتك فأنت دقة قديمة ··

وقالت ثريا :

ـ لم يسألنى أحد عن رأيى بعد ؟

فقلت :

ـ ولكنك تشتركين معنا بصمتك ··

ـ كلا !

ـ اذن فما رأيك يا عزيزتى ؟

ـ سأعمل فيما أهلت نفسى له حتى النهاية ··

ثم كان آخر لقاء قبل الميعاد الذى حددناه لاشراك

الأسرتين · وجدتها على غير عادتها قلقة ، مشتتة الفكر · فقلت :

ـ يوجد شىء يشغلك ·

فقالت ببساطة :

ـ نعم !

ـ ما هو ؟

ـ لا يجوز تأجيله أكثر من ذلك ··

وبسرعة استطردت :

ـ وأعترف أنى أخطأت فى تأجيله حتى هذه اللحظة ·

ـ شىء خطير ؟

ـ يجب أن نتكاشف !

ـ ألم نتكاشف بما فيه الكفاية ؟

ـ كلا ·· الحب يطالبنا بالصدق ··

فقلت بقلق :

ـ طبعا ··

فقالت وهى تغمض عينيها :

ـ يجب أن أصارحك ··

اعترفت بأن شخصا ما « خدعها » وهى فى سن البراءة ! · وفى أثناء الاعتراف القصير اغرورقت عيناها · لم أفهم شيئا بادىء الأمر ، ثم أدركت كل شىء ببلاهة كأنه دعابة ، ثم اجتاحنى شعور قدرى بأن كل شىء محتمل وأننى لا شىء ، ثم هبطت فى هاوية من الخمود والفتور والاستسلام المشلول كأنها حفرة فى قلب الشتاء ردمت بطبقات من الرماد · وجعلت

ترنو الى من خلال رموشها المبتلة ثم همست بيأس :

ـ ألم أقل لك ؟

فتساءلت ببلاهة :

ـ هه ؟

ـ أنت لا تحبنى ·

ـ أنا ! ·· لا تقولى ذلك ··

ـ لن تغفر لى ··

فسألتها جاذبا نفسى من تيار أفكارها :

ـ من هو ؟

ـ لا يهم ··

فسألت مصرا :

ـ من هو ؟

ـ وغد من الأوغاد !

ـ ولكن من هو ؟

ـ لا تعذبنى ··

وتناولت حقيبتها وهى تقول :

ـ أستودعك الله ··

فقلت بآلية :

ـ لا تذهبى ·

فنهضت وهى تقول :

ـ أعطيتنى الجواب بلا كلام ·

ـ ولكنى لم أتكلم ·

ـ انى أرفض ما دون الثقة الكاملة ··

فقلت وأنا أجد ارتياحا فى الأعماق لنهوضها :

ــ تلزمنى دقائق للتفكير ٠
فقالت وهى تمضى فى كبرياء :
ــ أستودعك الله ٠
بدت لى المشكلة عقدة غير قابلة للحل ٠ تكشف حبى عن ولع عنيف ليس الا وكأن حبى القديم لصفاء قد استنفد طاقتى للحب الحقيقى ٠ وكانت تلك الهفوة مما لا يغتفر على أيامنا ٠ كنا نحارب طبقات كثيفة من الماضى العتيق كلما تلاشت طبقة برزت تحتها طبقة راسخة تتطلب المعاناة والعناء لقهرها ٠ كان علينا أن نقطع خمسة قرون و ستة فى ربع قرن ٠ حزنت وخاب أملى ولكنى لم أشك لحظة فى أن ثريا قد خرجت من حياتى الى الأبد ٠ وامتنعت عن الحضور الى الوزارة لزيارة عمها فلم تقع عينى عليها حتى كان المعرض الزراعى الصناعى الذى أقيم قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ٠ كنت أمضى وقتا فى لونابارك الملحقة بالمعرض ومعى صديق صباى عيد منصور فمرت بنا ثريا بصحبة شقيقتها الكبرى وأبنائها ٠ لم ترنى ولكنى رأيتها ، ولما رآها صديقى مال على أذنى هامسا :
ــ انظر الى تلك الفتاة !
فسألته :
ــ ما لها ؟
ــ من حى السكاكينى وجارة لخالتى ٠٠

وضحك ضحكة خبيثة ورسم بيده حركة وقحة أدركت منها أنه الوغد المعتدى فقلت بامتعاض لم يدرك مداه :
ــ أنت وغد !
فضحك باستهتار كعادته وقال :
ــ ورغم ذلك سمعت أنها مخطوبة وستتزوج فى هذا العام !
ومرت أعوام كثيرة لم أر فيها ثريا ولم أسمع عنها حتى ذهبت لزيارة الأستاذ سالم جبر عقب النكسة فوجدت ثريا ضمن آخرين مجتمعين به فى مكتبه ، كنت فى تلك الأيام ألتمس مجامع الزملاء والأصدقاء كما يلتمس المحترق مادة ــ غطاء أو ترابا أو ماء ــ ليطفىء به النار المشتعلة فى ملابسه ٠ وجدت عند الأستاذ سالم جبر نفرا من الزملاء مثل جاد أبو العلا ورضا حمادة وعزمى شاكر وكامل رمزى وسيدة وقورا فوق الخمسين عرفت فيها ثريا رأفت ٠ ألقيت تحية عامة وجلست فلم تلمس يدى يدها ولكنى شعرت بأنها تذكرتنى كما تذكرتها ٠ وكان الحديث يدور حول النكسة ، تحديد أبعادها ، تحليل أسبابها ، واستقراء الغيب عنها ٠ ومضى الزملاء فى الانصراف ثم قامت ثريا فصافحت الأستاذ سالم وهى تقول :
ــ موعدنا يوم الاثنين ٠
فأكد لها الموعد وهو يوصلها حتى الباب ، ثم رجع الى مكتبه وهو يقول :

– جاءت تدعونى الى مناقشة وطنية بنقابة المعلمين ٠
فسألته متجاهلا :
– من هى ؟
– الدكتورة ثريا رأفت ، مفتشة كبيرة بالتربية ٠
ثم استطرد بعد قليل :
– زوجها من رجال العلم النادرين المكرسين حياتهم للبحث أما هى فمن وجوه نهضتنا النسائية ، امرأة تستحق أن يفخر بها جنسها وأن يفخر بها الوطن ٠٠
ثم قال :
– يندر أن تجد امرأة فى قوة شخصيتها وعلمها وخلقها ٠

تذكرت عيد منصور ٠ تذكرت ضعفى وانهزامى ، تذكرت نفرا من أصدقاء الصبا مثل خليل زكى وسيد شعير ، تذكرت أحمد قدرى قريبى الذى لم أره منذ دهور ، تذكرت عشرات وعشرات ممن تلاطمت معهم فى مجرى الحياة ، برزت وجوههم وسط هالة من غبار متعفن كما تبرز الحشرات فى أعقاب انهيار بيت آيل للسقوط ٠

جاد أبو العلا

هو موجود وهو غير موجود ٠

ويرجع تاريخ معرفتى الشخصية به الى عام ١٩٦٠ تلفن لى فى مكتبى طالبا مقابلتى فرحبت به متأثرا بما يتمتع به اسمه من شهرة فى دنيا الأدب ٠ كان قد أصدر خمس روايات وربما أكثر ٠ وكانت الاعلانات عن رواياته تلفت النظر لكبر المساحة التى تشغلها فى الصفحات الأولى من الصحف ٠ ويتبع نشر الرواية سلسلة من المقالات النقدية فى الصحف والمجلات الأدبية مغرقة فى التقدير والثناء ٠ وقد ترجمت رواياته جميعا الى الانجليزية والفرنسية ، كما ترجم ما كتب عنها فى الخارج الى صحفنا ، وهى تشيد بأعماله اشادة لا تتحقق الا لكاتب ذى خطر وشأن ٠ وتبعا لذلك قرأت له أكثر من رواية ولكننى لم أستطع أن أتم واحدة ، ولم أجد ضرورة لقراءة ما قرأت منها بعناية أو اهتمام ، وأدهشنى أننى لم أجد عنده موهبة تذكر ولا على المستوى المحلى ٠ وجميع أعماله تحولت الى مسلسلات اذاعية وأفلام سينمائية فلم تحقق أى نجاح ولكنها كانت تشق طريقها بكبرياء كأنها درر ٠

ولما جاء لزيارتى وجدته لطيفا مهذبا ، لبق الحديث ، سرعان ما تشعر بأنه صاحب قديم ، وألا

مكان للكلفة بينــك وبينه · صــارحنى بأنه يود أن يتخذنى صــديقا ودعانى الى صــالونه الأدبى ببيته الجميل فى الدقى · ومن يومها وأنا أتردد على صالونه من حين لآخر فأجتمع به منفردا أو ضمن مجموعة من الزملاء ، ولعل عبــده البسيونى كان آخر من انضم الينا بعد عامين أو أكثر من مقابلته التى لا تنسى معى· ولم يتوان عن عرض تاريخه على منذ أول لقاء · أشار الى صورة كبيرة مموه اطارها بالذهب وقال :

ــ كان أبى رحمــــه الله من تجــــار التحف بخان الخليلى ··

وضحك عاليا وقال :

ــ لو ســـارت الأمور فى مجراها الطبيعى لسجلت تاجرا فحسب ونجوت من انقسام الشخصية !

فسألته عما يعنى بانقسام الشخصية فقال :

ــ شعرت منذ عهد مبكر بالموهبة فألححت على أبى حتى وافق على ارسالى فى بعثــة خصــوصية ــ عقب حصولى على الثانوية العامة ــ الى فرنسا ··

وهز رأسه وهو يبتسم الى ثم قال :

ــ لم أكن أومن بالدراسة النظامية ولا كانت هدفى فالتحقت بمعهد لتعليم الفرنسية ثم اتجهت بكل قواى نحو منــابع الفن الحقيقيــة فى المتاحف والمســــارح وصالات الاستماع والكتب ··

وأســهب فى وصف تلك المنــابع وتجربته التذوقية معها ··

ــ ولكنى اضطررت الى قطع دراستى بعــد مرور ثلاثة أعــوام لوفاة والدى فعــــدت لادارة معــرضه بصفتى أكبر اخوتى وأرشدهم ··

وحكى لى كيف انقســـم ــ وما زال ــ بين التجارة وبين الأدب ، وكيف استطاع أن يشق طريقه العسير ويحقق موهبته باستغلال كل دقيقــة من وقت فراغه القليــل · وترك حديثه ــ والأحاديث التاليــة على مر الأعوام ــ انطباعا فى نفسى لا يمكن أن يوصف بالثقة· كان كثير المرح عادى الذكاء أقرب الى السطحية ذا طلاء ثقافى ولكن بلا أعماق · ومن هذا ومن قراءاتى السابقة لبعض رواياته ملت الى تصديق ما يقال عنه فى مجالس الفكر مثل صالون الدكتور ماهر عبد الكريم ومجلس الأستاذ سالم جبر وغيرهما · قالوا انه أنفق أعوامه الثلاثة فى فرنسا فى مجالى اللهو والعبث باسم اكتساب التجارب الحية ومعرفة الانسان · وشهدوا له بالمهارة فى تجارته مما عاد عليه بثروة طائلة ، تزداد مع الأيام ضخامة · وهو فى نظــر الجميع محب للفن وربما للشهرة أكثر ولكن بلا موهبة يعتد بها مما دفع به الى طريق ملىء بالمتاعب ، فقد صمم على أن يكون أديبا وأن يكمل ما ينقصه من موهبــة بماله · وكان يكتب تجاربه ، ثم يعرضها على المقربين من الأدباء والنقاد ، ويجرى تعــديلات جوهرية مســتوحاة من ارشاداتهم ، بل يقبــل أن يكتب له بعضهم فصــولا كاملة ، ثم يدفع بالعمل الى أهل الثقــة منهم فى اللغة

لتهذيب الأسلوب وتصحيحه ، غامرا كل صاحب فضل بالهدايا والنقود تبعا للظروف والأحوال ٠ ويطبع الرواية على حسابه طبعة أنيقة فتخرج من المطبعة ـ على حد قول بعضهم ـ كالعروس ، ومن ثم يوجه عنايته الى بعض النقاد فيملأ نقدها أنهار الصفحات الأدبية ، وينفق أضعاف ذلك على ترجمتها حتى فرض نفسه على الحياة الأدبية ٠ وبنفس الأسلوب شق سبيله الى الاذاعة والتلفزيون والسينما ، دون اهتمام بربح مليم واحد ، بل ويضيف الى ذلك من ماله اذا لزم الأمر ٠ كان يحتقر بيئة التجار وهى مصدر جاهه وثرائه وهو فيها كوكب محترم ، ويغرس نفسه غرسا شيطانيا فى بيئة الفن وهى تأباه وهو فيها غريب محتقر ٠ وقد سألت مرة الدكتور زهير كامل وكان الحديث يدور حول جاد أبو العلا :

ـ أى لذة حقيقية يجنيها من جهده الضائع وهو أول من يعلم بزيفه ؟

فأجابنى الرجل :

ـ أنت مخطىء ، لعله انتهى بتصديق نفسه ٠٠

ـ أشك فى ذلك ٠٠

ـ ولعله بات يعتقد أن التجربة التى يقترحها أساسا لعمله هى كل شىء ، أما الشكل ٠٠ أما الأسلوب ٠٠ أما الصناعة فأمور ثانوية لا وزن لها يقوم بها عبيد مأجورون !

فقال الأستاذ رضا حمادة مصدقا :

ـ لا نهاية ولا حد للغرور البشرى ٠٠

فعاد زهير كامل يقول :

ـ الزيف فى الحياة منتشر كالماء والهواء وهو السر الذى يجعل من باطن الانسان حقيقة نادرة قد تخفى عن بصيرته فى الوقت الذى تتجلى فيه لأعين الجميع ٠

وضحك زهير كامل ثم قال بنبرة تسليم يائسة :

ـ بت أعتقد أن الناس أوغاد لا خلاق لهم ، وأنه من الخير لهم أن يعترفوا بذلك ، وأن يقيموا حياتهم المشتركة على دعامة من ذلك الاعتراف ، وعلى ذلك تصبح المشكلة الأخلاقية الجديدة هى : كيف نكفل الصالح العام والسعادة البشرية فى مجتمع من الأوغاد والسفلة ؟!

وظهر عبده البسيونى فى صالون جاد أبو العلا متأخرا ، عام ١٩٦٨ أو بعد ذلك ٠ وقلت لنفسى ساعة رؤيته ـ ولم أكن رأيته منذ لقائنا الرهيب بمكتبى ـ ها هو جاد أبو العلا يظفر بصيد ثمين حقا ! ٠ وتصافحنا بحرارة كالأيام الخالية على عهد الدراسة وكأن الخطيئة لم تكن ٠ وكبحت رغبة شديدة كادت تدفعنى الى سؤاله عن زوجه وهل رجعت اليه ، ومن ناحيته لم يشر بكلمة الى ذلك ٠ وقال لى :

ـ القافلة تسير والصعاب تذلل ، وابنى بلال فى السنة النهائية بكلية طب القاهرة وهو شاب نابغة وسيكون له شأن ، وأخته لا تقل نباهة عنه وهى فى

كلية الصيدلة ، وعما قريب سأستقبل عهدا من الاستقرار المالى والنفسى ..

فهنأته بذلك وتمنيت له أصدق التمنيات ، وقلت له:

ـ الظاهر أنك عرفت الأستاذ جاد أبو العلا حديثا؟

فقال لى همسا :

ـ منذ عامين ولكنى لم أتردد على هذا الصالون الا مرات معدودات لم يتصادف وجودك بها ..

ثم وهو يبتسم :

ـ ان أغلب مسلسلاته الاذاعية والتليفزيونية بقلمى ! ..

وضحكنا معا ثم عاد يقول :

ـ وحتى الآن لم أوفق الى بيع مسلسلة باسمى !

ولما فاز الأستاذ جاد أبو العلا بجائزة الدولة التشجيعية زارنى الأستاذ عجلان ثابت ومضى يضحك ساخرا وهو يقول :

ـ ألا يتقون الله ؟ !

وتحادثنا طويلا حتى جاء ذكر عبده البسيونى فقال عجلان :

ـ لعلك لا تعرف أن زوجه كانت خليلة للأستاذ جاد أبو العلا ؟

فجرى فى باطنى تيار مضطرب لم يدر به عجلان ولا بأسبابه الحقيقية .. وقلت :

ـ اتق الله بدورك ..

ـ صدقنى فأنا أخصائى فى هذا النوع من الأخبار.

فسكت فعاد يقول :

ـ وعبده البسيونى يعرف ذلك أيضا وقد ضبطهما فى فيللا بالهرم واكتفى بقطع العلاقة وتسلم حرمه ، ثم أعقب ذلك صداقة وطيدة بين الزوج والعشيق السابق ..

قلت باذلا جهدا غير قليل لتمالك أعصابى :

ـ متى كان ذلك ؟

ـ منذ سنوات لعلها ثلاث أو أربع أو خمس !

ـ ليكن ..

ـ يا له من رجل زائف ! ..

ـ عبده البسيونى ؟!

ـ هذا حمار بائس انى أعنى صاحب الجائزة الكبيرة ..

ـ نعم ..

ـ ومن عجب أن أبطال رواياته مثل للصدق والكرامة والفضيلة !

ـ نعم ..

فهتف ضاحكا :

ـ علينا اللعنة جميعا حتى يوم الدين .

جعفر خليل

بذكره يذكر حينا « العباسية » فى العشرينات من هذا القرن ٠ حى الهدوء الشامل والحقول المترامية والحدائق الغناء ٠ شرقيه قصور كالقلاع وشوارع شبه خالية يجللها صمت وقور ، وغربيه بيوت مستقلة ذوات حدائق خلفية صغيرة تزدان بكرمة وشجرة جوافة وأرض مغروسة بالشيح والورد والقرنفل ، تحدق بها الحقول ، فى طرفها ساقية تدور بين خمائل من أشجار الحناء ، وتزكو رقعتها بالجرجير والطماطم ، وتنتثر فوق أديمها نخلات معدودات ، أما فيما يلى أسوار البيوت فتمتد غابة من أشجار التين الشوكى ٠ فى النهار لا يخرق صمتها الا جلجلة الترام وفى الليل لا يتردد فى جنباتها الا صيحة الخفير ٠ واذا هبط الليل لفها بظلامه فلا يخفف من غلظته الا اشعاعات الفوانيس المدلاة من أعالى أبواب بيوتها ٠

ويوم انتقلنا من الحى القديم اليها ، ومضى الحمالون بالأثاث الى داخل البيت الجديد تجمع فى الطريق صغار متقاربو الأسنان يستطلعون ٠ فعندما خرجت مستطلعا كذلك وجدت أمامى جعفر خليل ، سرور عبد الباقى ، سيد سعير ، عيد منصور ، رضا حمادة ، خليل زكى ،

شعراوى الفحام ٠ وقفنا نتبادل النظرات حتى سألنى خليل زكى :

ـ تلعب معنا ؟

ترددت بلا جواب فسألنى سرور عبد الباقى :

ـ من أى حى ؟

فأجبت متشجعا بأدب أختص به :

ـ حى الحسين ٠

فسألنى جعفر خليل :

ـ تلعب الكرة ؟

ـ كلا ٠

ـ تعلمها ، متى تدخل المدرسة الابتدائية ؟

ـ عقب الاجازة ٠٠

ـ سندخلها جميعا فى وقت واحد ٠

وسأل رضا حمادة :

ـ هل قابلتكم مظاهرات وأنتم قادمون ؟

ـ جئنا عن طريق الحسينية ، المحال والمقاهى مغلقة فى اضراب شامل ٠

ـ هل صادفكم انجليز ؟

ـ دورية واحدة ٠ هل ترونهم هنا ؟

فضحك جعفر خليل وقال وهو يشير ناحية ما :

ـ ثكناتهم هناك فى قلب العباسية ، ستراهم عند كل خطوة تخطوها ٠٠

وسأل سرور عبد الباقى :

ـ أتممت المدرسة الأولية ؟

- مكثت بها عامين وعامين قبل ذلك فى الكتاب ·
- لا توجد هنا كتاتيب !

فسكت وأنا أرمقهم فى عدم ارتياح ، غير أن صداقتنا كانت قد بدأت ، وهى لم تنقطع بعد ذلك الا بالموت فى حال شخصين منهم · وفضلا عن ذلك كان جعفر خليل الوحيد الذى زاملنى أيضا فى مراحل الدراسة الابتدائية والثانوية والجامعية · وكان يمتاز بخفة الروح وحلاوة النكتة والتفوق فى اللعب والجد معا · وقد دعانى الى مصاحبتهم لمشاهدة مباراة كرة القدم بالنادى الأهلى ولما سألته عن التكاليف أجاب بكل بساطة :

- ولا مليم ·

ذهبنا بجلابيبنا وصنادلنا مشيا على الأقدام مخترقين شوارع الظاهر ، الفجالة ، ميدان المحطة عباس ، ميدان الخديو اسماعيل ، جسر قصر النيل حتى بلغنا النادى · واذا بالمجموعة تتسلق شجرة كبيرة وتتخذ أماكنها فوق الغصون فلم يسعنى الا أن أفعل مثلهم · فى ذلك اليوم شاهدت مباراة كرة قدم لأول مرة فى حياتى ، وعرفت لاعبين لم يمح أثرهم من نفسى حتى اليوم مثل حسين حجازى ومرعى ، ورأيت الانجليز وهم يلعبون وكنت أعتقد أنهم يقتلون فقط وهالنى أن أرى على الحسنى وهو يكاتفهم فيطرحهم أرضا فلا يعقب ذلك معركة دامية · سررت وسعدت وبدأت عشق هواية جديدة ، وآمنت بأنه يمكن

الانتصار على الانجليز ولو فى ملعب النادى الأهلى ، ولكننا تأخرنا طبعا فى العودة الى بيوتنا وتعرضت هناك الى حساب شديد · وانضممت الى ناديهم « قلب الأسد » واشتركت فى اللعب الذى كان يجرى وسط غابة التين الشوكى ، وقدر لى أن أنافس فى المهارة جعفر خليل نفسه بل وعيد منصور الذى توهم فى ذلك الوقت أنه يعد نفسه لاحتراف اللعبة · وكان جعفر خليل حسن الصوت فكان يغنى لنا بعض أغانى سيد درويش ومنيرة المهدية وعبد اللطيف البنا ، وبتقدم السنين راح يؤلف الزجل ، بل كان يحول بعض مناظر الأفلام الى مواقف زجلية ويخرجها ويشترك فى تمثيلها فى غابة التين الشوكى أيضا · ولم أعرف له قصة حب واحدة وان ضبطته مرة وهو يعلم بنتا يهودية من جاراته كيف تركب الدراجة · وبتوثق علاقتى به عرفت أنه فقير بحق ، بل لعله كان أفقر المجموعة ، اذ كان أبوه موظفا صغيرا رغم تقدمه فى السن ورغم طول مدة خدمته ، ولكنه كان برغم ذلك أكثر مرحا وسيطرة · ورغم تعدد ميوله فى اللعب والفن لم يبد اهتماما بالسياسة أو الوطنية كما كانت تعرف فى تلك الأيام · وظل على سلبيته تلك حتى الجامعة وبعد التخرج · وقلت له يوما :

- عجيب ألا تهتم بما يصهرنا حتى الذوبان ·

فقال ضاحكا :

ـ للوطنيـــة رجالهـــا ، لست منهم وان تمنيت لهم النجاح ٠
ـ ولكن كل مواطن فهو من رجالها ٠٠
ـ انى أجد سعادتى بين أهل الفن ٠
فحتى وهو تلميذ بالثانوية كان يتردد على نقـابة الموسيقيين الأهلية ويشهد حفلاتهم المجانية ، ويحضر مجالس الزجالين بالقهوة الخديوية ، وكان يتمتع فى ذلك بجرأة انفرد بهـا وحده ٠ وعن طـريق المرحوم كمال سليم عرف الطريق الى الوسط السينمائى ، فقام بدور ضمن الكومبارس فى بعض الأفلام ٠ وقدم قصصا سينمائية وهو طالب بالجامعة ، حتى وفق الى المشاركة فى كتابة ســيناريو عقب تخرجه عام ١٩٣٤ ٠ وعين مدرسا للغة الانجليزية ، وعرف فى المدرسة بنشاطه الرياضى واشرافـه على فـريق التمثيـــل ، وسـحر بشخصيته الخلابة الألباب ٠ وقال لى :
ـ الوظيفة خطوة ليس الا ولكنى عرفت هدفى ٠٠
وكان من الشاق أن تعرف له هدفا محددا ، أزجال هو أم ممثل أم مطرب أم سينارست ؟ ، فسألته :
ـ وما هدفك يا صاحب الأهداف ؟
ـ السينما !
ـ السينما ؟
ـ أجل ، هى مجمـع الفنـون ، هى دنيـا السحر والرفاهية والجمال ، ولى فيهـا مجال وأى مجال فى التمثيل والكتابة والزجل والغناء ٠٠

ثم وهو يضحك :
ـ وشكلى مقبول ، لا تحكم على بماضى ، الفقر لم يوفر لى الغذاء الكافى لكنك سوف تحكم بعينيك عندما يســتفيد جسمى مَن اللحوم التى طالما حرمت منهـا ظلما وعدوانا !

وفيما بين تخرجه ونهاية الحرب العظمى الثانيـة تقدم فى نشاطه السينمائى بخطى ثابتــة وملموسة ، اقتبس أربع قصص ، وكتب ستة سيناريوهات ، ومثل أدوارا ثانوية فى عشرة أفلام ، وألف عشرات الأغانى، وتحسنت أحواله المالية بدرجة طيبة جدا ، وكان بارا بأسرته الفقيرة فنقلها الى عمارة جديدة بالشارع العام الذى تغير مع الزمن شكله ومضمونه ، وأقام معهـا وان استأجر شقة خاصة فى شارع شامبليون لعمله ـ أو قل لعمـــله ومزاجه ـ وحافظ بالمثـل على علاقاته القديمة بحيه وأصدقائه ٠ واذا به يختار عضوا ببعثة الى الولايات المتحدة فى العـــام الذى أعقـب انتهـاء الحرب ٠ ولم تكن البعثة فى حســبانه ولكنـــه وجدها ممكنة بوساطة صـديق من الوسط الفنى ذى صـلة طيبة بوزير المعارف ٠ ولم تنقطع عنى رسائله طوال مدة بعثته ، ومنها علمت أنه يعد رسالة للدكتوراه عن الفن فى المجتمع العربى ، ومنها علمت أيضا أنه ينوى دراسة السيناريو فى لوس أنجلوس ٠ وفى رسائل تالية علمــت أنه يراســل بعض المجلات بأجر طـيب وأنه

سيجرب حظه فى الكتابة للاذاعة ، وأنه سيعود بمقدار طيب من الدولارات الأمريكية ·

وعاد الى مصر عام ١٩٥٠ ، وزرته فى اليوم التالى مباشرة لعودته فى مسكن الأسرة ولم يكن بقى فيه سوى أمه · تعانقنا بحرارة · ووجدت فى زيارته كثيرين من أهل الفن كما وجدت أصدقاء الطفولة جميعا عدا شعراوى الفحام الذى قتل فى غارة فى أثناء الحرب · وسئل أيبقى فى الوظيفة أم يستقيل للتفرغ للفن فأجاب:

– سأبقى حتى أستوفى المدة الالزامية بمقتضى البعثة وهى خمس سنوات !

وقال :

– الحياة الأمريكية حياة غريبة وعظيمة ، والأمريكى ذو مزايا لا يستهان بها ، ولكننى لم أستطع التخلص من احساس عام بالنفور والكآبة بسبب قنبلة هوريشيما ··

وقال أيضا :

– يخيل الى أن الأمريكيين يتجهون الآن نحو الاهتمام بالشرق اهتماما غير عادى ، وأن علينا أن نعمل لذلك ألف حساب !

وقال بحماس :

– لدى أفكار قيمة سيكون لها شأنها فى تطوير فن السينما فى مصر ··

ثم غلب المرح على الجلسة وضجت الحجرة

بالقهقهات وبخاصة عندما انضم الينا المرحوم الشيخ زكريا أحمد ·

وغادرت البيت مساء بعد أن دعانى الى الاجتماع به صباح الجمعة بمسكنه الخاص بشامبليون ·

وفى صباح اليوم التالى قرأت فى الأهرام نعيه ·

نعيه ؟!

أجل نعيه ·

فقد غادر مسكنه فى الثامنة مساء ، فزلت قدمه فوق قشرة موز ففقد توازنه وسقط فارتطم رأسه بحافة الطوار وسرعان ما فاضت روحه فى ثوان معدودات أمام باب العمارة ·

حنـــان مصطفى

سمعت صوتا ينادينى فتوقفت عن الســير ملتفتا الى الوراء فرأيت سيدة فى الحلقة السادسة تنظر نحوى بعينين زرقاوين باسمتين · تطلعت اليهـا لحظـات متسائلا ثم اقتحمنى التذكر والعرفان كنفحة من عبير الأزهار فهتفت :

ـ حنان !

فقالت فيما يشبه الامتنان :

ـ نعم ·· حنان ·· كيف حالك ؟

وتصافحنـا بحرارة ونحن نميـــل الى جانب من الطوار ، وراحت تقول :

ـ تذكرتك بسهولة ، لم تتغير تغيرا يذكر ، وخفت ألا تتذكرنى ولكن الظاهر أننى لم أتغير بصورة تدعو لليأس ، ماذا جاء بك الى جليم فى مايو أم أنك مقيم هنا فى الاسكندرية ؟

ـ بل جئت لاستئجار شقة للصيف ، وأنت ؟

ـ نفس السبب ، وحدك ؟

ـ نعم ·

ـ وأنا كذلك ·

وتبادلنا السؤال عن الأهل فعلمنا بمن ذهب وبمن بقى ، وأخبرتها عن حالى الاجتماعية ، فقالت :

ـ لى أربع بنات متزوجات ، وأنا جدة من زمن ، أما زوجى فقد توفى منذ عامين ··

ومشينا على مهل على الكورنيش حتى سألتنى :

ـ متى رأيتنى آخر مرة ؟

فتفكرت مليا ثم قلت :

ـ منذ أربعة وأربعين عاما ؟

فهتفت ضاحكة :

ـ يا للفضيحة ، وبرغم ذلك عرفتك من أول نظرة !

ـ كما عرفتك !

ـ بل ترددت قليلا ·

ـ من المفاجأة ··

فضحكت ثم تساءلت :

ـ أتتذكر حب زمان ؟

وجعت تتكلم بتدفق وتضحك بين ذلك بصوت عال حتى ذكرتنى بما كان يقال عن جنون أمها · ولبثنا معا دقائق ثم ذهب كل الى طريقه · ورجعت الى عباســية الحقول والحدائق والهدوء الشامل · وعاود ذاكرتى بيت آل مصطفى ، الأب والأم والابن وحنـــان · بيت بهر أخيلتنا بسحره الخاص · فعند الأصــيل يجلس الأب فى السلاملك المطل على الطريق ، يجلس على كرسى هــزاز وبين يديه منضدة عليهـا زجاجة ووعاء ثلج وكأس وطبق مزة · رجل بدين متوسط القامة أحمـر الوجه أصــلع يتحدى بكل اســتهانة تقـاليد الزمان والمكان · فى أول الجلسة يبدو صامتا رزينا بل متعاليا منطويا ، ثم ينشرح صدره بالانتشاء فيجود بنظرات انسانية على الطريق والعابرين ، وبعد ذلك لا يستنكف

من مخاطبة بياعى الملانة والبطاطة والسحلب والدندرمة تبعا للفصول ، وربما مازحهم واستعادهم الانشاد المطرب الذى يعلنون به عن بضاعتهم على عادة ذلك الزمان ٠ وكنا نقف غير بعيدين لنسمع ونشاهد ونشارك فى السرور ٠ ونتابع تعليقاتنا مرة مستنكرة فى الغالب الا ما صدر عن جعفر خليل الذى كان يحبه ويعجب به ويعتبره فرجة لا تقل فى بهجتها عن السينما والسيرك ٠ وتظهر خلال تلك الجلسة اليومية ربة البيت ، طويلة نحيلة تتوكأ على عصا لعرج خفيف بها ، فتلقى على ما حولها نظرة مستكبرة متأففة ٠ والويل لنا اذا رأتنا نتفرج ونضحك فتنهال علينا قدحا وتقريعا ، ولعنا لآلنا الذين لم يحسنوا تربيتنا ، ثم تختفى من السلاملك وهى تسب الناس والبلد ٠ كانت تعد ـ مثل زوجها ـ غير طبيعية ، وكثيرا ما كانت ترى وهى تتشاجر مع الباعة والخدم ، وقيل انها كانت تكبر زوجها بعشرة أعوام ، وأنها غنية تملك أرضا ونقودا على حين لا يملك زوجها الا حصة فى وقف ، وقد تزوجت منه رغم أنه بلا علم ولا عمل لعراقة أصله ٠ وكان ضمن المترددين على الطريق غجرية ترعى الأغنام ، حافية فى جلباب أسود مشدود عند الوسط بحزام ، متلفعة بخمار أسود ينسدل من تحته على وجهها برقع أسود أيضا يخفى الوجه ما عدا العينين ٠ وكان بيننا وبينها معركة لا تهدأ فكلما أقبلت وراء الأغنام نصيح بصوت واحد :

يا غجرية   حلى حزامك   من قدامك

فتقذفنا بما فى مجال يديها من طوب ٠ ومضى مصطفى بك يهتم بها ويزجرنا مدافعا عنها ٠ ويوما قال لنا سيدشعير وكان أسرعنا الى التطلعات الجنسية :

ـ ألا ترون ما بين الخروف والماعزة ؟!٠

وأعقب ذلك مشاجرة عنيفة بين البك وحرمه تصدعت لها جدران البيت وعصفت بالشارع الهادىء حتى ازدحمت خصاص النوافذ بأشباح الحريم ٠ وغادر الرجل البيت فلم ير بعد ذلك ، ولكن شاع فى الحى أنه تزوج من الغجرية وأقام معها فى الدرب الأحمر ٠ ووجدت الزوجة نفسها بلا رجل فلعبت دورى الرجل والمرأة معا ٠

كانت غريبة الأطوار حقا ، ومن آى ذلك أنها سمحت لحنان باللعب مع أترابها على حين منعت أخاها الأكبر سليمان من مغادرة البيت الا بصحبتها ! ٠ كان صبيا جميلا رشيقا ، كنا نراه وهو يلعب فى الحديقة منفردا أو مع خادمه ، وكان وديعا مهذبا أرق من أخته نفسها ، وكنا نبادله النظرات فنود لو يلعب معنا ويود لو نلعب معه ، ولكننا ظللنا غرباء حتى غادر مع أسرته الحى ٠ وتعلق قلبى بحنان قبل أن أناهز البلوغ ٠ كانت بيضاء زرقاء العينين ناعمة الصوت ، وكانت ليالى رمضان فرصة هنية للصغار من الجنسين ، يجتمعون فى الشارع بلا اختلاط ، ويتراءون على ضوء الفوانيس وهم يلوحون بها فى أيديهم ، وكنا نترنم



بأناشيد رمضان ونتبادل مشاعر الحب وهو كامن فى براعمه المغلقة · وقنعت عواطفنا الساذجة بتبادل النظرات ، واظهار الرشاقة فى الجرى والغناء ، أو المخاطبة بالابتسام فى خفاء · ولما بلغت الثانية عشرة من عمرها منعت عن الطريق والمدرسة معا · لم يكن بيتها يؤمن بالتعلم أو العمل ويعتبرهما من ضروريات الفقراء فحتى سليمان هجر المدرسة قبل أن يحصل على الابتدائية · وباختفاء حبيبتى من الطريق اشتد ولعى بها وصارت شغلى الشاغل · وكانت ترينى نفسها خطفا من النافذة ، أو نتبادل المشاعر باشعال أعواد الثقاب فى الظلام فوق الأسطح · وخطونا خطوة جديدة بفضل خادمتها التى ترددت بيننا خفية حاملة التحيات والورود ، وسعدت بذلك سعادة لا توصف ، فطمعت فى المزيد منها ، ولكنى لم أدر كيف ، وتسلل الى روحى قلق نشيط غامض تتجاذبه قوى خفية من البهجة والكآبة · واذا بأمها تزورنا ونادرا ما كانت تزور أو تزار · وبصراحة لا يمكن أن تصدر الا عن امرأة مثلها اقترحت أن نتزوج ! ·

وأحدث اقتراحها ذهولا ، وقالوا لها :

– انه شرف كبير ولكنهما لم يبلغا الثالثة عشرة من عمرهما ·

فضربت بعصاها الأرض وقالت باستهانة :

– الزواج يعقد أحيانا بين أطفال فى الأقمطة ··

فقالوا :

ـ ولكنـــه لم يتم دراســـته الابتدائية بعد وما زال أمامه مشوار طويل ··

فقالت بعجرفة :

ـ بنتى غنية ولن يجد حاجة الى شهادة أو وظيفة ·

ـ وكن التعليم ضرورى والوظيفة ضرورية ·

ـ كلام فارغ ··

ـ انه لا يملك ولن يملك شيئا ، ولن يقبل أن يكون مجرد زوج لزوجة غنية ··

فتساءلت بحدة :

ـ والعمل ؟

ـ لا ســـبيل الا الانتظار حتى يتم تعليمه ثم له أن يتزوج بعد ذلك ··

ـ وما مدى هذا الانتظار ؟

ـ عشرة أعوام على الأقل ··

فصرخت المرأة :

ـ انكم تركلون النعمة ··

ووقفت غاضبة ثم رددت بنبرة أقوى :

ـ انكم تركلون النعمة !

وغادرت البيت عابسة متعجرفة · ودار تحقيـــق معى لمعرفة الأســـباب المجهـــولة التى تقف وراء تلك الزيارة الغريبة · ولم أكن أتخيل امكان وقوع ذلك · ولم أشك فى أن الأم المجنـــونة اطلعت على سر ابنتهـــا فتنازلت لاقتراح الحل الســـعيد كما تتصـــوره وهى واثقة من قبوله ، وتأثرت لذلك غاية التأثر ، ورغبت

رغبة صادقة فى الاعتذار الى حنان ، ولكن هالنى أنها لم تعد تلوح فى نافذتها ، كما كفت خادمتها عن المجىء الى · ورجعـــت عصر يوم من المدرســـة لأعلم أن آل مصطفى قد غادروا البيت والحى الى مكان مجهول · وعانيت لأول مرة فى حياتى عذاب الحرمان والهجر · ولكن حدته لم تقتلنى بل ولم تبطش بى ، أطبقـــت على حينا ، ثم مضـــت تخف وتبهت حتى استحالت ذكرى مجردة من أى انفعال ·

ولم تقع على حنان عينـــاى مذ غادرت حينـــا حتى التقيت بها فى جليم فى مايو ١٩٦٩ وهى تقترب من الستين من عمرها · أما شقيقها سليمان فقد ترامت الى بعض أنبائه عن طريق المرحوم جعفر خليل عقب انعطافه الى الوسط السينمائى ، اذ صادفه ليـــلة فى استديو مصر وهو يعمل راقصا ضمن فرقة جىء بهـــا للتصوير فى بعض مناظر فيلم استعراضى ، قال :

ـ سلمت عليـــه وذكرته بنفسى فتذكرنى وأخبرنى بأنه هوى الرقص وكرس له حياته ··

ودهشت يومذاك لتلك النهاية غير المتوقعة فقال لى جعفر وهو يضحك ضحكته الكبيرة :

ـ يبدو لى أنه يمارس هوايته وحياته فى حرية مطلقة !

وفى لقاء جليم أخبرتنى حنان أن أباها توفى فى ختام عام انتقالهـــا من العباســـية اثر جراحة لاستئصال الزائدة الدودية ، وأن أمها توفيت منـــذ عامين فقط ، أما سليمان فقد انقطع عنها انقطاعا كليا فهى لا تعلم أخباره الا من المجلات الفنية ··

خليل زكى

كان اسمه يطلق على الشر والعدوان بين أصدقاء العباسية · فرضته الجيرة فرضا لا حيلة لنا فيه ولا اختيار · وأى اختلاف معه يعنى معركة فلم يفلت أحدنا من عدوانه · حتى اليوم فى جبينى أثر من ضربة قبقابه · اختلف رأيانا فى حسين حجازى ومحمود مختار أيهما أمهر فى اللعب فقلت انه حسين حجازى وقال انه محمود مختار ثم كانت ضربة القبقاب فسال الدم على وجهى وجلبابى · وتشاجر مع جعفر خليل لاختلاف حول شارلى شابلن وماكس لندر · وتضارب مع عيد منصور لاقتراضه منه قرشا ومماطلته فى رده · ولم يكن له كفء فى مجموعتنا سوى سيد شعير ، ولما نشب بينهما القتال شهدنا معركة عادلة لأول مرة ، فسال الدم من أنفيهما معا وتمزق جلباباهما ، وتخيلنا ما ينتظره فى البيت بسبب تمزق جلبابه فتضاعف سرورنا · ولم تجد معه المقاطعة فسرعان ما يتناسى الخصام ويقبل علينا هاتفا « صافية يا لبن » فاما نقبله واما يتجدد القتال · على أنه من الحق أن أعترف بأنه لم يخل من فائدة لنا فقد كان قائدنا فى المعارك التى تنشب بيننا وبين غلمان الأحياء القريبة خاصة فى أعقاب مباريات الكرة · وكان أبوه عطارا فى بين

الجناين ، وكان يعامله بفظاظة ضرب بها المثل ، وكثيرا ما كان ينهال عليه ضربا فى الطريق على مرأى من أصحابه ، كان يضربه بقسوة وحشية وبلا رحمة ، وكان خليل يمقته مقتا ويحلم ليل نهار بموته · وكان الأب مدمن أفيون ، وكان خليل من أفشى سره وشهر به فى كل مكان ، وكان أسوأ مثال لرب الأسرة ، ولكنه خص خليل بلب كراهيته وشراسته · وكنا نتابع تلك العلاقة باستغراب وفزع ، وفسرها سرور عبد الباقى تفسيرا دينيا فقال :

– ان الله سلط عليه أباه كما سلط الطوفان على آل نوح !

ولم يفلح خليل فى دراسته الابتدائية ، ولما تكرر سقوطه شغله أبوه فى دكانه · وتنفسنا الصعداء كما يقولون ، وخيل الينا أننا تخلصنا من شره ، ولكنه لم يغب عنا أكثر من شهر واحد ، وأقبل علينا ضاحكا وهو يقول :

– عادت ريمة لعادتها القديمة ··

فقلنا ونحن نداری خيبتنا :

– خير ان شاء الله ·

– طردنى ابن المجنونة !

– من الدكان ؟

– ومن البيت !

وجاءنا سيد شعير بالأخبار – كان أبوه تاجرا ومن

أصدقاء والد خليل ـ فأخبرنا بأن خليل اعتدى على زبون بالضرب ، وتكررت سرقاته لنقود الدكان حتى اضطر الرجل الى طرده · وجمنا للأخبار وأدركنا أنه سيتفرغ لنا بثقله وعناده · وبالفعل تحملنا نفقاته فى المقهى والرحلات ، وعدا ذلك فلم ندر شيئا عن أين يذهب بقية الأوقات ولا أين ينام ولا كيف يأكل · وفى تلك المرحلة من دراستنا الثانوية اتصل جعفر خليل بدنيا السينما فجره معه ليعمل ضمن الكومبارس فدرت عليه قليلا من النقود ، وهناك التقى بسليمان مصطفى الراقص فحام حوله بغريزته النفعية · وما لبثت أن نشأت بينهما علاقة صداقة غريبة فسار فى ركابه وانتفع الى أقصى حد بماله · وكان جعفر خليل يحكى لنا مغامراته السينمائية تلك وهو يضحك من أعماق قلبه ، حتى قال لنا يوما :

ـ صاحبنا تمادى كعادته حتى ضاق به سليمان فطرده !

فهتفنا ونحن نتوقع شرا :

ـ طرده ؟ !

ـ وانقلب عليه يهدده ويتحرش به ··

ـ وقع المسكين فى شر أعماله !

ـ ولكن سليمان صديق لقوم من الكبراء فما يدرى صديقنا خليل الا وهو يساق الى نقطة الشرطة ، وهناك جلد حتى بح صوته من الصراخ ، ثم أفرج عنه بعد ما أخذ عليه تعهد بألا يتعرض للشاب ··

وعاد خليل يتسكع هنا وهناك ، ثم اختفى زمنا فلم نعد نسمع عنه خبرا ، وكان عيد منصور أول من جاءنا عنه بنبأ ، اذ تسلل ذات ليلة الى بيت دعارة سرية بالسكاكينى ··

ـ فلمحته هناك يجلس مع المعلمة كأنه شريك !

ولكن جعفر خليل هو الذى جاءنا بالخبر اليقين · كان أحب مجموعتنا اليه مذ فتح له بابا للرزق فأفضى اليه بسره · كان يذهب الى أى بيت دعارة كأنه زبون ، ولما يقضى وطره ويطالب بالنقود يهدد بابلاغ الشرطة ، فاذا استعانوا عليه بحامى البيت جندله ، وما يلبث أن يفرض نفسه « حاميا » للبيت ، ولم تمر فترة طويلة حتى شمل بحمايته جميع بيوت الدعارة فى منطقة السكاكينى · بذلك تحسنت أحواله واستقرت ميزانيته وعرف النعيم · وكانت حياة خطرة مهددة ولكنها كانت تناسبه كما كان يناسبها · وتدرج فيها فى مدارج الرقى حتى وثب به نشاطه الى بيوت الدعارة الفاخرة فى وسط المدينة · وابتسم له الحظ فقدم خدمة (غرامية) لطبيب كبير ، وابتسم له الحظ مرة أخرى عندما عين الطبيب عميدا لكلية الطب فكافأه بالحاقه بوظيفة ادارية بمستشفى قصر العينى · هكذا وجد خليل زكى نفسه موظفا فى مستشفى كبير ، موظفا يخطر تحت رعاية العميد ، مرتبه بسيط حقا ولكن أرباحه خيالية · ورجع يزورنا فى المقهى وهو بادى النعمة فيطلب النارجيلة والشاى الأخضر وينظر الينا من فوق كما

يجدر بموظف يجالس تلاميذ ٠ وقد سألت جعفر خليل مرة :

ـ وماذا عن المهنة الأخرى ؟

فقال ضاحكا :

ـ الظاهر أنه لا فكرة لك عن أرباح المستشفى ! ؟

ـ اذن قطع علاقته بالبيوت ؟

ـ طبعا ٠٠ عدا المختار من البيوت الرفيعة ٠٠ الممتازة جدا ٠٠ ومن بعيد لبعيد ٠٠ وليؤدى خدمات نادرة للصفوة ٠٠

وكان على علاقة بقصاب غنى من مدمنى المخدرات فخطب منه كريمته ٠ وكانت الوحيدة التى بقيت من ذرية الرجل بعد أن قتل أخواها فى المظاهرات التى اجتاحت البلاد فى أول عهد اسماعيل صدقى ٠ وتزوج خليل من فتاة موغودة بميراث كبير عبارة عن أربع عمارات فى شارع فاروق غير النقود السائلة ٠ وعقب الزواج بعام واحد ضبط القصاب الغنى متلبسا بتعاطى المخدر فقبض عليه وحكم عليه بالحبس عاما ولكن صحته لم تحتمل ذلك فمات فى مستشفى السجن ، وانتقلت ادارة الأملاك الى يد خليل زكى ٠ وعندما ترامت الينا تلك الأخبار لم يشك أحد منا فى أن خليل هو الذى أوقع بحميه ليستولى على ثروته ، وتسلطت علينا تلك الفكرة لحد الايمان ٠ قال عيد منصور فيما يشبه الحسد :

ـ صفقة تاريخية ٠٠

وقال جعفر خليل ضاحكا :

ـ عليه العوض فى العمارات الأربع ٠٠

وقال رضا حمادة :

ـ مسكينة الزوجة ، سنراها متسولة فى الطريق عما قريب !

وجاءت الحرب وذهبت ولم أكن ألقاه الا فى النادر ومنذ اجتمعنا فى مأتم المرحوم جعفر خليل عام ١٩٥٠ لم أره ولم يكن يخطر ببالى حتى عام ١٩٧٠ ، كنت جالسا بالتريانون فى أوائل الخريف حين وقفت أمامى سيارة بويك سوداء ورأيت وجها ينظر نحوى من نافذتها ٠ وأقبل نحوى ضاحكا فسلمنا وجلس ٠ رغم كبره بدا بجسمه القصير مدمج التكوين قوى البنيان ، كما بدا شرس السحنة همجى المنظر فلم ترفعه بذلته الشركسكين الا قليلا ٠ وظل محتفظا بطربوشه ليخفى صلعة مشوهة بآثار خياطات جراح قديمة من مخلفات معاركه ٠ تذاكرنا أخبار الصحاب ثم قال :

ـ لعلك لا تعلم بأننى أصبحت من أهل الاسكندرية ؟

ـ حقا ؟

ـ آخرة العنقود طالبة بالآداب لم تجد فى القاهرة متسعا فقررت الاقامة فى الاسكندرية وابتعت فيللا فى لوران ، ستراها بنفسك !

فشكرته وسألته :

ـ ووظيفتك ؟

ـ أصبت منذ عامين بذبحة صدرية فاعتزلت الخدمة ..

ـ سلامتك ..

ـ صحتى عال ولكننى لا أحترم كثيرا الارشادات الطبية ..

وضحك حتى كشف عن أسنانه الملونة ثم قال :

ـ لى غير البنت التى حدثتك عنها ثلاثة مهندسين وطبيب !

فأبديت الاعجاب والاستحسان فقال وهو يغرق فى الضحك :

ـ عرفت كيف أكون أبا !

ثم بنبرة أسف :

ـ وددت لو جاءوا مثلى لا يهتمون الا بأنفسهم ومستقبلهم ولكنهم دوخونى بمناقشاتهم السياسية .

وجعلت أختلس اليه النظرات متسائلا ، ترى هل يثب الى العدوان اذا تهيأت أسبابه ؟ ، الى أى مدى تغير حقا ؟ ، وكيف ينظر اليوم الى ماضيه ؟ ، وبأى صورة يتصور أمام أبنائه ؟ ، وهل يطيق أن يعيد أحد أبنائه سيرته ؟ ، وألا يعتبر ثلاثة مهندسين وطبيب كفارة عن أى ماض أسود ؟ ، وأى الحلين كان أفضل، أينجو من القانون رغم جرائمه ليهدى للوطن أربعة من العلماء أم كان يقبض عليه لتستقر العدالة فوق عرشها ؟ ! ، وتذكرت قول الأستاذ زهير كامل « بت

أعتقد أن الناس أوغاد لا خلاق لهم ، وأنه من الخير لهم أن يعترفوا بذلك ، وأن يقيموا حياتهم المشتركة على دعامة من ذلك الاعتراف ، وعلى ذلك تصبح المشكلة الأخلاقية الجديدة هى : كيف نكفل الصالح العام والسعادة البشرية فى مجتمع من الأوغاد .

درية سـالم

ـ اسمحى لى أن أحييك ··

فارتسم ظل ابتسامة على شفتيها فقلت متشجعا :

ـ غير معقول ألا نتبادل تحية بعد ما كان ··

فخرجت عن صمتها قائلة :

ـ بعد ما كان ؟

ـ بعد ما كان من عشرة طويلة بين أعيننا ·

فضحكت ببراءة وقالت :

ـ نقبل التحية ·

ـ هذه هى الخطوة الأولى ·

ـ هل توجد خطوات أخرى ؟

كانت تجىء بأبناء ثلاثة الى المنتزه ، فيستحم ثلاثتهم فى البحر على حين تجلس هى منفردة فى الكازينو تراقبهم من النافذة · لفت نظرى اليهـا وجه بشوش وجسم فوار · بالنضج الأنثوى · وعشقت فى عينيها نظـرة ودودا كأنما خلقت للاستقبال والترحيب · وسرعان ما شعرت بأن ثمة دعوة رقيقـة تطالعنى كالزهـرة الناعمة وأن تجاهلهـا فوق طـاقة البشر · وتبادلنا كلمات عابرة فاتفقنا على موعد فى حديقة البجعـة · وآمنت وأنا فى الطـريق اليهـا بأنهـا امرأة من نوع

خاص ، فلعـلها أرملة أو مطلقـة · ولكنها قالت لى ببساطة :

ـ أنا متزوجة !

فقلت مأخوذا :

ـ ولكننى أراك دائما منفردة ·

ـ هو فى بعثة قصيرة تنتهى هذا العام ١٩٦٠ ·

فوجمت فسألتنى ضاحكة :

ـ أتخاف من النساء المتزوجات ؟

ـ انى أفكر ··

فقاطعتنى قائلة :

ـ فكر فى اعداد مكان آمن نلتقى فيه فى القاهرة !

فقلت بحماس ظاهرى :

ـ اتفقنا ·

ـ ولا تسىء بى الظن !

ـ كيف ولم ؟

ـ لعلك تتساءل عما وراء امرأة لبت لك أول اشارة؟

وكان ذلك ما يبدو ببالى ولكننى قلت :

ـ لم أكن دونك استجابة وكنت البادىء !

فقالت برقة :

ـ من حقنا أن ننعم ببركة الصراحة ·

تأملت كل شىء بوعى شأن من لم يقع تحت سيطرة مجنونة · وقلت لنفسى انى أعجب بهذه المرأة وأرغب فيها ولكننى لن أحبهـا · وتهيأ لنـا المكان فى طريق سقارة · وتخيلت خلوة حمراء مشتعلة · ولكن ما أن

أغلقت البــاب وراءنا حتى وجدتنى بحضرة امــرأة جديدة · جلست مســترخية على كنبة ، حتى التلفيعة الحريرية لم تنزعها من حول عنقها · تبــدت هادئة مستسلمة تطالعنى بعينين ملؤهمــا الحنان ، ورحت أداعب أطرافها وألثم فاها فتبادلنى عواطفى بابتسامة محبــة قانعة · ولما قدمت لهــا كأسا اعتذرت فلمــا دعوتها الى الفراش همست فى أذنى :

ـ ليتنا نمضى وقتنا فى سعادة بريئة هادئة ··

فقلت محتجا :

ـ لا أصدق ··

فنهضت وهى تقول :

ـ ولكن لا تعتبره غاية فى ذاته ··

وبالرغم من أن التلاقى كان جذابا الا أنى آمــنت بأنه كان من الممكن لها حقا أن تمضى الوقت فى سعادة بريئة هادئة · ثمة تناقض كبير بين المرأة اليســيرة المستجيبة لدى أول اشارة وبين هــذه المرأة الرقيقة الزاهدة · وقلت لها :

ـ أنت شخصية غريبة !

ـ حقا ! ·· لم ؟

ولما تلكأت فى الاجابة سألتنى :

ـ هل تجد صحبتى عزيزة محببة ؟

ـ بكل جدارة ·

ـ هذا ما يهمنى حقا ·

وتتابعت اللقاءات أسبوعيا · بلا حب حقيقى من

ناحيتى وبلا دافع يبرر الخيــانة من ناحيتهــا · ولما رفعت الكلفة بيننا قلت :

ـ أعترف لك بأننى ـ فى كازينو المنتزه ـ توهمت أنك امرأة لعوب !

فسألتنى باهتمام :

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أعنى معنى بريئا !

ـ سامحك الله ·

فتناولت يدها بين يدى وقلت :

ـ انى أتساءل عما يدفعك الى حضن رجل آخر ؟

ـ آخر ؟ !

ـ أعنى غير زوجك ؟ ··

فقالت وهى تسبل جفنيها فى استياء :

ـ لذلك يضيق الناس بالمحققين !

ولكن باطــــراد اللقــاءات اســتأنستها العــادة فاستسلمت بحرية الى تيار الذكريات الحميمة · وفى مناسبة ما قالت بصدق :

ـ تزوجت بعد قصة حب ، حب عميق ··

وكانت تعمل ممرضة وكان هو طبيب امتياز ·

ـ تبادلنا حبــا جميــلا كاملا ، وأصــارحك بأننى استسلمت فى أول لقاء ··

ـ وتزوج منك ؟

ـ كان شهما ، كان محبا صادقا ·

ـ ما أجمل ذلك ·

ـ وعشنا طويلا كأسعد ما نكون فأنجبت له ثلاثة أولاد ·
وسكتت فسألت :
ـ ثم ماذا ؟
فأجابت كمن تفيق من حلم :
ـ لا شيء ·
ـ كيف حالكما اليوم ؟
ـ حال عادية !
ـ ماذا تعنين ؟
فقالت ضاحكة :
ـ كل ذلك الوقت الضائع على حساب حبنا !
ـ ممكن نواصل لقاءاتنا بعد عودته ؟
ـ لم لا ؟ !
لم يعد يربطنى بها الا المجاملة ثم العادة · وازدادت هى رقة ومودة وحنانا حتى قالت لى يوما :
ـ لا أتصور حياتى بدونك ·
فوجدت أن أسلم سبيل أن أجيبها بقبلة طويلة ولكنها تساءلت فى عناد :
ـ وأنت ؟
ـ مثلك وأكثر ·
ـ لم تقل لى صراحة انك تحبنى ·
فقلت :
ـ لكنى أحبك بالفعل وهو الأهم ·
ورجع الدكتور صادق عبد الحميد من بعثته

القصيرة · تحدثت عنه بموضوعية كأنه ظاهرة لا تربطها بها علاقة حميمة · ولكن باحترام لا مزيد عليه · وفى ذلك التاريخ كنت بدأت أتردد على صالون الأستاذ جاد أبو العلا ، وهناك التقيت بالدكتور صادق عبد الحميد ! · وقص علينا جاد أبو العلا كيف زار الدكتور فى استشارة طبية وكيف توثقت العلاقة بينه وبين الدكتور · وبدأت بيننا صداقة روحية نادرة ، فقدمته بدورى الى مجلس سالم جبر وزهير كامل وصالون الدكتور ماهر عبد الكريم · وأدهشنى أن أرى فيه رجلا يماثل درية فى السن أو لعله يصغرها ببضع سنوات ، وسيما ذكيا ذا طموح روحى لا حد له · هكذا بدأت صداقتنا بعد توطد علاقتى بزوجته بأربعة أشهر ! · وضايقنى ذلك وأزعجنى لحد العذاب · ولم تتوقع درية ذلك فذهلت له · ولاحظت دون جهد ارتباكى وقلقى ، وجو الكآبة الذى خيم بثقله فوق لقاءاتنا فخنقها · وبدا أن تيار الحياة يمضى الى زاوية مسدودة ليشهر موته · قالت لى بتوسل :
ـ انس تماما أنه زوجى ، ألم يكن من المحتمل ألا أشير بكلمة الى هويته أو اسمه ؟
فقلت بارتباك :
ـ لا فائدة من افتراض احتمالات لا أصل لها ··
ـ يجب أن نحافظ على علاقتنا فهى أهم من كل شيء ·
فقلت بحزن صادق :
ـ انى أتعذب ·

فقالت بانفعال غير معهود :
ـ لعله لو علم بعلاقتنا ما اكترث لها !
فنظرت اليها بذهول غير مصدق فقالت :
ـ انه لا يحبنى ، لم يعد يحبنى منذ ثلاثة أعوام أو أكثر ، صدقنى ..
ـ انى أصدقك وأنا آسف ..
ـ وهو يعاشر امرأة أخرى ، ولولا تفانيه فى حب أولاده لهجرنا ليتزوج منها !
ـ انى آسف يا درية ..
ـ ماذا تعنى بقولك آسف ؟
ـ آسف لحالك ، ولحالى التى لا أحسد عليها ..
ـ لو كنت تحبنى لما شعرت بأسف على الاطلاق !
ـ الواقع أنى لا أطيق ذلك الموقف بحال ..
أشاحت بوجهها عنى محمرة العينين وتمتمت :
ـ أنت لم تكد تعرفه ، هل تنشأ الصداقة من العدم؟
ثم بحزن شديد :
ـ والحب أقوى من الصداقة ولكن الحقيقة أنك لا تحبنى !
لم أجد ما أقوله فصمت . وبالصمت أسدل الستار على علاقتنا الحزينة المفتعلة . وعندما غادرنا عشنا تأملت شخصها الناضج الذى يعانى أحرج فترة من العمر تحت وطأة الهجران والخيبة فتقلص قلبى ألما وحزنا . ولفحنا فى الخارج هواء بارد كلسع السياط ، فى ظلمة الليل ..

رضا حمادة

يرتبط فى الخيال بالعباسية ، عباسية الحقول والحدائق ، مثل جعفر خليل وخليل زكى وحنان مصطفى . ولكنه يرتبط أيضا بقيم ومبادىء لا يستهان بها ، وبعنف تيار الحياة فى صعوده وهبوطه ، وبارادة الانسان حيث تتوثب للصراع والتحدى وتجاوز اليأس والأحزان . وهو عملاق كصديقنا سرور عبد الباقى ، امتاز بالعملقة حتى ونحن غلمان نلعب فى غابة التين الشوكى ، ولعله من القلة التى واجهت عنف خليل زكى برباطة جأش . وعرف منذ عهد المدرسة الابتدائية بالاهتمام الشديد بالوطنية . كان يتكلم عن سعد زغلول أكثر مما يتكلم عن حسين حجازى أو شارلى شابلن أو المصارع عبد الحليم المصرى . ولعله ورث ذلك عن أسرته التى اشتهرت فى شارعنا بالوطنية والعلم فكان أبوه مدير عام مستشفى الحميات بالعباسية ، وكانت أمه مدرسة من السابقات الى التعلم ومن طلائع النهضة النسائية ، ونبغت أخته فى العلوم فأرسلت فى بعثة الى انجلترا . كما تفوق أخوه فى مدرسة الحقوق . ولكن أسرته اشتهرت أيضا بالكوارث التى حلت بها ، فماتت أمه وهو طفل ، وفصل أبوه من الخدمة لفرط نشاطه فى خدمة الوفد

المصرى فى ابان تكوينه ، وماتت أختـه فى انجـلترا ، واستشهد أخوه فى ثورة ١٩١٩ · وكان يفاخر بأخيه واستشهاده وينوه بذكائه واجتهاده حتى ضاق خليل زكى بذلك فقال لى مرة :

ـ لم قتل ذلك المجنون نفسه ؟

فقلت ببراءة :

ـ فى سبيل الاستقلال ··

فتساءل ساخرا :

ـ وهل كان الانجليز يقيمون فوق صدره ؟!

ولما عرفت رضا كان يعيش مع والده وخادم عجوز ولا رابع لهم فى البيت · وكان يضيق بالبيت ويعتده سجنا بلا قضبان ، ويرهب جانب أبيه ويعمل له ألف حساب · اعتكف الوالد فى البيت عقب فصله من الخدمة ، لا يغادره الا اذا استدعى لاستشارة خاصة فى أحد البيوت ، والظاهر أنه كان يريد أن يخلق من رضا شخصا يعوضه عن جميع خسائره ، فاشتد فى معاملته ، وحمله ما يطيق وما لا يطيق ، وطالبه بالعلم والأخلاق والوطنية والتفوق ، وراقبه مراقبة بلاهوادة ولا تسامح · لذلك نشأ رضا متطهرا متقشفا مجتهدا مطلعا طموحا ولكنه افتقد دائما الحنان والعذوبة · وكثيرا ما كان يقول :

ـ حدثنى عن أمك ، كيف تحبها وكيف تحبك !

ويتغنى بالنشيد المعروف :

أيهـا الطائر أهلا بمحيـاك وسـهلا

ويتهدج صوته وهو ينشد :

أمكن استـودعتنى شوقها اذ ودعتنى
وخطـابا حمـلتنى لفظه يشفى العليل

ومرة أهانه أبوه فى الطريق لاهمال تورط فيه فتأثر تأثرا بالغا · وسرنا وهو صـامت حتى وقفنا عند السبيل كعادتنا كل أصيل فى العطلة · وغاب عنا بعض الوقت ثم رجع فلم يكد يلحظ أحدنا شيئا · وبغتة تكور وهو يقبض على بطنه بيدين متشنجتين ويصرخ من الأعماق · وانطرح على الأرض تحت شجرة ، وراح يتمرغ فى التراب ، ومن شدة الألم يعض أصول الشجرة الضارية فى الأرض ، واجتمعنا حوله فزعين واجتمع الناس · وما لبث أن جاءت الشرطة والاسعاف فحمل الى قصر العينى حيث أسعف من حمض الفنيك الذى شربه بقصد الانتحار · شد ما هزنى الحدث والمنظر · وسألته فيما بعد :

ـ كيف هانت عليك نفسك ؟

فابتسم فى حزن وتمتم :

ـ ألم تر كيف أهاننى أمامكم ؟

وأعتقد أن تلك المحاولة المشئومة غيرت من سياسة أبيه نحوه كما أن تفوقه النادر وفر له المزيد من التقدير والاحترام · ولم يمنعه تفوقه الدراسى من الاسهام فى النشاط السياسى الذى خفت حدته وتغير لونه بعد انحسار موجة الثورة العارمة · فقد بلغنا أولى درجات الوعى بعد أن انقلبت الثورة الدامية

أسطورة مقدسة من أساطير الغيب • وكان كل منا يحتفظ من ذكرياتها بمشهد عابر عجيب أو ذكرى شهيد أو هتاف مثير ولا شيء أكثر من ذلك • وقد اشتركنا معا فى المظاهرة التى قادها نادر برهان تأييدا لسعد زغلول ـ وهو رئيس وزارة ـ فى اختلافه الدستورى مع الملك فؤاد • وتوطدت علاقته فى الثانوية مع بدر الزيادى لتقارب مشاربهما • ولما تولى محمد محمود الحكم قال بدر :

ـ لم يكن لنا من عدو فى الماضى الا الانجليز •

فقال رضا حمادة :

ـ والملك •

ـ هما شيء واحد •

ـ موافق •

فقال بدر :

ـ وها هو عدو جديد ينضم الى الميدان ••

ولما قتل بدر الزيادى فى فناء المدرسة حزن رضا حزنا شديدا ، وقال لى :

ـ مات بدر على حين يحيا خليل زكى !

فقلت له بحزن :

ـ ومحمد محمود يحيا أيضا !

وتقدم رضا فى نشاطه السياسى فجالس مصطفى النحاس فى بيت الأمة ضمن وفود الطلبة • وقبض عليه فى حكم محمد محمود ، وكاد يقتل فى عهد صدقى ، وفى كلية الحقوق صار من زعماء الطلبة فاستمعت

مرات الى خطبه الحماسية فى الحرم الجامعى • كان مثالا للوفدى الصادق فى ايمانه بالاستقلال والدستور والحياة الديموقراطية • وكان ينظر بامتعاض شديد الى مجرى السياسة فى مصر حتى آمن بفكرة نبتت فى يقينه • قال :

ـ لقد فقد الوفد أو قل الشعب قوته الضاربة يوم قبض على زعماء جمعية الكف السوداء ••

فقلت ببراءة :

ـ ولكن الوفد يدعو الى الجهاد المشروع !

فضحك وقال :

ـ دعك مما يقولون ••

ثم قال بحنق :

ـ لا نجاة لنا الا بابادة السراى وأحزاب الأقلية ثم نواجه الانجليز كتلة واحدة !

وقد أحب ثريا رأفت وأراد أن يخطبها وهو طالب بكلية الحقوق • لم يصارحنى بذلك فى حينه كما لم أبح له بعلاقتى بها فى حينها ولكنى عرفت الحكاية عقب النكسة ! • كان رضا ضمن المجتمعين فى مكتب سالم جبر الذى تراءت فيه ثريا رأفت • وتقابلنا بعد ذلك فى بيته بمصر الجديدة فسألنى :

ـ أتتذكر السيدة التى كانت فى مكتب سالم جبر ؟

فقلت باهتمام :

ـ ثريا رأفت ••

فضحك قائلا :

ـ كانت من أهل السكاكينى وقد أحببتها وأنا طالب فى الحقوق حتى عزمت على خطبتها لولا ٠٠

ـ لولا ؟

ـ لولا أن رأيتها بصحبة صديقنا عيد منصور !

وعند ذاك قصصت عليه قصتى معها !

وتخرج رضا فى الحقوق عام ١٩٣٤ فاشتغل بالمحاماة ٠ ومات أبوه تاركا له ثروة لا بأس بها ٠ وبزغ نجمه ككاتب سياسى كما رسخت قدمه فى المحاماة ٠ وانتخب نائبا عن دائرتنا فى انتخابات ١٩٤٢ ، وكانت موقعة ٤ فبراير قد هزتنى من الأعماق ورمت بوفديتى فى أزمة خانقة ٠ وصارحته بذلك فقال لى :

ـ انى أعتقد أن مصطفى النحاس قد أنقذ الوطن والعرش !

فقلت بأسى :

ـ تصور أن الدبابات البريطانية تجىء بزعيم البلاد رئيسا للوزارة !

فقال باصرار :

ـ لقد كان الانجليز أعداءنا ولكنهم اليوم يقاتلون فى الجانب الذى نرغب فى أن ينتصر ٠٠

ـ ثمة خطأ يفرى روحى كالسم !

فسألنى :

ـ أتود للفاشستية أن تنتصر كما يود الملتفون حول الملك ؟

ـ كلا طبعا ٠٠

ـ فانظر الى ٤ فبراير اذن على ضوء ذلك الضوء ٠

وانتخب مرة أخرى عام ١٩٥٠ عن نفس الدائرة ٠ وكانت تعتريه نوبات حزن شديد كلما شعر بأن الوفد لم يعد على المستوى الرفيع الذى طالما تربع عليه بجدارة ، أو أنه تسلل اليه خور فى الارادة والاستقامة وفتر حماس الشعب له ٠ وكم اهتز طربا يوم ألغى مصطفى النحاس المعاهدة ثم أعلن الجهاد ، يوم سرت فى الوادى نفحة من روح ١٩١٩ ، ثم تتابعت الخيبات كالمطارق حتى قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ ٠ وتحمس لها فقال لى :

ـ سيعود الوفد بلا منازع !

ولما سارت الثورة فى طريقها المرسوم أمل أن تتخذ من جماهير الوفد قاعدة لها ٠ حتى اذا صدر قرار حل الأحزاب تقوضت آماله وقال لى :

ـ نحن مقبلون على حكم عسكرى لن يعرف مداه الا الله ٠

فقلت له باخلاص :

ـ اعتزل السياسة وتركز فى مهنتك !

فقال ضاحكا :

ـ لا خيار !

ولكن وفاءه لزعيمه وزملائه رمى به فى موضع الشبهات فاعتقل أكثر من مرة ٠ وكان قد تزوج عام ١٩٤٠ فأنجب ابنا وحيدا قبل أن تصاب زوجه بما منعها من الانجاب ٠ وطالما

أعجبت بابنه لذكائه وحيويته • ولما اعتقل رضا تعرض لحملة تشهير كبقية زملائه فعانى ابنه — وكان طالبا فى المدرسة الثانوية — تجربة مريرة بين أقرانه • وكان شديد الحساسية فامتحن بأزمة نفسية عنيفة أتلفت أعصابه • وسرعان ما كره المدرسة ، واعتكف فى بيته ، ومضت حياته من سيىء الى أسوأ حتى اضطر أبوه الى ايداعه مستشفى الأمراض العقلية • ولم تحتمل أمه الصدمة فشلت وماتت فى نفس العام • هكذا وجد رضا نفسه كهلا وحيدا غارقا فى الأحزان ، وهكذا أدركته لعنة أسرته • قلت لنفسى :

— أنتهى رضا حمادة •

ولكنه لم ينته فى الواقع • غادر حيه القديم الى مصر الجديدة ، وكرس حيويته لمهنته ولمكتبته • ولعل العشرة الأعوام الأخيرة كانت أنجح سنى حياته • انه اليوم من أبرز المحامين • وهو عاكف على تأليف ما سماه بدائرة معارف العلوم الجنائية • وقد ضمن مقدمتها من الآراء الفلسفية والنظرات النفسية ما يشهد له بالموسوعية فى المعرفة والمقدرة الفائقة فى التفكير ، وليس هذا بالجديد علىّ فقد سمعته يناقش الأساتذة ماهر عبد الكريم وسالم جبر وزهير كامل وغيرهم فكأنه موسوعة فى الفلسفة والسياسة والأدب ، أما عن القانون فهو حجة من حججه المعاصرة بلا جدال • غير أن اعجابى الأول به انما يرجع الى شخصيته الأخلاقية قبل كل شىء ، وقليلون جدا من عرفتهم يماثلونه فى ذلك مثل كامل

رمزى وسرور عبد الباقى • ولا غرابة فى أن تبهرنى الأخلاق البناءة كرجل عاصر فترة انهيار فى الأخلاق والقيم لا نظير لها حتى خيل الىّ فى أحيان كثيرة أننى أعيش فى بيت كبير للدعارة لا فى مجتمع • ففى رضا حمادة عرفت رجلا نقى النوايا والسلوك ، نزيها مخلصا ، آمن طيلة حياته بمبادىء لا يحيد عنها كالحرية والديمقراطية والثقافة الى عقيدة دينية مستنيرة متطهرة من شوائب التعصب والخرافة •

أجل وقف موقف الرفض من أى رأى يسارى ، وعجز عن التطور مع الزمان ، فعاصرته أول العهد بصداقته وهو مثال للشاب الثورى ثم عاصرته فى شيخوخته وهو محافظ عنيد وان لم يعترف بذلك ، فما برح يردد أن الليبرالية هى آخر كلمة مقدسة فى تاريخ الانسان السياسى • ولعل شخصيته الأخلاقية هى التى سندته حيال الكوارث التى عصفت بحياته • وأيدته بسحرها وهو يشهد اختفاء القيم والأشخاص الذين عبدهم مثل الحرية والديمقراطية ومصطفى النحاس وزوجته وابنه ، توارى كل جميل من دنياه فلم يتهدم ، ولكن ثابر على العمل بقوة مضاعفة ، وجابه الحياة بارادة من فولاذ ، وظل على علاقاته الطيبة بالأصدقاء والصالونات والمجالس • وكلما أقبل علىّ بقامته المديدة ورأسه الأبيض ، أو أمتعنى بأحاديثه المتنوعة ، انبعث فى أعماق روحى نشاط متألق بالأفراح فأجدد اعجابى به وبالحياة المباركة التى خلقته ••

زهـــران حســـونة

ثمة أصحاب من نوع خاص ، أصحاب يرتبطون بمـــكان ما لا يتجاوزونه ، حلا لى يوما أن أدعوهم أصحاب المقاهى • فى المقهى نتصافح بحرارة ونتجالس ونتسامر ثم يذهب كل الى سبيله • ومنهم من يختص بصفة تستحق التأمل فيترك أثرا قبل أن يذوب فى النسيان • من أولئك زهران حسونة • عرفته فى مقهى ركس فى أيام الحرب العظمى الثانية وكنت أتردد عليه من حين لآخر بصحبة جعفر خليل ورضا حمادة وشعراوى الفحام وعيد منصور • كان يزور المقهى مع آخرين من صحبه فى يوم الأحد ، وكان بدينا متوسط القامة كبير الرأس جدا كأن به عاهة • وعن طريق النرد تعرفنا بهم ثم صاحبناهم • قال يعرفنا بنفسه :

— كنت موظفا بوزارة التجارة والصناعة ثم ســـويت معاشى لأشتغل فى الأعمال التجارية ••

وكان اذا حضر وقت الصلاة قام هو وصحبه فانتحوا جانبا فيما وراء البار وأدوا الصلاة جماعة وهو يؤمهم • وهو يؤمهم لأنه الوحيد بينهم الذى أدى فريضة الحج • والحق أن الدين كان يشغل حيزا من أحاديثهم لا يستهان به ، وهى تفصح عادة عن ايمان بسيط صادق تختلط فيـــه العقيـــدة

بالخرافة بالأساطير الشعبية ولكن لا شك فى صدقه • وكانت صحبتهم ممتعة ، وكانوا كرماء ، وفيهم شهامة أولاد البلد • غير أن عيد منصور قال لنا يوما :

— جئت لكم بمعلومات طريفة عن الحاج زهران حسونة •

فسألناه عنها فقال :

— لم يستقل ولكنه اضطر الى الاستقالة لسوء سمعته ••

— أى نوع من سوء السمعة ؟

— الرشوة !

وعيد منصور يسره دائما أن يثبت أن جميع الناس لا خلاق لهم مثله ! • قال وهو يضحك :

— انى أشك فى جميع الناس ولكنى أشك بصـــفة خاصة فى المتدينين !

فقال رضا حمادة :

— ولكن ليس كل متدين منافقا !

فقال عيد منصور وهو يضحك أكثر :

— النفاق درجه لا يرتقى اليها عم زهران حسونة !

فضحكنا فراح يفسر قوله :

— النفاق أن تبطن الكفر وتعلن الايمان ولكنه أغبى من أن يكون كافرا ، أنا لا أشك فى ايمانه ••

— اذن لعله تورط فى الرشوة تحت ظروف ضاغطة !

— لعله ••

ولاحظنا أن زهران حسونة يعمل بهمة فى السوق السوداء ، فى تجارة الثقاب والويسكى ، ثم اشتغل فى المواد التموينية ، ولم يكن يخفى ذلك بل كان يبدى استعداده لتقديم الخدمات لنا ، فلم أملك أن أسأله :

— ألا ترى يا حاج فى العمل فى السوق السوداء ما يناقض ورعك ؟

فأجابنى بثقة :

— للدنيا أسلوب فى المعاملة وللآخرة أسلوب آخر !

— ولكن الله لا يمكن أن يرضى عن تجويع الفقراء .

فقال باطمئنان :

— انى اكفّر بالصلاة والصوم والزكاة فماذا تريد ؟

فقلت لأصحابى بعد انصرافه :

— الرجل يرتكب الاثم عن علم لا عن جهل أو نفاق !

فقال عيد منصور :

— ويثرى ثم يلجأ الى الدين ليكفّر فتتحول سرقاته بقدرة قادر الى ربح حلال ، الدين عند عم زهران هو المشجع الحقيقى على ارتكاب كافة الآثام !

ثم وهو يضحك عاليا :

— ولذلك فهو يسرق قوت الفقراء ويمضى ووجهه ينور بالايمان والطمأنينة !

وكنت أتابعهم وهم يصلون فى المقهى بعين متأملة ساخرة ، يركعون ويسجدون ويسدلون جفونهم خشوعا وامتثالا ، وأتذكر كم أنهم أوغاد لصوص لا يحق لهم أن يبقوا ساعة واحدة فوق سطح الأرض . ولم أجد جدوى فى

مناقشاته فدائما أراه مطمئنا واثقا من نفسه ، يؤمن بالشر كما يؤمن بالخير ، ويطيع الشيطان كما يطيع الله ، ويتردد بينهما تردد التاجر الماهر فى السوق الحرة الذى يحرص فى النهاية على أن يزيد دخله على منصرفه . وجعلنى ذلك أتلمس وجوه الأعذار لأوغاد مثل خليل زكى وسيد شعير بل وعيد منصور ممن لم يتعاملوا معاملة جادة مع دين فانطلقوا فى الحياة بوحى غرائزهم وعقولهم العملية الجافة خلال أجواء من الصراع العنيف القاسى . ولذلك أيضا ترديت كثيرا فريسة لكآبة روحية معتمة كدت أرفض تحت وطأتها التجربة الانسانية كلها . وكانت تلك المشكلة مدار أحاديث لا تنتهى بيننا . قال رضا حمادة :

— الظاهر أنه لا يوجد تاجر شريف !

فقال عيد منصور :

— لا يوجد انسان شريف ..

فتساءلت :

— ماذا عن دور الدين ؟

وتساءل عيد منصور :

— لم نتمسك بالأخلاق ما دامت تقود الى الفشل ؟

وعاشت تلك المشكلة معى أعواما وأعواما حتى ناقشتها فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم ، بدءا من نقد الواقع المصرى وانتهاء الى دراسة الخير والشر فى ذروتها الفلسفية . ويدعونا ذلك الى تذكر الدكتور ابراهيم عقل وفلسفته فى المثل الأعلى

وسلوكه المناقض لفلسفته ! • وأذكر بالمثل قول الأستاذ سالم جبر :

— مهما يكن من أمر فلا يمكن تجاهل المرحلة التى قطعها الانسان من الغابة الى القمر !

أو قول رضا حمادة :

— توجد سجايا قيمة جديرة باسترداد الثقة ، مثل تفانى الرجل فى خدمة أسرته ، مثل الذكاء الوقاد المولع بالحقيقة ، مثل بعض مواقف البطولة النادرة •

وقوله أيضا :

— لا تغال فى المثالية والا مت تقززا !

وأثرى زهران حسونة فى أثناء الحرب ثراء فاحشا فارتفع الى مرتبة أصحاب الملايين • وأسس شركة للمقاولات عام ١٩٤٥ ولكنى أغضيت عن التشهير به مذ قتل ابنه الطالب بكلية الهندسة فى معركة القنال عقب الغاء معاهدة ١٩٣٦ • سار الرجل وراء النعش معتمدا على ذراعى صديقين محمر العينين شارد اللب • واقتصرت علاقتنا وقتذاك على تبادل المجاملات فى المناسبات ، ولكن عيد منصور وكد لى أنه ما زال يجمع النقود ويؤدى الصلاة ، وكان أوثقنا صلة به بحكم أعماله التجاريه • واستمر ازدهاره المالى فى صعود ، وأقام فى قصر المعادى ، وتزوج فى الخمسين من فتاة فى العشرين بحجة زهد زوجته الأولى فى المسرات الزوجية عقب وفاة بكريها ، ولكن ظل الحج نزهته الروحية كل عام ، وازداد نشاطه بعد

الثورة • لم يكن من الملاك الزراعيين • ولكن شركته أممت فيما أمم من شركات عام ١٩٦١ ، وهكذا تقوض ذلك البناء الشامخ الذى نحتت أحجاره من الذكاء والغش والارادة والانتهازية والايمان والفجور • وكان رضا حمادة يعلق على الأحداث بامتعاض شديد ، موكدا موقفه الثابت من الثورة ، فقلت له :

— ولكنك عرفت الرجل تماما •

فقال :

— ولو ، انها مسألة مبدأ ••

فقلت :

— ليست مسألة مبدأ ولا رجل ولكنه نظام بارك ذلك كله ••

فقال بمرارة :

— انتظر حتى يتبين لك النظام الجديد ، لقد كان زهران حسونة فى البدء موظفا كهؤلاء الموظفين الذين انقضوا على شركته ليديروها !

ولما أفاق الحاج زهران من الصدمة باع قصره ففتح مقهى فى مصر الجديدة ، وضمن لنفسه مستوى من المعيشة لا بأس به ، وهو يتظاهر دائما أمامنا بالشجاعة ورباطة الجأش ، ويعلق على الأحوال بعبارات ذات مغزى دينى مثل الحمد لله ، والأمر لله ، لا حول ولا قوة الا بالله ، له فى ذلك حكمة ، ويذهب به الحذر أحيانا الى الثناء على القرار الذى جرده من ثروته فيقول :

— عدالة علينا أن نقبلها على العين والرأس •

ولكن تفضحه احيانا ومضات فرح للكوارث لا يحسن مداراتها : مثل الأزمة الاقتصادية وورطة اليمن ، وأخير ٥ يونية الذى دار رأسه فيه بنشوة النصر ! • لقد لاطمتنى فى ذلك اليوم المشئوم تيارات متناقضة كاد يختل لها عقلى . ولعله مما زاد اكبارى لرضا حمادة أن المأساة قصمت ظهره كما قصمت ظهرنا ، وأنه نسى فى ذلك اليوم كل شيء الا حبه العنيد لوطنه ••

زهير كامل

عندما التحقنا بالجامعة كان معيدا بقسم اللغة العربية تمهيدا لارساله فى بعثة الى فرنسا • وسمعنا عنه ثناء طيبا من الدكتورين ماهر عبد الكريم وابراهيم عقل فقال الأخير عنه مرة :

— انه مثال للفلاح اذا نبغ •

وحدثنى رضا حمادة عنه فقال :

— عرفته فى بيت الأمة خلال اجتماعات الطلبة وهو من سمنود ويعرف مصطفى النحاس معرفة شخصية •

وسافر فى البعثة عام ١٩٣٢ ثم رجع دكتورا عام ١٩٣٨ أو ١٩٣٩ فعين مدرس (ب) بهيئة التدريس الجامعية • وفيما بين تاريخ تعيينه وعام ١٩٥٠ تركز نشاطه الفكرى فى الجامعة والتأليف ، فأصدر كتبه المعروفة عن نظريات النقد العامة . ونقاد من الشرق والغرب ، ودراساته عن شكسبير وراسين وبودلير واليوت والشعراء الأندلسيين • وكان يتردد على صالون الدكتور ماهر عبد الكريم فتوطدت بيننا صداقة متينة . وتزوج فى أثناء الحرب من فتاة يونانية كانت تعمل فى محل فينوس فأنجب منها ولدين وبنتا • وكان أستاذا جامعيا بالمعنى

الدقيق ، يكرس حياته للبحوث الأكاديمية ، ولا حديث له خارج مضامينها ، فلم أعرف له اهتماما عاما آخر • وحاولت أحيانا أن أستشف فيه الطالب الوفدى القديم فلم أفلح ، ولكنه بخلاف الكثيرين كان يتمنى النصر للحلفاء ، ربما حبا فى الديمقراطية كما قال ، أو ميــلا مع عواطف زوجتــه ، أو تعصبا لفرنسا التى عشقها من أعماق قلبه • وفى عام ١٩٥٠ فاجأنا بما لم نتوقع أبدا • فرشح نفسه على مبادىء الوفد فى احدى دوائر القاهرة وفاز بأغلبية ساحقة ، وأثار سلوكه تساؤلات كثيرة ولكن الدكتور ماهر عبد الكريم قال رغم تحفظه الشديد :

— انه قرار يستحق الأسف •

وقال لى رضا حمادة :

— لعله يحلم بوزارة المعارف •

ولقد قد يطول الزمن حتى يتحقق الحلم فكيف يواجه أعباء الحياة بمعاش صغير ومكافأة النيابة التى لا تتجاوز الخمسين الجنيه ؟ • قال رضا حمادة :

— ستخبرنا الأيام !

وأخبرتنا الأيام بأسرع مما تصــورنا ، فظهرت مقالاته السياسية فى الجرائد الوفدية ، بل برز ككاتب ســياسى من الدرجة الأولى ، الى مقالات في النقد فى المجلات الأسبوعية • وحدث أن كان لزهران حسونة أعمال فى الحكومة تحتاج فى انجازها الى واسطة فطلب منا أن نقدمه الى صديقنا النائب ففعلنا ، ومن يومها توطدت بين الاثنين علاقة متينة • ثم

مضت تترامى الينا همسات عن تصرفات الدكتور زهير كامل غريبة بل مريبة • وقد سألت رضا حمادة يوما :

— ما رأيك فيما يقال عن زهير كامل ؟

فأجابنى بامتعاض شديد :

— يقال انه أصبح سمسار وظائف ••

ثم وهو يهز رأسه فى أسف :

— ويقال انه يقدم خدمات لزهران حسونة وأنه ينال عن خدماته مكافآت سخية ••

— وهل صحيح ما يقال ؟

— نعم للأسف الشديد ، وانى أتساءل أحيانا والحزن يمرر ريقى أى فارق هناك بين الوفد وبين غيره من الأحزاب ؟!

— ولكن هل تتصور أن زهير كامل نبذ الأستاذية فى الجامعة ليمارس النهب والفساد ؟

— انى أتصوره وغدا من البدء غير أنه كان يتحين فرصة لاستغلال مواهبه حتى وجدها فى السياسة ••

وجلسنا يوما نتبادل الأحزان على صديقنا النابغة وحزبنا العتيد • ولما أقيلت حكومة الوفد عقب حريق القاهرة حاول الدكتور زهير الرجوع الى الجامعة ولكنه لم يفلح • وواصل حياته ككاتب سياسى وناقد ولكنه بات ينظر الى المستقبل بقلق وبخاصة وأنه كان اعتاد مستوى من المعيشـــة الرفيعــة • واجتمعنا يوما عند الأستاذ سالم جبر ، وكان منفعلا ويقول :

ـ ما هذا الذى يحدث بالوطن ؟ •• الملك جن ، وكل شيء ينهار ••

فقال الدكتور زهير كامل :

ـ ما أشبه حالنا السياسى بالدكتور ابراهيم عقل الذى بدأ باحثا نابها وانتهى بالدروشة !

وقال رضا حمادة :

ـ أصبح الوفد كزعيمه فهو شيخ هرم طيب يزحف عليه العجز والتدهور ••

فقال سالم جبر :

ـ لا يمكن أن تدوم الحال على هذا المنوال فماذا عن الغد ؟

فقال زهير كامل :

ـ ما زال الوفد أفضل الجميع وسيضطر الملك الى استدعائه عاجلا اتقاء لانفجار ثورة شاملة !

فقال سالم جبر :

ـ الثورة أفضل من الوفد ••

فقال رضا حمادة :

ـ وفى الانتظار الاخوان والشيوعيون ••

فقال زهير كامل بحدة :

ـ لا أغلبية لهؤلاء أو أولئك •

فقال سالم جبر :

ـ الوطن غير مؤهل للشيوعية ولا عقيدة هناك جديرة باستيعاب الشباب المتفتت بين الثورة والانحلال !

وقامت ثورة يوليو متحدية كل تخمين • وسرعان ما وجد زهير كامل نفسه فى مأزق لم يعمل له حسابا • أغلقت دونه أبواب السياسة والجامعة وتحير ماذا يفعل وماذا يكتب • ولما اتجهت السياسة العامة نحو تصفية الأحزاب وتركز الهجوم عليها بصفة عامة وعلى الوفد منها بصفة خاصة باعتباره القاعدة الشعبية القديمة ، اذ بالدكتور يرمينا بالمفاجأة الثانية فى حياته ، فانقض بمقالات من نار على الوفد مرجعا الى فساده كل فساد نخر فى عظام الوطن • وأثارت المقالات عاصفة من الغضب المكتوم فى صدور الوفديين ولكن أحدا لم يستطع أن يقال من خطورتها لصدورها من رجل له تاريخه الجامعى الوقور فضلا عن اشتراكه فى برلمان الوفد الأخير • وتعين صحفيا فى احدى الجرائد الكبرى ، وسرعان ما اعتبر قلمه من أقلام الثورة ، كما عهد اليه بتحرير صفحتها الأدبية فقاد نقد الأدب المعاصر • وبسبب مسئولياته الجديدة ، وربما خجلا من انقلابه المفاجيء تجنب الى حين التردد على صالون الدكتور ماهر عبد الكريم • وتساءل الدكتور ماهر :

ـ ألم يكن الأفضل له أن يبقى فى الجامعة ؟

وتساءل الأستاذ رضا حمادة :

ـ أرأيت ماذا فعل الوغد بنفسه ؟

فقلت :

— لعل عذره أنه فعل ما فعل لحساب قوة وطنية لا شك فى وطنيتها •

وعاد زهير كامل للظهور فى مجالسه المفضلة كصالون الدكتور ماهر عبد الكريم ومكتب سالم جبر فعدنا للتلاقى المنتظم كما كنا ، وعاودت الاطلاع على فؤاده • قال :

— لم تكن ثمة جدوى من المقاومة ، ولم أقاوم ؟

وقال أيضا :

— كنت على وشك الافلاس ، ولكن لم يكن المال وحده هو الدافع فأنا مطمئن الضمير !

فقلت :

— اذن فأنت تؤمن بثورة يوليو ؟

فقال وهو يتفحصنى بعينيه الذكيتين :

— انها حركة مباركة منعت بقوتها الذاتية اشتعال ثورة لاحت مخالبها فى الأفق !

— يا لها من فكرة ! ••

— وأعترف لك بأننى لست ثوريا ، فكما لا أوافق على رجعية الاخوان فانى لا أوافق أيضا على ثورية الشيوعيين ، وأومن بالاصلاح الرزين الذى نتأثر خطاه ، وهو طريق الوفد أيضا لو قيض لجناح شبابه أن ينتصر ••

ولكنى لاحظت بدقة المراقبة أن عواطفه لم تنسجم تماما مع أفكاره ، وأن تحمسه الظاهر كان لتبرير

انقلابه قبل كل شىء • وعلى مدى الأيام اضطر الى أن يعترف لى قليلا :

— ألم يكن الأفضل أن يتم ما تم بيد انتفاضة شعبية بقيادة شباب الوفد !

فقلت :

— المهم أن يتم ما تم •

فقال بعد تأمل :

— ولكن الانسان لا يستطيع التخلص من عقليته الخاصة ولذلك فقل على الحرية السلام !

وكان الأستاذ رضا حمادة معتقلا فى ذلك الوقت فجاء ذكره فقال زهير :

— ربنا معه •

فقلت بثقة :

— انى أعتقد ببراءته •

— لم ؟

— انى من أعلم الناس بنقاء أخلاقه ••

ترى أضايقه قولى ؟ •• على أى حال قال :

— على ذلك الجيل من السياسيين أن يتخذ من أستاذنا القديم ابراهيم عقل مثلا يحتذى ••

فدهشت لقوله وقلت :

— الدكتور ابراهيم عقل يعانى حال دروشة كاملة وقد لمست ذلك بنفسى فى لقاء عابر معه بحى سيدنا الحسين !

— هذا ما أعنيه تماما ، فالدروشة هنا أسلوب لمواجهة الكوليرا التى قضت على أبنيه ••

— ماذا تعنى ؟

— أعنى اذا صادفتك كارثة يستحيل التغلب عليها فعليك بالدروشة ، أى نوع من الدروشة . أما المقاومة غير المجدية فترمى بك الى المعتقل !

وزهير كامل الناقد عانى انقلابا من نوع آخر فى نفس الوقت . فبكل استهانة مضى يتاجر بالنقد . مضى يتقبل الهدايا والنقود ويقيم الفن والفنانين تبعا لذلك . وبازدهار الحركة المسرحية والانتاج السينمائى تضاعفت أرباحه فشيد فيلته الأنيقة بالدقى واقتنى المارسيدس ، وبخلاف اعتداله القديم أفرط فى الطعام والشراب فزاد وزنه لدرجة أصبح من المتعذر معها التعرف عليه من أول نظرة . لم يبق من مزاياه القديمة الا ثقافته الواسعة وذوقه المدرب فى شتى ألوان الفن . ورغم الثورية التى اتخذها مهنة كان اذا ذكر الوفد تجلى الحنين فى عينيه ، بل علمت أنه حمل صديقا رسالة خاصة الى مصطفى النحاس يعتذر له فيها عما بدر منه فى حقه ، ويشرح له الظروف القاسية التى اكتنفت قراره . ولما أعلنت ثورة يوليو عن سياستها الاشتراكية توثب بهمته المعروفة لدراسة الاشتراكية ليؤيدها عن علم ويحتفظ لنفسه بمستواه ككاتب من كتابها الأول . وفى أعوام قلائل متتابعة ترجم أربعة كتب عن الاشتراكية ، ثم أصدر فى النهاية مؤلفه المعروف « اشتراكيه هذا الوطن » . وفى هذه الناحية بالذات يئس من اقناعى باخلاصه لسابق علمى بديمقراطيته الليبرالية ، وقد سألته مرة ضاحكا :

— كيف انقلبت اشتراكيا بهذه السرعة الجنونية ؟

أجابنى ضاحكا أيضا :

— الناس على دين أوطانهم !

— أتعتقد أنهم يصدقونك ؟

— لم يعد أحد يصدق أحدا .

ثم قال والضحك يعاوده :

— المهم هو ما تقول وما تفعل !

واجتاحته موجة من الضحك ثم قال :

— يتساءلون كثيرا عن سر ازدهـار المسرح ، أتدرى ما هو سر ذلك ؟ ، السر أننا صرنا جميعا ممثلين .. !

فقلت :

— وبالرغم من ذلك فقد حقق هذا العهد من الخير ما لم يحققه عهد سابق بلا استثناء !

فقال وهو يتنهد :

— وأصبح لكل شىء قيمة الا الانسان !

فتساءلت بمرارة شديدة .

— متى كان للانسان قيمة فى بلادنا ؟ ! ، على الأقل فهو يحرر اليوم من عبوديته الاقتصادية والطبقية والعنصرية وستجىء الخطوة الذاتية عندما يستحقها بجدارة !

وقد بلغ قمة سقوطه الأدبى عندما ألف رسالة صغيرة عن أدب « جاد أبو العلا » ! . وكان جاد أبو العلا سعى الى التعرف به حوالى عام ١٩٦٠ نفس العام الذى تعرف بى فيه . ورغم ذلك كانت الرسالة مفاجأة لى لم أتوقعها بحال . ومهما

يكن الثمن الذى قبضه — قيل انه طاقم تحف عربية وألف جنيه — فقد دل على أن صاحبى تمرغ فى السقوط حتى فقد احساس الحياء الذى يصاحبه ، وصدق عبده البسيونى عندما قال لى يوما فى حديث جرى لمناسبة الرسالة المذكورة :

— هذا كتاب لا يجرؤ على تأليفه الا مومس !

وأوشك زهير كامل أن يعلن ارتداده فى ظرفين لولا حسن حظه ، أولهما الاعتداء الثلاثى عام ١٩٥٦ والآخر النكسة عام ١٩٦٧ ، ففى كل مرة خيل اليه أن الثورة صفيت وانتهت فتوثب للعمل لمستقبله من جديد • ووضح لى فى المرتين مدى ما ينطوى عليه من انتهازية وزيف ، بالرغم من أنه يدين للثورة بجاهه وماله • وقارنت بينه وبين رضا حمادة ، فكلاهما يتمتع بثقافة انسانية عميقة وشاملة ، وكلاهما من الجيل السياسى السابق الذى أجهضته الثورة ، وكلاهما ينتمى الى عقيدة معادية للاشتراكية ، ولكن أحدهما يحتوى على طوية عفنة تتقزز منها الحشرات ، والآخر تستقر فى أعماقه روح نبيل يستحق الفرد من أجله أن يقدس ويعبد • وفى العام التالى للنكسة دهمته أحداث فى صميم أسرته لم تخطر له ببال ، اذ صمم ابناه المهندسان على الهجرة الى كندا ! ولم يستطع أن يثنيهما عن عزمهما ، أما أمهما فمالت الى تشجيعهما ، وما لبث الشابان أن حققا رغبتهما بالفعل • وحزن زهير لذلك حزنا شديدا وراح يقول لى :

— أنا فلاح ، ومن طبيعة الفلاح حبه لالتصاق أبنائه به •

فسألته عما دعاهما للهجرة فقال :

— الأمل فى مستقبل أفضل ••

وهز منكبيه فى أسف وقال :

— لم يعد للوطن قيمة ، تركاه فى محنة قاسية ، عن عدم اكتراث أو يأس ، وجريا وراء الأمل الخلاب ••

واجتاحه غضب مفاجىء فقال :

— عقلى معهما ، ولكن قلبى يتوجع ••

وأما كريمته فقد أحبت شابا يونانيا وهى فى رحلة الى اليونان بصحبة أمها • وبكل بساطة تزوجت منه هازئة بكافة التقاليد • وجعلت زوجته تتردد بين القاهرة وأثينا حتى استقرت بصفة نهائية فى موطنها الأصلى قبيل انقضاء العام • ووجد الدكتور زهير كامل نفسه وحيدا فى الستين ، مريضا بالسكر والضغط •• وهو فى ذلك يشبه رضا حمادة غير أن هذا خلق نهايته بنفسه متجاوزا كافة أحزانه ، أما زهير فعانى مرارة الوحدة والسأم والهجر • ويوما سألنى عبده البسيونى فى صالون جاد أبو العلا :

— هل تعرف نعمات عارف ؟

فأجبت بالنفى فقال :

— هى صحفية تحت التمرين ••



ــ وماذا يعنينى من ذلك ؟
فقال ضاحكا :
ــ انها عشيقة الدكتور زهير كامل !
ــ زهير كامل ! •• انه شيخ فى الستين أو أكثر ••
ــ ستسمع عن زواجهما فى القريب ••

وسمعت • وعرفت العروس وهى جميلة فى العشرين • وركن الأستاذ معها الى اللهو والراحة فلم يمسك بالقلم الا لكتابة يومياته الأسبوعية فى الموضوعات اليومية العامة مقلعا عن مراجعة الكتب والمراجع • ولكن مرضه استفحل حتى أقعده بصفة نهائية فى الفراش ، فأطفأ الشعلة المضيئة الوحيدة فى حياته المعتمة ، شعلة العقل • وما زلنا نزوره من حين لآخر ، فتدور المناقشات فى حجرة نومه ، ويشارك هو فيها بسمعه أو ببضع عبارات موجزة فقدت اشاراتها الذكية وأفكارها الموحية ، لتذكرنا بأن لكل شىء نهاية ••

سابا رمزى

زاملنا فى المدرسة الثانوية • زاملنا عامين ثم اختفى • وبالرغم من أن زمالته ترجع الى عام ١٩٢٥ فما زلت أتذكر بوضوح عينيه اللوزيتين الحادتين وقامته القصيرة لحد الرثاء • وكان رياضيا متفوقا فى القسم المخصوص والكرة • كان الجناح الأيمن لبدر الزيادى وكان تبادل الكرة بينهما يشكل خطرا على أى فريق نلاعبه • لذلك اكتسب فى المدرسة شهرة واحتراما رغم قصر قامته • وكنا فى أوقات الفراغ نقرأ المنفلوطى معا ونستظهر ما نختاره من جمله الموسيقية • وحدثته مرة عن روايات ميشيل زيفاكو فتجهم وجهه وسألنى :

— أصدقت ما جاء فى رواياته عن البابوات ؟

فقلت ببراءة :

— ولم لا أصدقها ؟

فقال بنبرة تحذير :

— انه عدو للكاثوليكية ولذلك فهو يتعمد تشويه سمعة البابا ••

عرفت لأول مرة أسماء جديدة كالكاثوليكية والبروتستنتية والأرثوذكسية • وتحيرت بينها حتى أخبرنى زميلنا ناجى

مرقس أن المذهب المسيحى المصرى هو الأرثوذكسية وأن المبشرين أفسدوا بعض الأقباط فجروهم الى اعتناق الكاثوليكية أو البروتستنتية • وراح جعفر خليل يداعب سابا رمزى قائلا :

— الآن عرفنا أنك قبطى فاسد !

وجعفر خليل هو الذى أفشى سره فقال لنا يوما :

— فيكم من يحفظ السر ؟

فتساءلت أعيننا باهتمام فعاد يقول :

— الجناح الأيمن سابا رمزى يحب مدرسة بمدرسة العباسيه للبنات !

وراقبناه عقب انصراف المدرسة فرأيناه وهو يتبعها فى طريقها حتى مشارف باب الشعرية • وكنا يوما نقرأ بالتبادل فى مجدولين فلاحظت تهدج صوته حتى كف عن القراءة من شدة التأثر • وشعر بعينى فوق جفنية المسدلين فتمتم :

— رأيتكم وأنتم تتبعونى !

ثم بمزيد من التأثر :

— أنا أحب مثل ستيفن وأكثر !

ووجد منى مشاركة وجدانية اذ كنت عاشقا مثله فقال :

— سأحبها مهما يكن الثمن !

فقلت له بعطف :

— ولكنها مدرسة وما زلت تلميذا صغيرا •

فقال باصرار ؟

ـ الحب أقوى من كل شىء •

وقال :

ـ انى أحاول محادثتها ولكنها تتجاهلنى ، يقال ان ذلك أسلوب من الدلال ، ما رأيك ؟

ـ لا أدرى ••

ـ كيف أعرف ان كانت تحبنى أو لا تحبنى ؟

ـ لا أدرى ••

ـ هل نسأل جعفر خليل وبدر الزيادى ؟

فقلت محذرا :

ـ كلا •• انهما يحبان المزاح وسيجعلان منك نادرة !

واستمرت مطاردته اليومية للمدرسة بلا نتيجة ، وأخذت ثقته بنفسه تضعف ويغلبه الحزن • وشهدنا عصر يوم منظر ليس من السهل أن يمحى من الذاكرة • رأيناه يعترض سبيل المدرسة بجرأة ويقول لها :

ـ من فضلك ••

فمالت عنه ناحية وسارت فى طريقها فتبعها وهو يقول :

ـ لابد من كلمة ••

فهتفت به غاضبة :

ـ لا يمكن أن أحتملك الى الأبد ••

فقال بتوسل :

ـ اسمعى كلمة بكل أدب ••

ـ دعنى والا ناديت الشرطى ••

وابتعدت تسير بخطوات غاضبة سريعة • وقف ينظر اليها بذهول • وبحركة سريعة غير متوقعة دس يده فى جيبه فاستخرج مسدسا فسدده نحوها وأطلق النار ! • صرخت الفتاة صرخة فظيعة وارتفع وجهها الى السماء فى حركة متشنجة ثم تهاوت على ظهرها • وجعل سابا ينظر اليها ، ذراعه مدلاة ، ويده ما تزال قابضة على المسدس • وظل كذلك حتى قبض عليه • وفاضت روح الفتاة قبل مجىء الاسعاف • وعرفنا فيما بعد أن سابا سرق مسدس أخيه الضابط فى الجيش ليرتكب جريمته عند اليأس • ولم ندر عنه شيئا بعد ذلك ، ولم نره مرة أخرى • لقد طبع فى خيالنا صورة لا تنسى ثم ذهب •

سـالم جـبر

عرفت اسم سالم جبر ككاتب مقال بجريدة كوكب الشرق عام ١٩٢٦ • كان بدر الزيادى أول من نوه به أمامى فوصف كتابته بالبلاغة والفائدة • ووجدته داعيا متحمسا للحضارة والاستقلال الاقتصادى وتحرير المرأة كما دعا الى اتخاذ القبعة غطاء للرأس بدلا من الطربوش • وكان حقوقيا ولكنه لم يشتغل بالقانون ، وكان يقوم بجولة ثقافية فى انجلترا وفرنسا كل عام تقريبا • ولما قامت ثورة ١٩١٩ اشترك فيها ضمن طلبة مدرسة الحقوق ، وأصيب برصاصة فى كتفه يوم الهجوم على الأزهر ، ثم عمل فى الصحافة الوفدية ، وظل يعمل فى الصحافة حتى اليوم • وتغير موقفه السياسى بعض الشىء منذ تولى سعد زغلول الوزارة عام ١٩٢٤ • وقد قال لى يوما بعد أن جمعتنا صداقة متينة ملقيا ضوءا على تلك الفترة من حياته :

— كان من رأيى ألا يتولى سعد زغلول الوزارة ، وأن يظل الوفد وراءه فى الميدان الشعبى حتى تتحقق رسالة الوفد الوطنية ••

فسألته :

— خرجت وقتذاك على الوفد ؟

— كلا ولكن تحول اهتمامى الحقيقى الى ناحية أخرى ••

أجل ، تحول الى اعتناق الشيوعية • وعرف بذلك منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم • ولم ينس أنه صحفى فى جريدة الوفد ، فتجنب مناقشة الموضوعات الجديدة باحراج الزعيم ، واختط لنفسه منهجا خاصا فى الكتابة ينفس به عن عقيدته الجديدة بطريق غير مباشر ، ولا يتنافى فى مظهره مع سياسة الوفد ، فراح يدعو الى حرية المرأة والعلم والصناعة • وتقدم خطوة أخرى فألف رسالة فى المذاهب الاقتصادية مؤرخا ضمنا للاشتراكية ! • وحوالى عام ١٩٣٠ أصدر رسالته الثانية عن « كارل ماركس ورسالته » وسرعان ما صادرتها السلطة ، وتعرض بسببها لحملة عاتية من الجهات المحافظة التى اتهمته بالالحاد والفوضوية • تعرفت به وأنا طالب بالجامعة فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم بالمنيرة ، وكنا نلتقى كثيرا بالصالون أو فى مكتبه بالجريدة •

وقدمت اليه من زملائى رضا حمادة وجعفر خليل ، وكنا نتحادث فى السياسة والاشتراكية ، ولم نفتح صدورنا لما قال عن صراع الطبقات وديكتاتورية الطبقة العاملة ، وقلت له :

— اشتراكية تجىء عن طريق البرلمان ، هذا ما أحلم به !

فقال متحديا أفكارى :

— أنا عدو للوفد !

— أنت تقول ذلك ؟

— ونصير للملك وأحزاب الأقلية ..

فضحكت غير مصدق فقال .

— الوفد أفيون الشعب !

ثم وهو يضرب مكتبه بقبضة يده :

— الوفد هو المسئول عن استسلام الشعب لأحلام لن تتحقق أبدا ، وسيعجز دائما عن تقديم أى خدمة حقيقية للشعب ، أما اذا سيطر الملك وأحزابه ، واستشرى الفساد واستوطن ، يئس الشعب وتوثب لثورة حقيقية !

فسألته :

— وما جدوى ذلك والانجليز يكتمون أنفاسنا ؟

— توقع المعجزات عند اليأس .

وآنس الدكتور ابراهيم عقل منى ميلا لترديد بعض آراء سالم جبر فقال لى :

— احذر فلسفة سالم جبر الكاذبة !

فأخذت بموقفه وقلت له :

— الحق أنى أول ما سمعت عنكم كان لدى قراءة مقال له يدافع فيه عنكم !

فقال ساخرا :

— لم يكن دفاعا ولكن كان احراجا فهو لا يرضى عن مفكر الا اذا أشهر الحاده أو فوضويته ..

وكان ذلك بحضور الأستاذ عباس فوزى — **بصالون المنير** فقال عباس منضما للأقوى كعادته :

— أنه رجل فاجر ومن آى ذلك أنه لا يؤمن بالزواج !

فقلت بدهشة :

— ولكنه متزوج وقدمنى للمدام فى حديقة الأورمان !

فقال عباس فوزى ضاحكا :

— انها عشيقته ، وهى أرملة فرنسية ، فكيف تجهل ذلك ؟

وتوكد لى أنها عشيقته بعد ذلك ، وظل مخلصا لها حتى توفيت عام ١٩٦٠ . وروى لى حكاية غرامهما الأستاذ عبد الرحمن شعبان المترجم فقال ان المرأة كانت زوجة لمهندس فى شركة الكهرباء ، وأنها أحبت سالم جبر فى حياة زوجها ، فلما توفى اتفقا على المعاشرة دون زواج . وكانت امرأة حرة وشيوعية مثله ، أملاكها فى مصر ولكنها تحب السفر كثيرا الى فرنسا ، وتكره فكرة الانجاب .

وألف سالم جبر كتابا عن الدين المقارن قبيل الحرب العظمى الثانية ، عرض فيه الأديان بأسلوب علمى موضوعى ، فأثار الكتاب ضجة ، واتهم صاحبه بالافتراء على الدين الاسلامى ، ومن أجل ذلك قدم الأستاذ الى المحاكمة ، ولكن المحكمة برأته وصادرت الكتاب . وفى أثناء الحرب شن حملات صادقة على النازية والفاشستية كان لها صدى حسن فى دار السفير البريطانى .

ودعى لالقاء محاضرات أسبوعية فى الاذاعة ، وقلت له بمكتبه بجريدة المصرى :

— يقولون انك أصبحت من أصدقاء السفارة البريطانية •

فقال ساخرا :

— لا عداوة تدوم ولا صداقة ، أعترف بأننى فى هذه الحرب حليف للانجليز !

فقلت له :

— يبدو أن نجمهم آخذ فى الأفول !

فقال بحدة :

— لا خوف من انتصار النازية حتى اذا انتصرت فان للتاريخ قوانينه وهى أقوى من الحرب والنصر •

ولما جاءت حكومة الوفد عمل معها باخلاص كشأنه قبل أن يتولى سعد زغلول وزارته ، ولما زحفت جيوش رومل نحو الحدود المصرية هرب مع الهاربين الى السودان • ثم رجع عقب انقلاب الميزان ليواصل جهاده الصحفى • وأذكر أنه جلس بينى وبين رضا حمادة فى مأتم المرحوم جعفر خليل عام ١٩٥٠ فحدثنا عن أفراح الوطن بعودة الوفد ولكنه قال :

— لم يعد بوسع حزب من الأحزاب مهما تكن شعبيته أن يواجه الموقف •

وتكلم عن الولايات المتحدة باعتبارها روح الشر فى العالم ، قال :

— لا نجاة للعالم الا بالشيوعية العالمية •

ولما انصرف قال لى رضا حمادة :

— لا يوجد انسان كهذا الرجل يجمع الكل على بغضه !

فقلت بصدق :

— ولكنه رجل ذو عقيدة ومنزه عن الأغراض •

ولما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ تكشف ذلك البناء المنطقى المنسجم مع ذاته عن تناقضات كالخيال فى غرابتها • وهو فى الظاهر لعب الدور المنتظر منه • كان حقيقة فكرية واضحة الصديق والعدو • عمل فى جريدة الثورة واضعا قلمه فى خدمتها • ولكنه تكشف لخاصته المقربين عن حزمة من التناقضات جعلت منه فى النهاية شخصا مجهول الهوية • تحمس لالغاء النظام الملكى تحمسا لا مزيد عليه واعتبره معجزة من المعجزات ، ولكنه همس فى فتور :

— ذهب الملك وحل محله عدد غير محدود من الملوك !

وفرح بالقضاء على الاقطاع وتحديد الملكية الزراعية ولكنه قال :

— المسألة هى ملكية أو لا ملكية ، أما توزيع الأرض على الفلاحين فمن شأنه أن يقوى غريزة الملكية المتوارثة من عصور الظلام !

ولما حلت الأحزاب التى طالما حمل عليها حزن على الوفد حزنا غير مفهوم وقال :

— وكيف تمضى البلد بلا قاعدة شعبية ؟ !

وقال أيضا :

ــ التضحية بالحرية فعل مؤقت معقول من أجل الشيوعية ولكننا نسير بلا حرية ولا شيوعية !

ولما حاربت الحكومة الشيوعيين والاخوان المسلمين قال :

ــ ها هم يقضون على القوى الايجابية فى الأمة فلا شيوعية ولا اخوانية ولا أحزاب فعلى من يعتمدون فى تحقيق سياستهم ؟ ، ولم يبق الا الموظفون المأجورون وسيقيمون بنيانهم على قوائم من قش ..

حتى الشيوعيون أنفسهم لم يكونوا بأحظى عنده من غيرهم ، وما نالوا عطفه الا فى فترات الاعتقال أو السجن . وسرعان ما يرميهم بالتفسخ والانحلال والسقوط ، واقتنعت أخيرا بأنه شخص غريب خلق ليكون معارضا ، حبا فى المعارضة قبل كل شىء ، فاذا كانت الدولة اقطاعية فهو شيوعى ، وان تكن يسارية فهو محافظ . أجل محافظ ! . فعندما ساند الاتحاد السوفييتى الثورة وعاونها فى الحرب والسلام ، سمعت منه ما لم يجر لى على بال . قال مرة والحنق يلتهم قلبه :

ــ الشيوعية نظام عظيم حقا ولكن ما هو الانسان الشيوعى ؟ .. هو شىء ميكانيكى لا انسان حى !

وبغير حياء سألنى مرة :

ــ لم يود الناس أن يهاجروا الى الولايات المتحدة ؟

فأجبت بسخرية واضحة :

ــ لأنهم يجدون هناك الخبز والحرية !

فقال بامتعاض :

ــ لا قيمة للحياة بلا حرية فلا تكن متعصبا .

فقلت وأنا أضحك :

ــ أنت الذى علمتنى ذلك !

فقال بمزيد من الامتعاض :

ــ متنا .. متنا .. فمتى نبعث ؟

وقلت له بشىء من الصراحة :

ــ أحيانا يتعذر فهمك ،

فقال بحدة :

ــ أنا واضح كالشمس ولكنكم اعتدتم الشروح المطولة والهوامش وهوامش الهوامش !

وقد علمت بوفاة صديقته الفرنسية عرضا فى بار الأنجلو بعد مرور أيام على وفاتها فبادرت الى زيارة مسكنه بشارع قصر النيل ولكنى وجدته مغلقا لا يرد ، ولم أجده بمكتبه بالجريدة كذلك ، ثم تبين أنه سافر عقب دفنها الى أسوان فخلا الى نفسه شهرا كاملا . ولما قابلته بعد ذلك وجدته يمارس حياته بنشاطه المعهود ولكن مسحة من الكآبة طبعت وجهه بطابعها فلم تفارقه دهرا طويلا . ولم يكن يحب الخوض فى شئونه الخاصة ، فلم يحدثنى بكلمة واحدة عن حبه أو أسرته أو طفولته ، وكأنه انسان عام فحسب ، عام فى الظاهر والباطن ، فى الحضور والغياب . وسألته مرة :

— ألم تأسف مرة على أنك لم تتزوج ولم تنجب ؟

فأجاب بسخرية :

— الندم عادة دينية سخيفة •

ولكنى شعرت — ان صدقا وان وهما — بأنه يعانى مرارة الوحدة فى الشيخوخة • وحفلت تلك الفترة من حياته بالمناقشات الحادة التى بلغت فى أحايين كثيرة حد المصارحة الجارحة فى مخاطبة أصدقائه • قال مرة لرضا حمادة :

— عليك أن تعترف بأنك رجعى ترسب فى مجرى الزمن •

وقال مرة أخرى للدكتور زهير كامل :

— أنت لا تنقد ولكنك تقتل القيم •

وسأله جاد أبو العلا عن رأيه فى أدبه فأجابه على مسمع منا :

— من الخير لك أن توفر وقتك لتجارة التحف ! •

وكان من بين الذين سروا فى أعماقهم بالكارثة التى حلت بالوطن فى ٥ يونية ١٩٦٧ ! • وهو موقف غريب ولكن تبناه جميع أعداء الثورة ، وشاركهم فيه ذلك الرجل الشاذ الذى خلق ليعارض الدولة وليقف منها موقف النقيض دائما وأبدا • قال منفسا عن حقده :

— ما جدوى أن نتحرر من طبقة لنقع فى قبضة الدولة الفولاذية ؟ • السلطة الحاكمة أثقل من الطبقة ، أثقل من الشيطان نفسه !

ولكن الثورة لم تتلاش ، بل مضت تضمد جراحها وتجدد

حيويتها وتتأهب لمعركة جديدة • ومضى هو يحنق من جديد ويتمزق بين المتناقضات ، وان حافظ فى الظاهر على شخصيته التى عرف بها منذ عام ١٩٢٤ وان ظل قلما أمينا من أقلام الثورة • ورغم بلوغه السبعين من عمره ، ورغم وحدته وخلوه من روح الدعابة ، فهو يتمتع بصحة جيدة ونشاط موفور • ولعله المصرى الوحيد من معارفى الذى لم أسمعه يمزح أو ينكت أبدا ، ولا عرفت له هواية فنية ؛ حتى الغناء لا يتذوقه . والأدب النادر الذى يطلع عليه يقرأه قراءة سياسية خاصة كأنه خلق شاذ مقطوع الصلة بالامتاع والجمال • وركز فى الأيام الأخيرة على الايمان بالعلم ، ايمانا نسخ ايمانه القديم بالأيديولوجية ، ويتساءل مرارا :

— متى يحكم العلم ؟ •• متى يحكم العلماء ؟ ! ••

هذه هى آخر هتافاته ، وهى خليقة باشباع معارضته الأزلية لجميع أنواع الدول ، حتى قال رضا حمادة :

— انه رجل مجنون ، هذه هى الحقيقة !

فقلت :

— وثمة حقيقة أخرى وهى أن أقواله التى تنكر لها خلقت فى أجيال أثرا لا يمحى !

سرور عبد البـــاقى

من أصدقاء العباسية • وكان أبوه محاميا ذا شهرة ومال • وكانت أمه قوية الشخصية تحكم بيتها بسيطرة لا تقاوم فخضع لها الأب والابن والبنتان • وكانت بخيلة فيما بدا • تساوم الباعة المتجولين بلا رحمة ، ومن أجل مليم واحد تلغى صفقة ، وتزن مشترياتها فى ميزان خاص ابتاعته لذلك • وظهر أثر ذلك كله فى سلوك سرور بيننا بالتهذيب والأدب والاقتصاد • وكانت علاقته بنا ذات نوع خاص ، فهو لا يفارقنا ، وهـــو لا يندمج فينا ، ويتجنب مشاركتنا فى مزاحنا الطليق ونكاتنا اللا أخلاقية • وتذاكرنا يوما مطربة جديدة هى أم كلثوم فقال سرور عبد الباقى :

— سمعتها فى فرح وأعتقد أن صوتها أحلى من صوت منيرة المهدية !

فكبر علينا ذلك وقال جعفر خليل :

— صوت منيرة يعلو ولا يعلى عليه •

وانتهره خليل زكى ، رغم عدم اهتمامه بالغناء ، قائلا بوقاحته المعهودة :

— لا تردد آراء أمك بيننا !

وغضب سرور عبد الباقى وصاح به :

— لا شأن لك بأمى يا قليل الأدب •

وجاء الرد فى صورة لطمة ، ثم اشتبكا فى معركة حتى فصلنا بينهما • وكان تلميذا مجتهدا ، ولكن نجاحه كان دائما دون اجتهاده ، والحق لم نكن نؤمن بذكائه ! • وأوشك يوما أن يقسمنا فريقين ، اذ طالب بشدة بالتزام الأدب فى السلوك والكلام ، قال :

— يا جماعة •• يجب ألا تتردد بيننا كلمة بذيئة وأن نتعامل باحترام •

وفى الحال شخر خليل زكى وسيد شعير فى وقت واحد تقريبا ، فعاد سرور يقول :

— والا سأضطر الى مقاطعتكم !

فقلت بجزع لحبى له :

— اقترح ما تشاء ولكن لا تفكر فى المقاطعة ••

وقال رضا حمادة :

— كلامه يستحق التقدير !

فقال جعفر خليل :

— البذاءة فى الكلام كالملح فى الطعام •

وقال عيد منصور :

— يا جماعة أنا لا أستطيع أن أذكر والد أحدكم أو أمه الا اذا قرنته بالسب المناسب •

وقال شعراوى الفحام محذرا :

— يا جماعة اذا خلت اجتماعاتنا من قلة الأدب فقل عليها السلام !

وتداولنا فى الأمر باهتمام جدى ثم تم الاتفاق على

مواصلة المعاملة الحرة فيما بيننا مع استثناء سرور عبد الباقى فيعامل معاملة مؤدبة خاصة .

وكان يتخذ من السياسة موقفا مماثلا فلا يتعامل معها على الاطلاق ولا يهتم بها ، حتى المظاهرة السلمية التى زحفت على ميدان عابدين تأييدا لسعد زغلول رئيس الوزراء لم يشترك فيها ، ويوم الاضراب الذى قتل فيه بدر الزيادى تخلف سرور فى بيته . ورغم رشاقته ووسامة وجهه الأسمر تجنب البنات ولم يلعب بعينيه هنا أو هناك وكان يشعر دائما بأن عينى أمه تراقبانه وتتبعانه حيث ذهب . والأوقات التى كنا نخصصها للقراءة كان يقضيها فى حديقة بيته ممارسا هوايته فى رعاية الزهور أو رفع الأثقال . ومن فترة مبكرة وضح ميله لدراسة الطب ولكن نجاحه فى البكالوريا لم يحقق له المجموع المطلوب ، ولذلك أقنع والديه بوجوب الالتحاق بكلية الطب فى لندن . وكان المتبع أن تقبل الكلية المصرية الطالب اذا نجح عامين فى انجلترا . وسافر الى انجلترا فدرس الطب عامين بنجاح ثم رجع الى مصر فالتحق بكلية الطب ، وناقشنا تلك الواقعة يوما فقال رضا حمادة :

— ليس سرور غبيا كما توهمنا والا ما نجح فى انجلترا !

فقال عيد منصور :

— وليس نظام القبول بكلية الطب المصرية سليما كما يظن .

فقال جعفر خليل :

— ولبست الفرصة متكافئة بين الأغنياء والفقراء !

وتخرج سرور عبد الباقى فى الكلية عام ١٩٣٦ ، وتزوج بعد أربعة أعوام من فتاة من أسرة كبيرة ، وتقدم فى عمله عاما بعد عام حتى عد من كبار الجراحين فى مصر ، وربح من ذلك أموالا طائلة فشيد عمارة كبيرة فى وسط المدينة وبنى لنفسه فيلا غاية فى الجمال بالمعادى . ولم يتخل يوما عن مبادئه الأخلاقية حتى عرف بأخلاقه وانسانيته كما عرف ببراعته . وهو طبيب مثالى ، مهارة فى العمل ، وغزارة فى العلم ، ورحمة بالمرضى ، وبعدا عن الجشع والاستغلال . وهو محبوب جدا من طلابه ، وكثيرا ما خاض معارك حادة فى مجلس الكلية بسبب مثاليته التى لا تعرف المهادنة ، وبالرغم من علمه الواسع وتجربته الفذة ظل طفلا ساذجا بالنسبة للثقافة والعقائد والسياسة ولم ينعم بأى نظرة شمولية للمجتمع الذى يتألق فيه كنجم من نجومه . ومرت به الأحداث الكبرى وهو منها بمأمن لا تعنيه فى شىء حتى قامت ثورة يوليو بثقلها الاجتماعى فشدته من مأمنه لأول مرة ، بدأ يهتم بهذه الثورة التى تتعرض للأرزاق وتغير الأوضاع ، وتسلل اليه قلق لم يعرفه من قبل . وطبق نظام الاصلاح الزراعى على زوجته فطارت من ملكية أسرته خمسمائة فدان بجرة قلم . وذهل الرجل الذى تعود على تقديس المال والملكية ، ونبض قلب أسرته بالعداوة ، وعد هو ضمنا من الأعداء . ولذلك لم

يتعين عميدا للكلية رغم استحقاقه العلمى لها فامتلأت نفسه بالمرارة والحزن • قال لى :

ـــ فكرت طويلا فى الاستقالة للتفرغ لعيادتى الخاصة •

ثم قال باخلاص أنا أول من يقدره :

ـــ ولكنى لا أحب أن أتخلى عن واجبى العلمى !

وبدءا من ذلك التاريخ مضى يهتم بالحياة العامة ، والسياسة بصفة خاصة ـــ التى تجنبها طوال حياته ـــ بعد أن غزته فى صميم داره • وكنا نقابله فى نادى المعادى على فترات متباعدة كلما سمح وقته المشحون بالعمل • وكنت أنا ورضا حمادة الصديقين اللذين استمرت علاقتهما به • وثمة آخر هو خليل زكى اتصل به دون صداقة حقيقية بحكم عمـله فى قصر العينى • ولكنه كان يذكر الجميع بقدر من الحنان ، وقد حزن لصرع شعراوى الفحام ووفاة جعفر خليل وضياع سيد شعير ، فاذا ذكر عيد منصور ضحك قائلا :

ـــ شيلوك ! •• عليه اللعنة !

وفى تلك الأثناء ساء حظ رضا حمادة فأصيب فى وحيده وزوجته ، فوثق بينهما سوء مصير واحد على تفاوته بينهما ! وبعد صفقة السلاح المشهورة مع تشيكوسلوفاكيا جزع الدكتور سرور عبد الباقى وقال :

ـــ هذه هى الخطوة الأولى نحو الشيوعية !

فلما كان الاعتداء الثلاثى وما أعقبه من انسحاب القوات المعتدية ، جعل يلتمس العزاء فى طوايا الموقف ، قال :

ـــ لولا الولايات المتحدة لقضى علينا ••

فقلت :

ـــ بل الانذار الروسى ••

ولكنه رفض ذلك بشدة وقال :

ـــ يحسن بنا ألا نفرط فى الصداقة الأمريكية بعد اليوم ••

ولما أعلنت القوانين الاشتراكية اجتاحه الرعب وغشيته كآبة ثقيلة ثابتة • قلت له :

ـــ انك صاحب مهنة ولن تعرف الفقر •

فقال :

ـــ لم يعد لشىء قيمة ••

ثم قال :

ـــ زوجتى تنصحنى بالهجرة ••

فقال له رضا حمادة :

ـــ لا داعى لذلك على الاطلاق •

فقال :

ـــ الاشتراكية تعبير عن الحقد على المتفوقين •• وقد استولى حكامنا على السلطة بقوة السلاح لا العلم •

فسألته :

ـــ وما رأيك فى مشكلة الفقر فى مصر ؟

فأجاب بسذاجة :

ــ كل يتقرر موضعه على قدر طاقته وتلك هى حكمة الله سبحانه !

فأدركت أنه مهما يكن من علم الانسان أو أخلاقه فلا غنى له عن الوعى الثقافى المتضمن طبعا الوعى السياسى • وأنه مهما يكن من تفوقه وبراعتـه وفائدته فلن يعتصر من ذاتـه امكاناتها الانسانية حتى ينظر الى نفسه لا باعتباره جوهرا فردا مستقلا ولكن باعتباره خلية لا تتحقـق لها الحيـاة الا بوجودها التعاونى فى جسد البشرية الحى • لذلك بدا الدكتور سرور بجسمه القوى ووجهه الوسيم ومهارته العلمية الخارقة ، بدا متدهورا مترنحا لا لشىء الا لأن يدا أخذت من فائض الذين يملكون كل شىء لتضميد جراح الملايين الجائعة • وشد ما جزعت عندما آنست فى نبرته شماتة عقب هزيمة ٥ يونية ١٩٦٧ ، عندما لم يحسن مداراة فرحته بما ظنـه النجاة • وناقشت ذلك الموقف مع الصديق كامل رمزى فقال :

ــ لا تدهش ولا تجزع ، الأفضل أن تعرف الحقيقة مهما تكن غريبة وقاسية ، ثمة جانبان يتصارعان بلا هوادة يقف فى أحدهما الروس والاشتراكيون العـرب وطوائف الشعب التى وجدت فى الاشتراكية جنتها الموعودة ويقف فى الآخر الأمريكان واسرائيل والذين رأوا فى الاشتراكية ردعا لطموحهم وجشعهم ••

فسألته :

ــ والوطن والوطنية ؟

فأجاب :

تغير مفهوم الوطن ومضمونه ، لم يعد أرضا ذات حدود معينة ولكنه بيئة روحية تحده الآراء والمعتقدات !

ســـعاد وهـــبى

تلك الزميلة الجامعية التى عاشت فى كليتنا عاما واحدا ولكنها بهرت خيالنا عهدا طويلا • كان الزميلات عام ١٩٣٠ قلة لا يتجاوزن العشر عدا • وكان يغلب عليهن طابع الحريم ، يحتشمن فى الثياب ويتجنبن الزينة ويجلسن فى الصف الأول من قاعة المحاضرات وحدهن كأنهن بحجرة الحريم بالترام • لا نتبادل تحية ولا كلمة واذا دعت ضرورة الى طرح سؤال أو استعارة كراسة تم ذلك فى حذر وحياء ، ولا يمر بسلام فسرعان ما يجذب الأنظار ويستثير القيل والقال ويشن حملة من التعليقات • فى ذلك الجو المترمت المكبوت تألقت سعاد وهبى كأنها نجم هبط علينا من الفضاء • كانت أجمل الفتيات وأطولهن وأحظاهن بنضج الجسد الأنثوى • ولم تقنع بذلك فلونت بخفة الوجنتين والشفتين ، وضيقت الفستان حتى نطق ، وتبخترت فى مشيتها اذا مشت ، وكانت تتعمد أن تدخل القاعة متأخرة بعد أن نستقر فى مجالسنا ويتهيأ الأستاذ لالقاء محاضرته ، ثم تهرول كالمعتذرة فيرتج ثدياها النافران فتشتعل الفتنة فى الصفوف وتند عنها همهمات كطنين النحل • وعرف اسمها وجرى على كل لسان ، ونحتت له الأوصاف

والأسماء فهى « أبلة سعاد » و « كلية ســعاد » و « بانت سعاد » • وكانت بخلاف زميلاتها غاية فى الجرأة ، تواجهنا بثقة لا حد لها ، ولا تخفى اعجابها بنفسها ، وتناقش الأساتذة بصوت يسمعه الجميع ، وبالجملة تحدت الزمان والمكان •

وقال محمود درويش :

ــ انها غانية لا طالبة ••

وقال لى مرة جعفر خليل :

ــ ترى كيف كانت وهى تلميذة مراهقة بالمدرسة الثانوية ؟ فاتنا نصف عمرنا ••

فقلت :

ــ لم تلتحق بالكلية الا لاصطياد عريس !

ــ أو عشيق !

وجرت عنها الأخبار لا أدرى ان كان مصــدرها الواقع أم الخيال •

ــ انها من حى اليهود بالظاهر ، ولدت وترعرعت فى جو من الحرية الجنسية المطلقة !

ــ وأسرتها منحلة ، الأب والأم والأخوات ••

ــ وهى امرأة لا عذراء مجربة للسهر والسكر والعربدة !

وتشجع جعفر خليل بذلك فحاول أن ينشىء معها علاقة ولكنه صد ولم يفلح • وصد غيره ولم يفلح • ومع ذلك فلم تضن بصداقتها على طالب اذا التزم بحدود الأدب • وطبقت شهرتها الآفاق الجامعية فجاء طلبة من كلية الحقوق للمشاهدة

والمعاينة • وكانت فى الأدب الانجليزى تتلو أحيانا ما تيسر من مسرحية عطيل فتلقيه القاء مسرحيا ناعما يسحر الألباب ، فحتى الأستاذ الانجليزى أعجب بها وعاملها معـاملة ودية خاصة • وأخذ الطلبة الوقورون ــ الريفيون خاصة ــ يناقشون الظاهرة السعادية ويتساءلون عن عواقبها الوخيمة • وسرت عدوى اهتمامهم الى الدكتور ابراهيم عقل الذى يفـرض بقامته المديدة رعاية أبوية على الطلبة والمثل العليا معا • وانتهز فرصة اضطراب قاعة المحاضرات لارتجاج الشـديين النافرين وجعل يسلط سحر عينيه الزرقاوين على الجميع حتى ثابوا الى الرشد والسكينة ، ثم قال :

ــ يجب أن يوجد فرق هائل بين قاعة المحاضرات بجامعتنا وبين صالة بديعة !

فضجت القاعة بالضحك فى غير موضعه ••

ثم وهو يهز رأسه بطربوشه الطويل :

ــ تذكروا أننا جميعا ــ نساء ورجالا ــ هـدف لجمهور الناقدين وأن جمهرة منهم لم تسلّم بعد بمبـدأ اختـلاط الجنسين فى الجامعة ، بل بمبدأ تعليم الفتاة تعليما عاليا ••

وفى نهاية المحاضرة اسـتدعى سـعاد وهبى لمقـابلته فى حجرته ، وخمّنا موضـوع الحديث وتنبـأنا بنتيجتـه المحتومة ، وكثـيرون شعّروا مقـدما بالأسف لحرمانهـم

الوشيك من الاثارة اليومية الفاتنة • وغادرت سعاد وهبى حجرة الدكتور متجهمة الوجه ، ولما رأت جموع المنتظرين فى الخارج قالت بحدة وبصوت مسموع متحد :

ــ لن أسمح لأحد بمصادرة حريتى الشخصية ••

وأصرت على التمتع بحريتها حتى فوجئنا بصـدور أمر بفصلها من الكلية ! • وفرح البعض وأسف البعض أسفا عابرا بالرغم من اجتماع كلمة الجميع على مقاومة الحكم السياسى الرجعى الذى بطش بحرية الوطن • وجاء والد الفتاة لمقابلة العميد ، وما زال به حتى حمله على سحب قرار الفصل بعد أن تعهد له بتحقيق مطالبه • وأعجب ما سمعت عن رجوع سعاد حدثنى به جعفر خليل ، اذ سألنى باسما :

ــ أما سمعت بالسر وراء عودة سعاد ؟

فسألته بدورى :

ــ أى سر ؟

ــ يقال أن وزير المعارف أوصى العميد بها •

ــ ولكن وزير المعارف رجل رجعى كثير التشدق باحترام التقاليد ؟

ــ ويقال أيضا انه على علاقة بالفتاة ••

على أى حال عادت سعاد • وعندما هلت علينا بعد انقطاع استقبلناها بالتصفيق • رأينا وجهها الطبيعى لأول مرة وكان وسيما أيضا ، ورأينا فستانها يحتشم طولا وعرضا لأول

مرة أيضا ، أما ثدياها فلم يستطع تعهد الوالد بتغيير موضعهما ولا فتنتهما فظلا نافرين يتحديان العميد والتقاليد جميعا •

ويوما قال أحد الطلاب :

ــ أمس رأيتها مع الرجل الانجليزى بالحديقة اليابانية بحلوان ••

وانتشر الخبر فى الكلية ، وسألها صديق عنه فأجابت بأنها قابلته هناك مصادفة فسارا معا يتحادثان • توكد الخبر • وبلغ جميع المسئولين فى الكليه • ولكن نجمت عن ذلك مشكلة تحدت الجميع بقحة لا مثيل لها • لم يكن من المستطاع اتخاذ اجراء مع المدرس خشية اغضاب دار المندوب السامى ، ولا كان من المستطاع معاقبة الطالبة خشية اغضاب المدرس ! • وأدركنا الموقف بكافة أبعاده السياسية والنفسية • وقال جعفر خليل بروحه الساخرة :

ــ انجلترا زادت من تحفظات ٢٨ فبراير تحفظا جديدا خاصا بسعاد وهبى •

وقال آخر :

ــ الأسطول البريطانى يهدد باحتلال الجمارك اذا تعرضت سعاد لأى ضغط •

وقيل فى الموقف أشعار كثيرة من أصحاب المواهب من الطلبة ، وتبودلت السخريات على مسمع من العميد نفسه •

ولكن فى بداية العام الدراسى الجديد وجدنا الموقف مختلفا • فالمدرس الانجليزى لم يرغب فى تجديد عقده ، وسعاد لم ترجع الى الكلية • أين ذهبت سعاد ؟ • قيل انها سافرت مع المدرس الانجليزى ، وقيل انها تزوجت ، وقيل انها أصبحت غانية فى شارع الألفي • ومع كثرة تقلبى فى أنحاء القاهرة فلم تقع عليها عيناى منذ ذلك التاريخ البعيد •

سيد شعير

كان زعيم الجماعة من أصدقاء العباسية . أجل كان خليل زكى يماثله فى القوة أو يفوقه ولكن الزعامة لا تقوم على القوة وحدها لا بد لها من أساس مكين من الحب . وكان سيد شعير محبوبا كما كان كريما ، وفى أوقات اللعب كان مهرجا ، وفى ليالى رمضان كان نجما لامعا . ولا مفر من عقد المقارنات بينه وبين خليل زكى دائما ، فكلاهما قوى سريع العدوان غير أن خليل ينطلق من شراسة اجرامية على حين ينطلق سيد من المجون والاستهتار ، وكلاهما لم يوفق فى الدراسة الابتدائية ، وكلاهما وظفه أبوه فى دكانه ، وكلاهما طرد من رعاية أبيه غير أن خليل طرد لشراسته على حين طرد سيد لسلوكه مع النساء من زبائن المحل . وبطرف عينه الماكرة اكتشف الهوى بينى وبين حنان ، وراح يداعبنى ساخرا من ترددى ، حتى قال لى يوما :

ـ كلام فارغ ، غرامك كلام فارغ ..

ولم احب أن يجعل من حبى سخرية من سخرياته ولكنه قال :

ـ اسمع نصيحتى وواعدها فى غابة التين الشوكى .

وفى مساء الأربعاء من كل أسبوع ـ فى العطلة السنوية ـ كان يدعونا الى بيته فى آخر شارعنا من ناحية بين الجناين حيث يقام ذكر فى الفناء فنجلس على أريكتين متقاربتين نتابع الأناشيد الدينية ونشاهد حركات الذاكرين ونحتسى الشاى والقرفة ، وكلما ابتعد أبوه عن مجالنا روى لنا ما يحفظ من النوادر الماجنة عن أهل الذكر ! . بقدر ما كانت أسرته متدينة بقدر ما كان مستهترا وبقدر ما حيرنى فى فهمه . ولما يئس من مواصلة الدراسة فى المدرسة الابتدائية عمل فى دكان أبيه فى الغورية . وفى العطلة السنوية كنا نذهب اليه فى المغارب ، ولما يغلق الدكان يمضى بنا فى أنحاء الحى الحسينى ، من عطفة الى عطفة ، ومن مقهى الى مقهى ، فعرفنا بارشاده مجاذيب الباب الأخضر والفيشاوى والمدق وخان الخليلى واستمعنا الى أذان على محمود ومواويل العربى ، وعلمنا ـ ونحن فى السنة الأولى من المدرسة الثانوية ـ تدخين الجوزة والبورى والنارجيلة ولعب النرد والدومينو . كانت تلك الأيام من أسعد أيام سيد شعير ، كان يعيش فى بيت والده وينفق راتبه على مزاجه الخاص ويتشبه بالرجال وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، ونشأ الخلاف بينه وبين أبيه بسبب النساء من زبائن المحل . ومرة غازل امرأة وكان زوجها فى الخارج فنشبت بينهما معركة وسرعان ما فصل أبوه بينهما وانهال على ابنه ضربا أمام الناس ، ففقد سيد عقله وصب غضبه على البضائع من أوانى زجاجية ومعدنية وقوارير العطر وغيرها .

وطرده الرجل ، طرده من دكانه ومن بيته فانقطع ما بينهما الى الأبد • اقترحنا أن نوسط آباءنا فى الاصلاح بينهما ولكن سيد رفض ذلك بإباء وقال :

— سجن البيت لم يعد يناسبنى ودنيا الله واسعة •

وكنا نظنها نزوة غضب ولكن الأيام أثبتت لنا أنه بحق رجل الدنيا الواسعة وأنه ذو قدرة غريبة على تمزيق الأواصر العائلية ونبذها من حياته كأنها نفاية من النفايات • وقد حرت فى تعليل ذلك فى وقتها ولكنى أدركت فيما بعد أنه كان مراهقا منبوذا وسط ثلاثة اخوة ناجحين ، عمل أحدهما مع والده بعد حصوله على التجارة المتوسطة وواصل الآخران تعليمهما بتفوق ساحق • وقال لى بكبرياء :

— ان أى تاجر فى الحى يتمنى أن يستخدمنى !

فقلت له مخلصا :

— ولكن حكاية النسوان حكاية خطيرة ••

فقال ساخرا :

— المرأة تتسكع بين دكان وآخر التماسا لغمزة عين أو كلمة حلوة أما البيع والشراء فلا يحدثان الا فى المواسم !

وعمل بالفعل فى محال كثيرة حتى خنقت الأزمة الاقتصادية التجارة فاستغنى عنه فيمن استغنى عنهم ووجد نفسه وحيدا بلا مورد ولا أهل ولا أمل • ولم يكن بوسعنا أن نقدم له —

— ونحن تلاميذ — أى مساعدة ناجعة ، ولكنه كان صديقا لصاحب مقهى فى مرجوش يعمل فى الوقت نفسه تاجر مخدرات بالجملة فعرض عليه أن يشتغل موزعا بالنسبة وسرعان ما قبل • وأخبرنا بذلك فى مباهاة طفولية فذعرنا وقال له سرور عبد الباقى :

— أنت مجنون ••

وقال له رضا حمادة :

— لن يكون ذلك أبدا ••

ولكنه سخر من ذعرنا ورجانا فى الوقت نفسه أن نخفى الأمر تماما عن خليل زكى الذى كان يمقته • واندفع فى طريقه باستهتار غريب فانتشل نفسه من الجوع والكرب • وفى الخطوة التالية عرف السبيل الى أحياء البغايا ، لا كهاو ، ولكن كمحترف ، وعاشر امرأة وأقام معها فى بيتها ، ودعانا الى الطواف بمملكته الجديدة • تخلف عن الدعوة سرور عبد الباقى ، وذهبنا اليه مدفوعين بحب الاستطلاع والرغبات المكبوتة وسحر المغامرة • وذكرت فى الحال تجربتى القديمة مع قريبى أحمد قدرى ، وعثرت على البيت ، ودهشت للوجوه الجديدة التى طالعتنى • ومضى سيد شعير بنا فى تلك الدروب كما فعل من قبل فى الحى الحسينى ولقننا كافة تقاليدها وأسرارها ، وسهرنا فى مقاهى الأنس ومجالس المعلمات والفتوات والبلطجية والبرمجية ، حتى باتت أغانيها الخليعة وأناشيدها الساخرة ودعاباتها الفاضحة ورقصاتها العارية ، باتت تعزف

فى رءوسنا كالسحر الأسود وتسكب فى قلوبنا عصير الأفراح والمآسى • وانضم بقدرة قادر الى زمرة رجال الأعمال فافتتح مقهى فى وجه البركة امتاز بالأناقة والخمور الرخيصة وعازف أرغول يشنف آذان السكارى ومدمنى المخدرات من الزبائن • وكان يديره بحزم الفتوات وابتسامة التجار المحترفين ، مرتديا بدلة كالأفندية اشارة الى أصله العريق المختلف عن أصـــول أصحاب المقاهى من أهل البلد البرمجية • ولما قامت الحرب العظمى الثانية تضاعفت أرباحه من المقهى غير أن رفيقته هجرته فيمن هاجر من حى البغايا من المومسات الجميـــلات اللاتى آثرن العمل فى المشارب الليلية استغلالا للجنود البريطانيين ، فلم يبق فى الحى الا النسوة الميئوس منهن ممن تقدم بهن العمر أو ذبل جمالهن • وتدهور الحى القديم فلم يعد صالحا لارتياد الأفندية ، ولم نعد نرى سيد شعير الا كل حـــين ومين • وقد جمعنا مأتم شعراوى الفحام ، ومرة أخـــرى اجتمع فى ركن من السرادق جعفر خليل وخليل زكى ورضا حمادة والدكتور سرور عبد الباقى وعيد منصـــور وســـيد شعير وأنا •

اجتمع أصدقاء العمر بعد أن نقصوا واحدا ، وهم فى ذروة الشباب ما بين الثلاثين والخامسة والثلاثين من العمر ، وقد عرف كل سبيله ، المدرس والموظف والمحامى والدكتور والتاجر والقواد والبرمجى وتاجر المخدرات • وجعلنا نرثى صديقنا الراحل فنقول :

— تزك فراغا لن يسد •

— ما أجمل ذكرياته ••

عاش ضاحكا ومات ضاحكا •

— راهن طيلة عمره على حلم لا يريد أن يتحقق •

وعاتبنا سيد شعير على انقطاعنا عن زيارته فاعتذرنا له بأن الحى القديم لم يعد بالمكان المناسب •

فقال بازدراء :

— اخص على أصلكم ••

ثم بأسف :

— رحم الله شعراوى ، كان الوحيد المواظب على زيارتى ••

وبعد انتهاء الحرب بأعوام قرر الغاء البغاء الرســـمى فاضطر سيد الى الظهور فوق سطح الأرض مرة أخرى ، رجلا فى الأربعين ، يملك بضعة آلاف من الجنيهات ، وذخيرة كبيرة من التجارب الفاسدة • واجتمعنا فى مقهى الفيشاوى ، فقال له رضا حمادة :

— أمامك فرصة طيبة فابدأ حياة صحية جديدة !

فضحك سيد قائلا :

— ما أقبح الوعظ والارشاد •

وقرر أن يستجم فترة من الزمن • أقام فى فندق بالموسكى يدار بطريقة مريبة • وأسرف فى تعاطى المخدرات والخمور ،

واصطياد بنات الهوى ممن هن فى حكم الموسات ، أما نهاره فيمضيه فى لعب الكومى وتدخين النارجيلة • وظل خارج الزمن تماما فيما يتعلق بجميع الأحداث كحرب فلسطين وحريق القاهرة وثورة يوليو • وتزوج وهو فى الخمسين من تاجرة مخدرات مات زوجها فى السجن وكانت فى الأربعين من عمرها • وبالرغم من شدة العقوبات التى فرضتها الثورة على تجارة المخدرات فقد تاجر فيها بكل استهانة وبغير تقدير للعواقب • وقد شيد لنفسه بيتا كبيرا فى طرف الدراسة على حافة الخلاء المفضى الى جبل المقطم ، وسط حديقة مساحتها فدان زرعها بالنخيل والأعناب والجوافة والليمون والحناء والياسمين ، وأثثه بالأثاث الشرقى ، وأقام فوق سطحه حظائر الدجاج والأوز والأرانب •

واجتمعنا بكامل هيئتنا مرة أخرى فى مأتم زوجة رضا حمادة ، وغادرنا المأتم معا — أنا وسيد — حوالى منتصف الليل فسرنا معا نتحادث • وسألته برجاء :

— ألم تجمع من الثروة ما يغنيك عن تجارة المخدرات ؟

فأجاب باستهانة :

— انى أربح كثيرا وأنفق أكثر ••

— ولكنك لا تقدر العواقب •

فقال لى وهو يربت على كتفى :

— طظ فى العواقب !

ثم قال بحسرة :

— هل تذكر رفيقتى القديمة التى هجرتنى أيام الحرب ؟ •• سمعت أنها أنجبت منى ولدا ولكنى لم أعثر لهما على أثر !

فسألته :

— أتحب أن يكون لك ولد ؟

فضحك متجاهلا سؤالى ، ثم قال :

— أنا سعيد بزوجتى ولا أفكر فى الزواج من أخرى !

ثم ضحك عاليا وقال :

— والزواج من أخرى يعنى بالنسبة لى الخراب أو التأبيدة !

وتنهد وهو يقول :

— كل شىء يهون بالقياس الى ما وقع لصديقنا الشهم رضا حمادة !

فقلت مستعيدا حزنى كله :

— انه أعظمنا شخصية وأسوأنا حظا •

فقال بحنق :

— قارن بين حظه وحظ ابن القديمة خليل زكى !

— أى نعم ، يا لها من مقارنة ساخرة ••

— ذلك هو الحقير الشرير أما أنا ! •• ما عيب تجارة المخدرات ؟ !

— المسألة انى أخاف عليك العواقب •

— فلنذكر عاقبة رضا حمادة الذى لم يتاجر فى المخدرات قط !

وأصر على أصطحابى الى بيته العامر بالدراسة •

ولكن ندر اللقاء بيننا • وربما مرت أعوام دون لقاء على الاطلاق • أو يقع لقاء مصادفة فى مقهى الفيشاوى • ولا أنسى يوم أقبل علىّ فى الأسبوع التالى للنكسة • كنت جالسا وحدى أجتر الهم الثقيل الذى لم أعرف له نظيرا من قبل • سلم وجلس ثم بادرنى متسائلا :

— هل يقضى احتلال سيناء على التهريب حقا ؟ !

أحنقنى سؤاله • اعتبرته غاية ما بعدها غاية فى الاستلقاء خارج الزمن • وأدرك بذكائه استيائى فسكت • ومضى يدخن النارجيلة صامتا •• ثم تمتم :

— كعادتك دائما لا شىء يهمك مثل السياسة ووجع الدماغ •

فسألته بضيق :

— الظاهر أنك لم تسمع بما وقع ؟

فقال وهو يشكم رغبته فى السخرية :

— سمعنا وشفنا العجب !

ولقيته بعد ذلك بعامين فى مكتب عيد منصور • رأيته فى صورة جديدة ، منتفخ الوجه والبطن ، يشى منظره بحال مرضية لا شك فيها ولا فكرة لى عنها ، فسألته :

— كيف حالك ؟

فأجاب ببساطه مذهلة :

— بخير كما ترى !

— واكنك لست كعادتك !

— سبحان الذى لا يتغير !

فضحك عيد منصور قائلا :

— أخيرا عرف ربنا •

فسألته :

— ألم تستشر طبيبا ؟

فتساءل بدوره :

— أتؤمن حقا بالأطباء ؟ !

— لم أذهب ولا مرة واحدة الى طبيب ولم يدخل معدتى دواء !

ولما غادر المكتب ضحك عيد منصور وقال :

— يبدو أن جنازة وشيكة ستجمع شملنا من جديد !

شرارة النحـــال

عرفت شرارة النحال أول عهدى بالوظيفة الحكومية • كان عامل التليفون ، فى العشرين من عمره ، ومن حملة الابتدائية حديثا • وكان يلفت النظر بجمال وجهه ورشـــاقة قده ورقة شمائله • رأيت عم صقر الساعى يمازحه مرة فيقول له :

ــ اخلع بدلتك وارتد فستانا وأنا أضمن لك عريسا فى ظرف أربع وعشرين ساعة !

وخلت درجة سابعة لوفاة شاغلها فاشتعلت أفئدة كتبة الدرجة الثامنة تطلعا اليها • ولم يكن ثمـــة قانون ينظـــم الترقيات ، كما كانت الشهادة العليا لعنة على حاملها لما تثيره من حنق فى صدور الرؤساء من حملة شهادة الابتـــدائية القديمة ، وفزع كل موظف من الفئة الثامنة الى من يعرف من الكبراء والشيوخ والنواب فانهالت بطاقات التوصية على وكيل الوزارة ، ووجدت أنا شفيعا ــ فى ذلك السباق ــ فى شخص زميلى القديم عبده البسيونى عضو مجلس النواب ، وقابلنى الأستاذ دلنطاوى اسـماعيل فى المشى خارج الســكرتارية فاستوقفنى متجهما وسألنى :

ــ أما علمت بالذى رقى الى الدرجة السابعة ؟

فقلت وقلبى يخفق :

ــ كلا •

ــ أسرع بتهنئة شرارة النحال !

فهتفت :

ــ شرارة النحال ؟!

ــ نعم •

ــ عامل التليفون ؟!

ــ نعم •

ــ ولكنه بالابتدائية ووظيفته خارج الهيئة !

فرفع الرجل رأسه الى فوق وقال :

ــ اللهم فاشـــهد ، ما زال بمصر أناس يحتكمـــون الى المنطق !

ثم مضى الى حجرته • وذهبت الى ادارة السكرتارية فوجدت أن الترقية أصبحت خبر اليوم دون منازع •

ــ هل سمعتم عن عامل تليفون فى الدرجة السابعة ؟

ــ من قال انه عامل تليفون ؟ •• لقد انتدب للعمل بمكتب وكيل الوزارة •

ــ وكيل الوزارة على سن ورمح ؟

ــ وكيل الوزارة على سن ورمح !

وتساءلت :

ــ كيف •• ولماذا ؟

فقال لى الأستاذ عباس فوزى همسا :

ــ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا •••

وقال لى عم صقر الساعى وهو يقدم لى القهوة :

— لا تدهش يا بك ، حضرتك موظف جديد نسبيا هذا هو كل ما هنالك ، والمسألة أنه كان تقرر ترقية موظف آخر ، ولكن شرارة طلب مقابلة سعادة وكيل الوزارة ، ولما طرد من سكرتاريته انتظر فى المشى حتى اذا خرج الوكيل فى وقت الانصراف رمى بنفسه بين يديه وقال بلهجة تمثيلية كأنه فاطمة رشدى انه مسئول عن أسرة كبيرة وأنه لا واسطة له بعد الله الا سعادته ، ونظر اليه الوكيل نظرة عابرة لا تخلو من ضيق وامتعاض ، غير أن شيئا فى وجه شرارة جعله يعيد اليه النظر باهتمام ، ولبث ينظر اليه كأنما لا يريد أن يسترد بصره •

وسكت الساعى وهو يبتسم بخبث فساورنى الشك • غير أنى سألته :

— أى شىء تقصد ؟

فانسحب الرجل من أمام مكتبى وهو يهمس باسما :

— فى العشق ياما كنت أنوح !

ونقل شرارة النحال الى مكتب الوكيل بصفة نهائية للعمل فى أرشيفه • وتغير منظره الخارجى ليناسب وظيفته الجديدة فارتدى بدلة جديدة أنيقة بدلا من القديمة الرثة ، ولبس حذاء أسود بدلا من النعل المطاط ، وتزين عنقه بكرافتة حريرية عليها طابع الهبة وأطل من طرف جاكتته الأعلى منديل مزركش • وصرنا اذا تقابلنا تبادلنا التحية تبادل الأنداد

لا تبادلها القديم بين موظف وآخر فى حكم السعاة • ولعله كان على وعى بما يدور عنه ولكنه لم يكترث له ، اما لأنه كان مكشوف الوجه ، أو لأنه آمن بأن مركز القوة خليق بمحق المعايب واخراس الألسنة • وفى ظرف عامين عين شرارة سكرتيرا خاصا للوكيل مع ترقية الى الدرجة السادسة • وتهامس الموظفون بشتى التعليقات كالعادة ، وقال لى الأستاذ عباس فوزى :

— ستراه عما قريب ضمن الهيئة الحاكمة !

وسرعان ما عرف فى الوزارة كأهم شخصية فى مكتب الوكيل ، أهم من مدير المكتب نفسه ، فصار كعبة لطلاب الحاجات من الموظفين والأهالى ، وانهالت عليه الهدايا أشكالا وألوانا • وأصبحت ابتسامته أو تحيته هدية يفاخر بها المتلقى وهو يحمد الله المنان • وحدث أن تولى وزارتنا وزير من «أهل ذلك» فانفجرت أزمة لم تجر لأحد فى خاطر ، بالرغم من أن الوزير والوكيل كانا ينتميان الى حزب واحد • ودبر المؤامرة موظف كبير من محاسيب الوزير كان يتحين الفرص للانتقام من الوكيل لاساءة سبقت منه اليه ، فحدث الوزير حديثا مغريا عن سكرتير الوكيل « الجميل » • ورتب لقاء بين الوزير والسكرتير لعرض أوراق طلب الوزير الاطلاع عليها • وقيل ان الوزير اقتنع بكفاءة السكرتير من النظرة الأولى ، وأن السكرتير رحب بتقدير الوزير ترحيب شاب ليس لطموحه حد • وأبلغ

الوكيل برغبة الوزير فى نقل سكرتيره الى مكتبه فثار غضبه وصارح مبلغه بأنه لا يستغنى عنه · وغضب الوزير بدوره فأصدر أمرا بنقل شرارة الى مكتبه فما كان من الوكيل الا أن اعتكف فى قصره · وقيل ان رئيس الحزب وبخ الرجلين ، وأنه حذرهما من تسرب خلافهما الى الصحف الوفدية ، فرجع الوكيل الى عمله كاظما غيظه · وتتابع صعود شرارة النحال فرقى الى الخامسة مع قيده على الرابعة ـ وترامى المستقبل أمامه فسيحا باهرا · غير أنه لم يشق طريقه معتمدا على جماله وحده ، أو أن جماله لم يكن ميزته الوحيدة ، فكان الى ذلك ذكيا عالى الهمة مزودا بأكثر من سبب من أسباب النجاح · ففى أثناء عمله المرهق انقلب من جديد تلميذا مجتهدا ، وحصل من « منازلهم » على شهادات الكفاءة فالبكالوريا وأخيرا ليسانس الحقوق · وعلق عباس فوزى على اجتهاده متهكما وجادا فى آن فقال :

ـ ليس كغيره من أمثاله ، فهم اعتمدوا على جمالهم وحده وهو خاصية تفقد قيمتها سريعا بالتقدم فى العمر ، لذلك تجدهم الآن كهولا منسيين فى الدرجة الرابعة أو الثالثة على الأكثر ، أما صاحبنا فيعد نفسه للمناصب الرفيعة !

وكموظف يعتبر من أكفأ الموظفين الذين عرفتهم فى حياتى ، همة فى العمل وجلدا عليه وحسن تصرف فيه ، فهو مرجع من المراجع الهامة فى الادارة ، ومن ناحية

أخرى اشتهر بالطموح والأنانية ، والقسوة فى معاملة مرءوسيه من زملائه القدامى ، فلم يغفر لأحدهم هفوة أو زلة لسان ، وكأن قدرا كبيرا من سعادته لا يتحقق الا باذلالهم والتمثيل بهم · واستقالت الوزارة وهو فى الدرجة الثالثة مديرا لمكتب الوزير · وتولى الوفد الحكم · وأحيل الوكيل الى المعاش قبل أن يتمكن من الانتقام من محبوبه القديم · وهرع الحاسدون الى الوزير الجديد فاتهموا مدير المكتب بالحزبية المضادة والشذوذ الأخلاقى · ودافع شرارة عن نفسه باستماتة فقال انه « موظف » وموظف فحسب ، ولاؤه أولا وأخيرا للعمل ، واخلاصه لمن يعمل فى خدمته · وتقرر نقله مديرا للمحفوظات ، وهى وظيفة خلفية لا مجال فيها للطموح ، ومع ذلك فقد عكف على دراسة نظام الأرشيف وأعاد تنظيمه على أسس جديدة مما بث فيه حياة لم يحظ بها من قبل · ودعا الوزير لتفقده فأعجب الرجل باجتهاده وأثنى عليه · واذا به ينشر مقالة فى جريدة المقطم بعنوان « وزير وفدى يثنى على خصم من خصوم الوفد » ، نوه فيها بعدالة الوزير واخلاصه وايثاره للمصلحة العامة وكيف أنه شجعه بدل أن يبطش به ، وختمها بقوله : ان الانسان ليحتاج الى قوة خارقة لتمنعه من الارتماء فى أحضان الوفد ·

وحدثنى الأستاذ عباس فوزى بأنه كان فى حضرة الوزير عندما استدعى شرارة النحال لشكره وأنه قال له :

ـ من أين لك بهذا الأسلوب البليغ ؟
فما كان من شرارة الا أن قال على الفور :
ـ انه فضيلة يا صاحب المعالى اكتسبتها من حفظ خطب خالد الذكر سعد زغلول باشا !

ونقل شرارة النحال مديرا للمستخدمين ثم رقى الى الدرجة الثانية قبيل اقالة حكومة الوفد · وفرح الحاسدون وقالوا « الدب وقع » ، فها هو الوزير السابق يعود ومعه الوكيل أيضا ، فما عسى أن يصنع شرارة النحال ؟ · وتوقعنا أن نشهد خاتمة الرجل ، ولكنا فوجئنا جميعا بترقيته الى الدرجة الأولى مديرا عاما للادارة !
ـ ما معنى هذا ؟
ـ ماذا جرى فى الدنيا ؟!

ومضت الأخبار تتسرب كنقط الماء ، عرفنا ما خفى علينا · فطيلة عهد الوفد لم ينقطع شرارة عن زيارة وزيره السابق سرا ، وكان ينفذ له رغائبه دون أن يدرى أحد · وأكثر من ذلك سعى سعيه حتى صالح بين الوزير السابق والوكيل المحال الى المعاش ؟ · فلما رجعا قال بكل ثقة :
ـ رجع عهدنا العتيد !

وقيل أيضا انه راح يعطى دروسا خصوصية لابن الوزير الوفدى الطالب بكلية الحقوق · غير أنه بفطنته أدرك أن ميزان القوة الحقيقى مضى يتركز فى السراى ، وأن السراى خير وأبقى لمن أوتى بعد نظر

حقيقى · وعليه ألف كتابه الوحيد « صانعو مصر الحديثة » أرخ فيه لمحمد على واسماعيل وفؤاد ، وأهداه الى السدة الملكية · وجاءه من الديوان الملكى جواب شكر نشر فى جميع الصحف · وقال لزميله وغريمه عدلى المؤذن :

ـ الآن أصبحت من رجال السراى ولن يفكر حزب فى التنكيل بى ·

وفى أواخر أيام الحرب تزوج من أسرة محترمة ، فأنجب بنتا وولدا ، كانا ـ مثله ـ آيتين فى الجمال ، وقد تزوجت الفتاة من سكرتيره ، أما الشاب فعمل ضابطا فى الجيش ، وعقب انتهاء الحرب العظمى الثانية وقبيل اجراء انتخابات لمجلس الشيوخ استدعانى فى مكتبه ، وتعطف فسمح لى بالجلوس أمام مكتبه وقال لى :

ـ انتخابات الشيوخ غاية فى الأهمية ، ولو فاز الوفديون لحق لهم تغيير العهد كله ··
فنظرت اليه متسائلا فواصل قائلا :
ـ انى أفكر فى ارسال اسمك ضمن المرشحين لرئاسة اللجان الانتخابية ··
فابتسمت ولم أنبس فقال :
ـ ستجد فى الدائرة رجلا من رجال حزبنا ··
فسألت بخبث :
ـ أى حزب ؟

فضحك عاليا حتى احتقن وجهه الوردى بالدم ثم قال :

ـ لا أهمية للحزب ، المهم الولاء لصاحب العرش !

فقلت بقلق :

ـ لا خبرة لى بذلك العمل ..

ـ أغمض عينيك ودع المأمور يعمل ، لن يطلب منك أكثر من ذلك .

فوجمت وهو ينظر لى ثم قال متأسفا :

ـ الحق أنى رشحتك لما أعهده فيك من خلق طيب ولكنى لن أثقل عليك .

ونهض مادا يده فصافحته وغادرت الحجرة .

وأسفرت نتيجة الانتخابات عن نجاح عشرة من الشيوخ الوفديين فى أربع وأربعين دائرة استعملت فيها جميع صنوف الضغط والارهاب والتزوير كالعادة ، فحمدت الله على أننى لم أشترك فى تلك الجريمة التاريخية المدبرة .

وقد اختلفت الأقوال فى نزاهته فمن قائل انه كان نزيها بالرغم من عيوبه الكثيرة ، ومن قائل بأنه لص أريب شديد الحذر . ومعروف أنه امتلك فيللا جميلة فى حلوان وعمارة فى الدقى ، ولكنه كان يردد دائما بأنهما اشتريا بأموال زوجته . ولما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ قدم الى لجنة التطهير بناء على ما قدم فيه من عرائض ولكن الظاهر أنه لم يثبت عليه ما يدينه ، فاستمر فى عمله . وقيل انه استمر بفضل شفاعة ابنه

الضابط والله أعلم . ورقى بعد ذلك وكيلا للوزارة ، ثم عين رئيسا لمؤسسة عقب تطبيق القوانين الاشتراكية . وتسلل اليه الحزن مرتين ، مرة عندما أصيب ابنه برصاصة غير قاتلة فى حرب اليمن ، ومرة عندما أصيب زوج كريمته اصابة عشواء ـ وهو جالس فى مقهى ـ فى مظاهرات الطلبة التى تفجرت عقب هزيمة ٥ يونية ١٩٦٧ . ولم أره منذ غادر الوزارة ، وانقطعت عنى أخباره الا فيما تسوقه المصادفة بين الحين والحين . وآخر ما سمعت عنه من صديق رآه فى مكة عام ١٩٧٠ وهو يؤدى فريضة الحج .

شعراوى الفحام

لعله كان أطيب أصدقاء العباسية · طيبة تخالطها لا مبالاة وبساطة بالغة فى الذكاء والتفكير · وأتذكره كلما تذكرته ضاحكا لسبب ولغير ما سبب وكان يكفيه أن يسمع شتمة أو ملاحظة عابرة ليغرق فى الضحك ، وكلما اشتد نقاشنا فى السياسة ضحك ، وكلما تجادلنا فى الكرة أو السينما ضحك ، واذا شهدنا جنازة قريب لصديق تجنبنا النظر نحوه خشية اثارة فضيحة بين المعزين · حضرنا يوما جنازة قريب شاب لجعفر خليل · وخرجت أم الشاب تودع النعش أمام البيت فى حال جنونية ، حافية القدمين محلولة الشعر تلطم خديها بشبشب ، ثم من شدة الحزن راحت ترقص كالمجنونة ، منظر أثار حزننا جميعا وأجرى دموعنا ، ولاحت منى التفاتة نحو شعراوى الفحام فرأيته يعض النواجذ على ضحكة تريد أن تفلت على حين راح جسمه النحيل يرتعش تحت ضغط الضحك المكتوم ، ولم يكن قاسيا ولا بليدا ولا أبله ولكنه كان غريبا ، كان نوعا قائما بذاته · وكان يقيم مع أمه فى البيت المجاور لبيت سيد شعير ، بلا أب ولا اخوة ، مات أبوه وهو فى المهد ، تاركا له ولأمه البيت ومعاشا مقداره عشرة جنيهات · وكرست أمه حياتها

لتربيته معتمدة على معاش زوجها وريع وقف يماثله فى المقدار · لذلك اعتبرت أسرة ميسورة الحال ، وستظل كذلك حتى يدخل شعراوى طور الشباب فتكثر مطالبه ويتغير الحال · ولم يوفق شعراوى فى دراسته الابتدائية ، لا بسبب الاهمال والشقاوة مثل خليل زكى وسيد شعير ولكن بسبب الاهمال والشقاوة والغباء · وفصل من المدرسة لكثرة سقوطه ، فلم يجد سوى البيت والمقهى والطريق · ونفر بطبعه المهذب من مصاحبة خليل زكى ولكنه وجد ملاذه عند سيد شعير ، فلازمه فى سهرات الحى الحسينى ثم فى أحياء البغايا بعد ذلك · وعن طريقه تعلم شرب الخمر ثم لم يفارقه ادمانها حتى الموت · ويوما قال لى وكان ما زال تلميذا بالابتدائية :

ـ أنا عارف !

فسألته عما يعنيه فقال :

ـ أنت تحب حنان مصطفى ·

فسكت ضيقا وحياء فقال :

ـ وأنا أحب حنان مصطفى !

فدهشت وتوقعت صراعا من نوع ما غير أنه ضحك وقال :

ـ يد الله مع الجماعة !

ـ ماذا تعنى ؟

ـ نستدرجها معا الى غابة التين الشوكى !

فصحت به :

ـ عليك اللعنة !

وكان ذلك قبيل رحيل آل مصطفى بأيام فسرعان ما تلاشى سوء التفاهم . على أنى لم أعرف له بعد ذلك قصة حب أو زواج واقتصر نشاطه فى ذلك المجال على مصادقة المومسات . ولما يئست أمه من تعليمه أرادت أن تجد له عملا ، وكانت تردد دائما أن أى عمل خير من البطالة . وقصدت قريبا لها من الكبراء هو أحمد باشا ندا فوظفه فى وزارة الأوقاف ، ولكنه لم يستطع المواظبة على العمل ، وكان يمضى يومه فى الفيشاوى منتظرا سيد شعير حتى يفرغ من عمله فى دكان أبيه ، وسرعان ما فصل من الوزارة ، ولم يتخلف يوما عن سهراتنا الأسبوعية سواء كنا طلبة أم موظفين ، وتمكن منه ادمان الخمر فكان يشرب كل ليلة ، يشرب أرخص الخمر وأردأها التى تتناسب مع دخله . ويمكن تخيل ما أحدثه ذلك فى أمه من قلق وأسى . وهو نفسه قال لنا ذات ليلة ونحن نسمر فى مقهى سيد شعير بوجه البركة :

ـ أمى لا تريح و لاتستريح ، تريد أن تخلق لى عملا ولكن أى عمل ؟ ، وتريد أن تزوجنى ولكن أى زوجة ؟

فقال له عيد منصور :

ـ دخلك الثابت عشرة جنيهات وهو دخل طيب لو قنعت بسكرة واحدة فى الأسبوع وما عليك الا أن تبحث عن زوجة ذات ايراد ..

فضحك كالعادة وقال :

ـ انى أنتظر الفرج وهو آت عما قريب !

وكان يقصد قريبه أحمد باشا ندا الذى تولى رئاسة الديوان الملكى فسأله عيد منصور وهو أشغفنا بالشئون المالية :

ـ ألك فكرة عن ثروته ؟

فأجاب شعراوى وهو يملأ كأسه بالكونياك الجهنمى :

ـ عشرون ألفا من الأفدنة أما أمواله السائلة فلا يعلمها الا الله ..

ـ ولا ورثة له غيركم ؟

ـ أمى هى قريبته الوحيدة الباقية ..

وكان رضا حمادة يوكد لنا تلك المعلومات نقلا عن أبيه . ومن الطريف أننا لم نعلم بقرابة شعراوى لأحمد باشا ندا الا فى وقت متأخر نسبيا ، اذ أنه أخفاها على عهد المدرسة الابتدائية لسوء سمعة الباشا كرجل من رجال السلطان وعدو من أعداء سعد زغلول . واسترسل شعراوى يقول :

ـ أمى هى الوريثة الوحيدة له وأنا الوريث الوحيد لها والباشا الآن فى الخامسة والسبعين من عمره ، وكل آت قريب !

وسأله جعفر خليل :

ـ حدثنا عما ستفعل بالتركة اذا آلت اليك ؟

فضحك طويلا وقال :

ـ آه لو تتحقق الأحلام ، سأبنى قصرا فى القاهرة

وآخر فى الاسكندرية كالباشا نفسه ، وسأملأ الخزائن بجميع صنوف الخمر المعتقة وأما النسوان ٠٠

فقاطعه سيد شعير :

– وماذا ستقدم لنا نحن الأصدقاء ؟

فأجاب :

– ستكون سهرتكم فى حديقة القصر وسيقدم لكم أجود ألوان الطعام والخمور والنساء ، عهد الله بينى وبينكم ٠٠

وهمس رضا حمادة فى أذنى :

– سوف يكون يوما تاريخيا يوم يرث صديقنا تركته الخيالية ٠٠

وظل يسكر ويحلم بالتركة ، يسكر ويحلم ، ومع الأيام رق عوده وجف جلده وبرغم شبابه جرى المشيب فى شعره ٠ واذا بالباشا العجوز يفاجىء البلد بمغامرة لا تخطر بالبال ، فعاد من رحلة بالنمسا بصحبة غادة شقراء فتانة فى العشرين من عمرها ، قيل انه ينوى الزواج منها على سنة الله ورسوله ٠ وثار الرأى العام ، واضطربت جماعتنا ، أما صديقنا فكاد يجن ٠ وما ندرى الا وشعراوى يقيم على الباشا دعوى للحجر عليه باعتباره سفيها ٠ وأدهشنا ذلك وبحثنا عما خفى علينا منه فوضح لنا أن خليل زكى هو الذى أشار عليه بذلك !٠ غير أن قوى مجهولة تدخلت لتعيد الى الأمر توازنه ، فسافرت الفتاة النمساوية فجأة وقيل انها لم توافق على السفر حتى

استولت على عشرين ألفا من الجنيهات ٠ وبتدخل السراى كفت الجرائد عن الخوض فى الموضوع ، وبتدخلها أيضا رفضت دعوى الحجر ٠ واعتكف الباشا فى قصره لا يزور ولا يزار ثم أعلن وقفيته المشهورة التى أوقف أرضه بها للخيرات والمساجد ٠ تذكرنا صديقنا فأحزننا مآله وخيبة آماله ، وأقبل علينا فى مقهى الفيشاوى سكران كالعادة محمر العينين ذاهل الطرف ، نظر فى وجوهنا مليا ، ثم أغرق فى الضحك !٠ وخلع حذاءه فوثب الى أريكة فى صدر المقصورة فتربع عليها وراح يغنى :

البخت لو مال حتعمل ايه بشطارتك

وأغرق فى الضحك مرة أخرى حتى أعدانا فضحكنا كالمجانين ٠ ولم يطرأ عليه من جديد بعد ذلك سوى الافراط فى الشراب ، فكان يشرب فى النهار كما يشرب فى الليل ، ولم يتيسر له من أنواع الخمور الا الأنبذة الرخيصة الشيطانية ، أنبذة السلسلة ودرب المبلات وخمارات شارع محمد على ، وخبت شهواته الأخرى كشهوة الطعام وشهوة النساء ، وبدا أنه يعيش فى منفى من صنعه ، يتخاطب بلغته القائمة على الاشارة ويضحك لخيالاته الراقصة أو يطرق فى كآبة حيال أشباحه ، وأنه يسير بقوة نحو الذوبان ٠ وحاول جعفر خليل أن يجره الى دنيا السينما كما فعل مع خليل زكى ولكنه رفض الفكرة وضحك طويلا ٠ وعرض عليه سيد شعير أن يعمل فى المقهى بشرط أن

يمتنع عن السكر فضحك أيضا • لم تكن لديه همة ولا رغبة ولا دافع • وقامت الحرب العظمى الثانية ، وفى نفس العام توفيت والدته ، فأجَّر البيت وأقام فى حجرة مستقلة بمرافقها فوق السطح • وفى عام ١٩٤١ أغارت الطيارات الايطالية على القاهرة فى النصف الثانى من الليل ، وكان جالسا على كرسى هزاز أمام حجرته فوق السطح فى غيبوبة تامة من السكر • والظاهر أنه لم يغادر كرسيه آذ وجد مطروحا عليه قتيلا بشظية مستقرة فى رأسه • وكان مصرعه أول تجربة من نوعها فى حياتنا المشتركة فهو أول من فقدنا من أصدقاء العمر • وكان جعفر خليل أشدنا حزنا اذ عرف دائما بتعاطفه مع أصدقائنا المنحرفين كسيد شعير وخليل زكى • وجمعنا المأتم حتى الذين باعدت بيننا وبينهم الظروف الطارئة ، وجعل سيد شعير يقول بأسف حقيقى :

ـ رحم الله شعراوى ، كان الوحيد المواظب على زيارتى ••

صادق عبد الحميد

قال الأستاذ جاد أبو العلا يقدمه لى فى صالونه بالدقى :

ـ الدكتور صادق عبد الحميد •

سرت فى روحى رعدة وأنا أصافحه • تنكرت الاسم بقوة مخيفة • تذكرت درية زوجته وهى تحدثنى عنه • ترى أيكون آخر له نفس الاسم ؟ • ولكن هذا الأمل تلاشى عندما واصل جاد أبو العلا حديثه قائلا :

ـ كان فى بعثة قصيرة أخيرا فى انجلترا ، ولكنه حصل على الدكتوراه من انجلترا على عهد طلب العلم ، وهو باطنى ممتاز ولكنه أديب وفنان وفيلسوف وسياسى أيضا ••

اذن فهو زوج عشيقتى دون غيره ! • ذلك الرجل الذى بلغ الأربعين بالكاد والذى يفيض حيوية ويتألق ذكاء • وأعجبنى حديثه الذكى وجولاته المضيئة فى الفن والفكر والسياسة • ووجدته يجذبنى بطلاوة الحديث وعمقه وتنوعه ، ووجدت فى روحه سرا ينفث صداقة راسخة ، وازدادت مع الأيام رسوخا • وصفا جوها بقطع العلاقة بينى وبين درية زوجته وان لم أخل من ضيق كلما تذكرتها • وبتحريض حار من ناحيته قدمته الى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم

ومجلس الأستاذ سالم جبر · كما قدمته الى الأستاذ زهير كامل · وخيل الى كثيرا أنه يضمر تجربة نفسه فى الكتابة ولكنه قنع - ولو الى حين - بالاستماع والمناقشة ، وكان يحظى منهما بسعادة لا توصف · وكان من المتحمسين لثورة يوليو عن ايمان وعقيدة · وكان يحلم بالاشتراكية منذ عهد طلب العلم ، ولم تكن له جذور حزبية أو اقطاعية تمنعه من الارتماء فى أحضان الثورة · سأله رضا حمادة يوما :

- أليس لك مأخذ ولو على بعض تصرفاتها ؟

فأجاب بحماس ، وهو دائما يتكلم بحماس :

- كلا ، الحق أنى أيدت موقفها من الأحزاب ، من الاخوان ، وحتى من الشيوعيين ··

فسألته :

- وما لزوم « حتى » هذه ؟

- لست شيوعيا ، ولكنى أرحب بالتعاون بين الثورة وبينهم ، فالثورة والشيوعية تياران ينبعان من مصدر واحد ويهدفان فى النهاية الى أغراض متقاربة ··

وبعد صمت قصير استطرد :

- وأيدت موقفها من الوحدة مع سوريا ، ومن حملة اليمن !

فقال رضا حمادة :

- اذن فليس فى الامكان خير مما كان ··

فقال ضاحكا :

- لست غافلا عن السلبيات ولكنها شر لا بد منه فى فترات الانتقال والتطور ، فأنت بضربة موفقة واحدة تستطيع أن تغير نظام الحكم أما الطبائع فيلزمها وقت أطول بكثير !

وعمد الى تفصيل رأيه فقال :

- قولوا فى الجمعيات التعاونية ما شئتم ، وقولكم حق ، ولكنها كنظام فهو نظام مثالى ، وسوف يختفى الفساد يوما وتبقى الجمعية لتؤدى رسالتها ، ويمكن أن يقال ذلك بالحرف عن القطاع العام ، ألا تذكرون بنك التسليف الزراعى ؟ ·· لقد استغله اسماعيل صدقى للتنكيل بخصومه وتفتيت وحدة الأمة ولكن اسماعيل صدقى ذهب وبقى بنك التسليف !

ولما وقعت الواقعة يوم ٥ يونية ١٩٦٧ ذهل واختل توازنه ، ومضى يتخبط بين الصالونات والمقاهى وكأن القيامة قامت ، ودار بينى وبينه حديث طويل فى التليفون ختمه متسائلا :

- أكانت حياتنا وهما من الأوهام ؟!

وقابلته بعد ذلك بأيام فى بيت رضا حمادة بمصر الجديدة فوجدته ممتعضا غاية الامتعاض ، وجعل يردد بتألم شديد :

- ما أكثر الشامتين ، ما أكثر الهازئين ، ما أكثر المازحين ، لم يجن أحد ، لم ينتحر أحد ، لم يصب بجلطة أو ذبحة أحد ، يجب أن أجن أو أن أنتحر ·

ولكنه أخذ يسترد الثقة يوما بعد يوم ، وينظر الى

الهـزيمة باعتبـارها تجربة مريرة نزلت بنا لنعيـد « تشخيص » أنفسنا ، وكلما سمع عن رغبة الأعداء فى تصفية الثورة ازداد ايمانا بها وحماسا لها ، حتى اعتقد مخلصا أن استمرارها أهم من استرداد الأجزاء المحتـلة من الوطن العـربى ، اذ ما فائدة أن نسترد أرضا ونخسر أنفسنا ؟ ، ثم ان استمرارها هو الضمان الوحيد لاسـترداد الأرض طال الزمان أو قصر ، كما أنه الضمان الوحيد لبعث الشعب العربى ·

ـ اننا مطـاردون ، يطاردنا التخلف ، وهو عدونا الحقيقى لا اسرائيل ، وليست اسرائيل عدوا لنـا الا لأنها تهددنا بتجميد التخلف ··

وانصرفنا ذات ليلة معا من صالون الدكتور ماهر عبد الكريم فجلست الى جانبـه فى سـيارته نصر التى مضت بنا على مهل تخوض الظلام على ضوء فانوسها المطلى بالأزرق · ووجدتنى أقول له :

ـ عبده البسيونى حدثنى بحديث عجيب ··

فتساءل عن الحديث فقلت :

ـ قال ان الدكتور زهير كامل عشق أخيرا صحفية تحت التمرين تدعى نعمات عارف ··

ـ وما وجه العجب فى ذلك ؟

ـ هو فى الستين كما تعلم وهى فى العشرين ··

فضحك وقال :

ـ العشق هو العشق بصرف النظر !

فقلت :

ـ وقال أيضا انه سيتزوج منها ··

ـ يا عـزيزى ان حربا تنشب فجأة فتقتـل آلافا أو ملايين ، وان زلزالا يقع فيدمر آلافا ، أما زواج زهير كامل فربما مر بسـلام وربمـا تخلف عنـه ضحية أو ضحيتان !

وسكتنا مليا ، ثم قال لى :

ـ أعترف لك بأنى عاشق !

فتذكرت ما قالته لى درية فى آخر لقاء ولكنى تساءلت متظاهرا بالاهتمام :

ـ حقا ؟

ـ راقصة ايطالية بالأوبرج ··

ـ لعلها نزوة !

ـ حب عاش أكثر من عشرة أعوام ··

ـ يا له من حب عظيم !

ـ أشعر أحيانا بأنه عاش أكثر مما ينبغى !

فترددت ، وصمت ، بعـد أن كدت أطرح سؤالا عن الزوجة ولكنه قال وكأنه قرأ أفكارى :

ـ كما أحببت يوما زوجتى ··

وحدثنى بفتور عن حبهمـا ، حب طبيب الامتيـاز للممرضة ، كما سبق أن سمعته :

ـ كانت فقيرة ، وبالرغم من أننا لم نكن أغنياء الا أن أحدا من أهلى لم يوافق على فكرة زواجى بها ، أبدا أبدا أبدا ··

ـ ولكنك تزوجتها ··

ـ وغرقنا فى الحب كالمجانين ··

وتمرد اللسان على تحفظى فقلت :

ـ ثم جفت ينابيع الحب !

فارتفع صوته ـ كأنما ليستمد من ارتفـاع النبرة دفاعا ـ وهو يقول :

ـ الحق أن نظرتها الى الحب تغيرت تمـاما بمجرد أن صارت أما ..

ـ كيف تغيرت نظرتها ؟

ـ لا أدرى !

ـ أنت تدرى بلا شك .

ـ لعلهـا أصبحت تكن حبا أعظم من الحب العادى ولكنى افتقدت الحب الأول ... ، واذا بى ..

ـ واذا بك ؟

ـ اذا بى أزهد فيها نهائيا وبلا رجعة ..

ـ يا لها من سيدة تستحق الرثاء !

ـ انى أوفر لها جميع أسباب الرعاية والراحة !

ثم بصراحة :

ـ أحيـانا أتمنى لو توفق الى حب رجل آخر فتذهب معه بسلام !

وخيل الى أن قصة درية قد اكتملت ولكن ساورتنى ـ وما تزال ـ شكوك كثيرة . وشـاءت الظـروف أن نتعرف ـ أنا وصادق ـ الى حرم الدكتور زهـير كامل معا ، ودعاهما الدكتور صـادق عبد الحميد الى رحلة فى أوبرج الفيـوم ولم يصطحب زوجتـه معـه بحجة انشغالها بالأولاد . وبعد مرور عام قال لى الأسـتاذ جاد أبو العلا فى صالونه :

ـ انى رأيتهما معا !

فسألته عمن يعنى فقال :

ـ نعمات عارف والدكتور صـادق عبد الحميد فى كنج مريوط ..

فقلت وأنا أدارى انزعاجى :

ـ لعلها ..

فقاطعنى ساخرا :

وقالوا نراها يا جميل تبدلت
وغيرها الواشى فقلت لعلهـا

وقلت لنفسى ان الدكتور الممتاز يحتاج الى مزيد من الدراسة عن جانبه العاطفى . وظل يتحدث فى السياسة والفن ولكنه لم يشر بكلمة الى حبـه الجديد ، وواصل زياراته للدكتور زهير كامل، وقام بتمثيل دور الصديق والمعجب كما كان يفعل من قبل ، وهو ما سـاءنى منه وأثار اشمئزازى . وضاعف من اثارتى أنى رأيت فى نفس العام درية فى سيارة جاد أبو العلا وهو ينطلق بها فى طريق الهرم ، وللحال تذكرت فيللته بالهـرم التى حدثنى عنها عجلان ثابت عندما أخبرنى بعلاقته ـ جاد أبو العلا ـ بأمانى زوجة عبده البسيونى . ها هى درية تجرب حظها مرة أخرى مع رجل عابث لا يوفر الأمان لأحد . وضـقت بهمومى الأخلاقية وتذكرت الكثيرين ممـن يصفونها بازدراء بقولهم « برجوازية » ، وقلت لنفسى انه لمن حسن الحظ أنه لم يبق لنا طويل عمر فى هذه الحياة المتعبة الفاتنة .

صبرى جاد

تعين بادارة السكرتارية فى أواخر عام النكسة ٠ كان فى الثانية والعشرين من عمره، ومن حملة ليسانس الفلسفة ، ومن أول يوم جعلت أرمقه بحب استطلاع ، وأنتظر على لهف اليوم الذى يكاشفنى فيه بطويته فيصلنى بهذا العالم الجديد الغريب ٠ وكان من أصل ريفى ولكنه نشأ وتربى وتعلم فى القاهرة ، فى أسرة متوسطة ، ابنا وحيدا بين ثلاث بنات توظفن وتزوجن ، ويوما سألنى :

ـ حضرتك تعرف الأستاذ عباس فوزى ؟

فأجبته بترحيب :

ـ طبعا ، كان رئيسنا حتى أحيل الى المعاش منذ أعوام ٠٠

ـ أين يقيم الآن ؟

ـ فى عابدين ، أتريد أن تقابله ؟

ـ نعم ، أريد منه حديثا لمجلة العلم ٠٠

ـ أنت صحفى بها ؟

ـ تحت التمرين ٠٠

ـ ما رأيك فى أن نزوره معا ؟ ٠٠ فانى لم أره من مدة غير قصيرة ٠

وذهبنا معا الى فيللا عباس فوزى ، وهى مقامة فوق

سطح عمارة يملكها فى عابدين ٠ ورحب بنا بلطفه المعهود ، وأجرى صبرى جاد معه حديثه الذى دار حول مؤلفاته عن التراث ٠ ولما انتهى استأذن فى الانصراف ولكن الأستاذ عباس فوزى قال له :

ـ لن أسمح لك بالذهاب حتى تجيب عن أسئلتى ٠٠

فتساءل الشاب عما يريد فقال :

ـ ثمة أسئلة تلح على بخصوص جيلكم فهل أنت على استعداد للاجابة بصراحة !

فأجاب الشاب باسما :

ـ طبعا ٠

ـ بصراحة من فضلك ، نحن غير رسميين ، ونحن فى خلوة ، فلا تضن على بالحقيقة ٠٠

ـ تحت أمرك ٠٠

وقلت أنا :

ـ الأستاذ يريد أن يعرف أشياء عن الجيل ككل لا عن شخصك ٠٠

فقال عباس فوزى :

ـ هذا ما أقصده تماما ٠

فقال صبرى جاد :

ـ تحت أمرك ٠٠

اعتدل الأستاذ عباس فوق الكنبة التركية ثم سأله :

ـ ما موقفكم من الدين ؟

فأجاب صبرى جاد ببساطة :

ـ لا أحد يهتم به !

ـ لا أحد ؟ !
ـ الأغلبية لا تهتم به !
ـ لم ؟
ـ لم يكن موضع بحث ، ربما لأنه توجد به أشياء غير معقولة وتخالف ما ندرسه من العلم ..
ـ ولكنى أعلم أن الدولة تهتم بتدريسه وتشترط النجاح فيه ؟
ـ ونحن نحفظه وننجح فيه .
ـ أتعنى أن تعليمه غير مثمر من ناحية العقيدة ؟
ـ بلى .
ـ والبيت ؟ .. ألم تلقنه فى البيت ؟ .. هل والداك مؤمنان ؟
ـ نعم ولكنهما لا يصليان ولا يصومان ولا يتحدثان فى الدين !
ـ ألا يوجد بين الطلبة اخوان مسلمون ؟
ـ كلا .. أو عدد لا وزن له ..
ـ ألا يوجد تلاميذ مؤمنون ؟
ـ فى رأيى انهم قلة ..
ثم مستدركا :
ـ بعد النكسة وجد نوع من الميل للدين ، البعض يقولون ان هزيمتنا ترجع الى اهمالنا لديننا ..
ـ اذن يوجد ميل للايمان ؟ .
ـ نعم يوجد ..
فقال الأستاذ عباس باسما :

ـ انى أطمع فى مزيد من الدقة .
ـ أجبت بما أعرف ، مستعيدا ذكريات الثانوية والجامعة .
ـ دعنى أساعدك ، لعلك تقصد أن تقول ان الايمان بصفة عامة لا يلعب دورا هاما بينكم ولكن الوضع قد يتغير بعد النكسة ؟
ـ نعم ..
ـ ما مدى هذا التغير المحتمل فى نظرك ؟
ـ لا أدرى ..
وتفكر الأستاذ عباس مليا وأنا أتابعه ـ أتابعهما ـ بحواس مرهفة واهتمام لا مزيد عليه . وعاد الأستاذ يسأل :
ـ ما هى القيم التى تقدسونها ؟
فنظر اليه صبرى جاد فى حيرة وتمتم :
ـ القيم ؟
وقلت من فورى مخاطبا الأستاذ :
ـ أرجو أن تتجنب التجريدات ما أمكن ..
فعاد الأستاذ يسأل :
ـ لم تتلقون العلم فى المدارس ؟
ـ لعله خير من أن نتصعلك فى الشوارع !
ـ فقط ؟ !
ـ ولكى نحصل على وظيفة توفر لنا الحياة السعيدة .
ـ وما الحياة السعيدة ؟

ـ هى المسكن الصحى والمأكل اللذيذ والملبس الأنيق وغير ذلك من مسرات الحياة ··

فتدخلت فى الحديث بلا تدبير متسائلا :

ـ ألا تحبون العلم ؟ ·· ألا تسعون للتفوق فيه ؟

ـ كلنا نطمح الى دراسة العلم الا من يقعده المجموع عن ذلك ·

ـ لماذا ؟

ـ الشهادات العلمية هى التى توفر الوظائف الممتازة ··

ـ والتفوق فى العلم والحلم بخلق اضافات فيه ؟

فتردد قليلا ثم قال :

ـ أعتقد أن المتفوقين يحلمون بذلك ··

فسأله الأستاذ عباس :

ـ ألا تقرءون الكتب فى أوقات الفراغ ؟

ـ نفضل السينما والاذاعة والتلفزيون وقليلون يقرءون ··

ـ وهل يقرءون التراث ؟

ـ لا أظن !

ـ ألم تقرأ التراث بصفتك طالب آداب ؟

ـ لغته معقدة ومحصوله ضحل وهو مقطوع الصلة بزماننا !

فتسللت نبرة حادة بعض الشىء الى صوت الأستاذ وهو يسأل :

ـ والوطن أما زلتم تحبونه ؟

ـ طبعا ·

ـ واسرائيل هل تودون محاربتها ؟

ـ نحن الذين سنحرر الوطن بدمائنا ، الوطن الذى تسببتم فى هزيمته ··

ـ نحن ؟

ـ نعم ·

ـ ليس جيلنا الذى يحكم ··

وأشرت الى الأستاذ عباس اشارة خفية ليتجنب الحدة فثاب الى الهدوء وجعل يبتسم فى مودة ، ثم سأله :

ـ وماذا تفضلون الاشتراكية أم الرأسمالية ؟

فرفع صبرى منكبيه وأجاب :

ـ لا تهمنا الأسماء !

ـ الأسماء ؟ !

ـ أجل ، مللنا ذلك ·· ، يهمنا أن تتحقق لكل فرد حريته ونجاحه وسعادته ··

فقلت متدخلا فى الحديث مرة أخرى :

ـ هذا يعنى أنك تفضل الاشتراكية !

ـ لا أدرى !

ـ أتفضل النظام الرأسمالى ؟

ـ لا أعتقد ·

ـ أ لديك نظام جديد ؟

ـ كلا ·· ولكننا مللنا ذلك ··

ورجع الأستاذ عباس فوزى يسأل :

ـ وما موقفكم من الحب ؟ .. ألا زال للحب عندكم قيمة أم أصبح الجنس كل شيء ؟
ـ الجنس مسيطر ، وقليلون يحبــون بل ويرغبون أن يمتد بهم الحب حتى الزواج !
ـ وماذا عن الأكثرية ؟
ـ يمارسون المغامرات الجنسية ..
ـ مع من ؟
ـ التلميذات .. الطالبات .. الفتيات !
ـ هل يقبلون الزواج من المغامرات ؟
ـ كثيرون يقبلون .. والبعض يتبع تقاليد الجيــل الماضى ..
ـ أعتقد أن الفتيات لا يتخلين عن حلم الزواج .
ـ هذا هو عيبهن الأول .
ـ وغير مستحيل أن تتزوج أنت نفسك يوما ما .
ـ غير مستحيل وان يكن مرتبى مضحكا ومستقبلى عدما .
ـ ولكن ثمة ما يشدك الى الحياة ولا شك ؟
ـ غريزة حب البقاء .
ـ ربما لم تخل حياتك من سرور ؟
ـ لقمة سائغة ، فيلم جيد ، علاقة جنسية بريئة .
ـ بريئة ؟!
ـ أى ليست استدراجا لزواج .
ـ أتعتقد أنك خير من أبيك ؟

ـ كان أبى وفديا يقــدس ســعد زغلول ومصطفى النحاس وأنا أعتبر ذلك مضحكا .
ـ لم ؟
ـ ثبت أنهم أصنام لا أكثر ولا أقل .
ـ لا أجد عندك عقيدة بديلة ؟
ـ كان عندى ، وتزلزل كل شيء عقب ٥ يونية ..
ـ ماذا تقترح لتحسين الأحوال ؟
ـ العالم كله عدم وهباء .
ـ ماذا تقترح لتحسين أحواله ؟
ـ القضاء على جميع المسئولين فيه !
ـ وماذا يحدث بعد ذلك ؟
ـ لا يهم ، ستتحسن الأحوال وحدها ..
ـ لقــد جئتنى يا عزيزى لاجراء حديث عن التراث على حين أنك لا تؤمن به ؟
ـ انى صحفى تحت التمرين !
ـ ولكن سلوكك لا يخلو من انتهازية ؟
ـ وما العيب ؟ . أى وسيلة تنفع للوصول فى هــذا العالم المكتظ فهى مشروعة !
ـ أشكرك جدا .
ـ العفو ...
وغادرنا عمارة الأستاذ وصــدرى يجيش بانفعال عاصف .

صفاء الكاتب

كان بيت الكاتب من أعــرق البيــوت فى العباســية القديمة ، وكان يقع فى الحى الشرقى بمبناه الشــامخ وحديقتــه المترامية ما بين محطتى ترام • وكثيرا ما سرنا بحذاء سوره ونحن فى طريقنا الى الصحراء للعب الكرة فلم أر منه الا رءوس الأشجار وخمائل الياسمين والستائر المســدلة • وذات يوم وكنت ماضــيا نحو الصحراء رأيت حنطورا ينحدر من الطــريق الشرقى نحو الشارع العمومى ، فى صدره جلست عجوز تلوح من وجهها عينان ناعستان فوق حافة اليشــمك ، والى جانبها فتاة تتألق بنور الشباب • وبمجرد أن وقعت عيناى على وجه الفتاة عانقت سرا من أسرار الحيــاة المتفجرة ، تفتحت بهــا أبواب الســماء فأغدقت علىّ فيضا من بركات الحب • وقال شعراوى الفحام وكان أكثرنا خبرة بالحى الشرقى :

ــ هى صفاء ابنة صاحب القصر •

وقال خليــل زكى وكان يســطو على حــدائق الحى الشرقى كلما وجد غفلة ليخطف عنقود عنب أو ثمرة من المانجو :

ــ وهى فى العشرين من عمرها •

وعنــد ذلك همس جعفــر خليــل فى أذنى وقد لحظ تغيرى :

ــ أما أنت ففى الخامسة عشرة !

ومن عجب أن صورتها ــ رغم العاطفة التى ابتعثتها ــ اختفت تماما وراء سحب المــاضى • بل تعذرت على الوضوح حتى وأنا فريســة لسحرها • لا أعرف لون شعرها ولا تسريحته ولا لون عينيهــا أو رسمهما ولا طول قامتها أو درجة امتلائهــا • ذاب ذلك فى ســائل سحرى • وكنت اذا تذكرته ــ أو خيل الىّ ذلك ــ فعن طريق غير مباشر وبايحاء عفوى كشذا الورد الذى يباغتك من وراء سور وأنت ماض غارقا فى أفكارك • وكأن قلبى لم يكن يحركه شىء الا اذا انتهى اليها بسبب خفى • ولذلك همت فى أزمنة متأخرة نســبيا بقسمات وملامح وسمات ولفتات لنجوم توهمت أنهــا تذكرنى بما غاب عنى منها • بل ما أحببت صفة فى وجه انسانى الا وكانت هى وراءه حقيقة أم وهمــا • وبسبب ذلك الحب الخاطف عانت حيــاتى العاطفيـــة من أزمات متواصلة معقدة كأنها السحر الأسود • والعجيب أنه كان حبا بلا مواقع ولا مواقف ولا تاريخ يذكر • رأيتها فى الحنطور ثوان ليس الا ففقدت ارادتى وألقى بى فى طور جديد من أطوار الخلق • وكنت قريب عهد بحب حنــــان مصطفى فأدركت خطئى وآمنــت بأننى أحب لأول مرة • وعرفت كيف يغيب الانسان وهو حاضر ويصــحو وهو نائم ، كيف يفنى فى الوحــدة وســط

الزحام ويصـــادق الألم ، وينفـذ الى جذور النباتات وموجات الضوء · وجعلت أحوم حول سراى الكاتب وهو قصر مغلق النوافذ مسدل الستائر لا يرى به انسى سـوى البواب والبستانى وبعض الخدم ، وسـمعت مرة صوتا ناعما ينادى البواب فاهتز قلبى وافترضت فى الحال أنه صوتها ثم آمنت بذلك · ورأيتها للمـرة الثانية فى مناسـبة حزينـة جدا ، فى نافذة بيت أثرى بشارع محمد على احتشد فيه نفر من النساء لمشاهدة جنازة سعد زغلول ، ولم أنتبـه اليهـا عقب مرور النعش فرأيت ،من خلال دموعى وجهها المشرق وهى تجفف عينيها مادة عنقها وراء النعش المبارك · خفق قلبى خفقة مباغتـة ولكننى لم أنعم بالرؤية وفقـدت النشوة فى قلب كسـير محزون ، واجتاحتنى عواطف متناقضة كما اجتاحنى تيار الخلق المتلاطم الباكى · لم أرها بعد ذلك الا ساعة هبطت أدراج السلاملك فى ثوب العرس لتستقل سـيارة الى بيت العريس وكنت ضمن حشد وقف على الطوار المواجه للقصر للفرجة · وكانت مدة ذلك التاريخ الذى مر بلا أحداث عاما الا قليلا ، ولكنه كان أعجب عام فى حياتى ·

وانكشف أمرى لأصدقائى جميعا ، أما المهرجون فسخروا منى وأطلقوا علىّ « مجنون صفاء » ، وأما الآخرون فحذرونى من التمادى فى عاطفـة لا جدوى منها ألبتة · وكنا صـغارا وكانت أفكارنا سـاذجة

مستعارة من الروايات وما عرفناه من تاريخ الأدب العربى · فقال لى سرور عبد الباقى :

ـ لا تستسلم والا جننت كمجنون ليلى ··

وقال لى رضا حمادة :

ـ ان حبك هذا يقطع بأنك أحببتها فى تاريخ سحيق مضى ، ربما فى عصر الفراعنة ، كما يقول ريدرهجارد ·

وتمثل ذلك الحب فى صورة قوة طاغية متسلطة لا تقنع بأقل من التهام الروح والجسد · قذف بى فى جحيم الألم · وصهرنى ، وخلق منى معدنا جديدا تواقا الى الوجود ، ينجذب الى كل شيء جميل وحقيقى غيبه · وبقى الحب ـ بعد اختفاء خالقه ـ ما لا يقل عن عشرة أعوام مشتعلا كجنون لا علاج له · ثم استكن على مدى العمر فى أعماقى كقوة خامدة ـ ربما حركتها نغمة أو منظر أو ذكرى فتدب فيها حياة هادئة مؤقتة تقطع بأنه لم يدركه الفناء بعـد · وكلما تذكرت تلك الأيام أذهلنى العجب ، وتساءلت بدهشة عن سر الحياة التى عشتها ، وهل كان أصابنى مس من الجنون ، وأسفت غاية الأسف أنه لم يقدر محبى أن يخوض تجربته الواقعية ، وأن تتلاقى فى دوامته العنيفة السماء والأرض ، وأن أمتحن قدراتى الحقيقية فى معاناته ومواجهة أسراره على ضوء الواقـع بكل خشـونته وقسوته · وما أحكم رضا حمادة حين قال لى يوما وقد بلغنا درجة من النضج والتجربة :

ـ صفاء ألقيت فى حياتك كمثير ·· لم تكن الا « شفرة »

تشير الى شيء ، تعين عليك أن تحـل رموزها للوصـول اليــه •

فقلت له :

ــ لقد تحللت حياتنا الى سخريات ولكنى أكره أن أذكر تلك الأيام باستخفاف ••

ــ استخفاف ؟ ! • كيف يستخف انسان بأروع سـنى العمر ؟ !

ومررت بقصر آل الكاتب فى الستينيات فوجدته قد هدم ورفعت أنقاضه ، مخلفا أرضا فضاء تحفر تمهيدا لاقامة أربع عمارات سكنية • ابتسمت وانا أنظر الى الأرض الفضاء ، وعبرنى احساس بالأسى ، فتذكرت صفاء التى لم أرها منذ هبوطها فى ثوب العرس ، التى لم أدر عنها شيئا ، حية كانت أم ميتة ، سعيدة أم شقية ، وكيف غيرها الكبر بعد بلوغ الستين ؟• وأيا كان خبرها ، ورأى الآخرين فيها ، ألم يكن من حقها أن تعرف أنها عبدت فى محراب كاله ، وأنها فجرت فى قلب حياة ما زالت تنبض بين الحين والحين بذكراها ؟

صــــقر المنــوفى

كان طبيعيا أن يوصف عم صقر المنـوفى بأنه السـاعى بادارة السكرتاريه ولكن جاء وقت كاد يطـلق على ادارتنا العتيدة بأنها ادارة عم صقر • وكان أقرب الى القصر والبدانة ولكنه كان جم النشاط ، بل فاق نشاطه عادة المهام المطلوبة منه • وكان جاسوسا بالسليقة ، ولحساب نفسه ، وفى أوقات تقديم قهوة الصباح كان يتطوع بالهمس مفشيا الأسرار ، أسرار الوزارة والموظفين • ولعله كان أول من بصرنى بالأسباب الحقيقية لترقية شرارة النحال من عامل تليفون الى سكرتير لسعادة وكيل الوزارة ، ثم انهمرت أنباؤه تباعا عن عباس فوزى وعدلى المؤذن وعبد الرحمن شعبان والآنسة عبدة سليمان والرجل الطيب التعيس طنطاوى اسماعيل وغيرهم • قال لى يوما الأستاذ عباس فوزى ونحن بصدد الحديث عن ارتفاع الأسعار وبؤس الموظفـين ذوى المرتبات الثابتـة فى أيام الحرب :

ــ لا أحد يأكل ما يشتهى الا عم صقر !

فأبديت الدهشة فقال :

ــ انه مغرم بالطعام الجيد •

فقلت له :

ـــ الغرام شيء والقدرة شيء آخر •

فقال بسخريته المعهودة :

ـــ كأنه فلم مباحث ، فما من فرح يقام أو مأتم الا وعنده علم به ، وسرعان ما تجده بين العاملين فى الفرح أو المأتم ، يتطوع للخدمة ليشهد فى النهاية وليمة العشاء ، كذلك تجده فى ليالى الموالد بالجوامع الكبرى ، فما من ليلة تمر إلا وهو فى وليمة ، فأى باشا يدانيه فى هذا الحظ الغذائى منعدم النظير ؟!

من ذلك جاء تألقه الدائم بالصحةوالعافية ، وغزله الرقيق باللحوم والفطائر والحلوى ، أما بقية مظاهر حياته فجرت فى مستواها الطبيعى البائس كساع مسكين ، يقيم فى حجرة أرضية بعطفة دعبس بالحسينية هو وزوجته وأبناؤه • ولكن متى رسم خطة للاثراء ؟ • اذ من المحقق أنه رسم تلك الخطة وعمل على تنفيذها بصبر ودأب ، ربما منذ عهد التحاقى بالخدمة فى أواخر عام ١٩٢٤ •

انطلق فى ذلك السبيل بادئا من بيع قطع الحلى والنحاس ورثها عن أمه فتجمع لديه مبلغ من المال راح يستثمره فى اقراض الموظفين بربح فاحش • وهو نشاط غريب بالنسبة لرجل مسلم من أهل البلد الفقراء ولكنه أقدم عليه وتمادى فيه حتى النهاية • وعرف بذلك فى أوساط الموظفين الفقراء وما أكثرهم فأقبلوا عليه بنهم وأصبح بذلك مركزا لحركة مصرفية سرية ونمت نقوده وتراكمت • وفى بحر ربع قرن من الزمان

استطاع أن يشترى البيت الذى يسكن حجرته الأرضية بألف جنيه ، ثم هدمه فأقام موضعه عمارة صغيرة مكونة من دورين ودكانين • وكان له ابنان وبنت ، أهملهم اهمال الفقراء فعمل البكرى فراشا فى وحدة صحية بالريف وانقطع كلية عن أسرته ، واشتغل الأوسط صبى قصاب ، أما البنت فقد اختفت وهى فى سن المراهقة ، قيل انها خطفت أو تاهت أو هربت ، وما لبث ابنه الأوسط أن قتل فى مشاجرة بالمذبح • وحزن عم صقر حزنا عميقا ، واعتقد أن ما أصابه فى بنته وابنه انما هو عقاب من الله على اثرائه بالربا فكف عن الاقراض ، وأدى فريضة الحج تائبا • والعجيب أن تحسن حاله المالية لم يغير مظهره ولا سلوكه العام فى الحياة • بقى فى وظيفته الحقيرة يقوم على خدمة موظفين يعتبر سيدا لهم من الناحية الاقتصادية • ولبث يسعى الى الأفراح والمآتم للاستمتاع بالولائم المجانية ، وظل يتشمم الأخبار ليفشى الأسرار عند تقديم القهوة ، فاذا خلا الى نفسه غلبه الحزن على ابنته المفقودة وابنه القتيل • وأذكر أننى كنت فى مأتم جعفر خليل عندما جاء عدلى المؤذن للتعزية ، وجالسته بعض الوقت فقال لى :

ـــ صقر المنوفى قبض علبه !

فدهشت وسألت عن السبب فقال :

ـــ الرجل جن ولا شك ••

ثم قال :

— كان فى مسكنه وحده فجاءت بنت الكواء ببدلته فاعتدى عليها وهى قاصر !

وغاب عن ذاكرتى زمنا طويلا حتى رأيته مقبلا على مجلسى بمقهى الفيشاوى حوالى عام ١٩٦٠ بعد خروجه من السجن بأشهر • وكلما سألته عن حاله أجاب باقتضاب :

— الحمد لله •

وعلمت أن زوجته توفيت وهو فى السجن وأنه يعيش وحيدا •

— سافرت لزيارة ابنى ولكنى لم أرتح فرجعت بعد أسبوع واحد !

وجعلت أواسيه وأشجعه حتى قال :

— انى راض بما حدث فهو جزاء حق ولكن لم لا يعامل الله سبحانه بالمثل أشخاصا مثل شرارة النحال أو عدلى المؤذن ؟!

صبرية الحشمة

كانت تدير بدرب طياب — حوالى ١٩٣٠ — بيتا وأربع فتيات حسان • وتأصلت بينها وبين سيد شعير صداقة متينة منذ ذلك العهد البعيد • قدمنا اليها فصرنا من المقربين الى المعلمة وتمتعنا بامتيازات غالية ، وكنا نشهد السهرات الخاصة — التى تبدأ بعد وقت التشطيب فى الدرب — داخل البيت فنسمع الغناء ونشاهد الرقص ونتمادى فى السهر حتى مطلع الفجر • وكانت فى الأربعين ، لحيمة مهيبة ، جذابة الملامح ، ذات شخصية مسيطرة تليق بالمعلمات • وكان مجرد حضورها كأنه قانون طبيعى ، يخضع له كل فى دائرته الخاصة ، لا تجرؤ على الاستهانة به جارية أو قواد أو زبون أو خادم • وأعجب بها جعفر خليل ، وعشقها شعراوى الفحام حتى اضطر سيد شعير الى أن يقول له :

— المعلمة تدير ولا تعمل ••

فسأله :

— أتعنى أن حياتها خالية من الرجال ؟

— كلا ، المعلمة تعشق ولكنها لا تعمل بالأجرة ، ولها رفيق رومى بياع نبيذ !



ولما قامت الحرب العظمى الثانية كانت بين أوائل المعلمات اللاتى استجبن للتطورات الطارئة فاستأجرت شقة كبيرة فى شارع شامبليون وخصصتها للدعارة السرية ، ووسعت دائرة نشاطها ففتحت مشربا للخمور بشارع الملكة نازلى ، واستفادت أكبر استفادة من الترفيه عن جنود الامبراطورية البريطانية • وكشفت تلك الفترة المتوترة عن مواهبها فى الادارة حتى قال لى سيد شعر :

ـ خفت عليها من التوسع أن يفلت الزمام من يدها ولكنها أمهر من الجن الأحمر !

وكان يواظب على زيارتها ويحكى لنا عن مغامراتها أول فأول ، فعرفنا كيف تاجرت فى السوق السوداء فربحت أموالا طائلة من الخمور والخردة • قال سيد شعير :

ـ انها أقدر من وزير بالرغم من أنها أمية ، لا يفوتها مليم من حسابات البيت والمشرب والتجارة ، وتعرف العملاء بالاسم ، ويا ويل من يحاول خداعها ، وهى كريمة تجود بسخاء على العاملين معها من الموزعين والقوادين والفتيات ، وكل شخص يحبها ويحترمها ويعمل لها ألف حساب •

فقلت لرضا حمادة :

ـ ليت حكومتنا تتبع مثالها فى معاملة موظفيها !

فضحك رضا حمادة وقال :

ـ هى عندى خير من صاحبنا المتدين زهران حسونة !

فقلت :

ـ بل هى عندى خير من كثيرين من الوزراء والزعماء الذين يقومون بنفس الدور مع الانجليز ولكن على حساب الوطن ! •

فقال جعفر خليل بأسى :

ـ رحم الله صديقنا خليل شعراوى الفحام فلعلها المرأة الوحيدة التى عشقها فى حياته القصيرة ••

وعند نهاية الحرب كانت قد جمعت ثروة طائلة ، وأثبتت أنها أعقل من كثيرين ، وكانت قد بلغت الخامسة والخمسين من عمرها ، فصفت أعمالها ، وأودعت فى البنك ألوفها المؤلفة ، وشيدت لنفسها فيللا فى المعادى • ولكن صاحبها الرومى قد توفى ولم يكن لها وريث ولا أهل ، فعاشت عيشة هنية هادئة ، ثم قررت تغيير حياتها جذريا ، فأدت فريضة الحج ، وأغدقت الخير على أصدقائها القدامى ، وتبرعت كثيرا للجمعيات الخيرية • وسمعت ـ عام ١٩٥٠ وهى فى الستين ـ أنها تزوجت من شاب فى الثلاثين ، موظف بمصلحة المساحة فأدركت أن فترة الهدوء قد انطوت وأن فترة من القلاقل قد بدأت • ومنذ ذلك التاريخ وحتى اليوم لم يبلغنى عنها جديد ، اذ أن زواجها أغلق بابها فى وجه سيد شعير وبالتالى انقطعت أخبارها عنى ••

طنطـاوى أسـماعيل

لعله الموظف الوحيد الذى لم أجد فيه شيئا من « مضمون » الموظف المتعارف عليه • كان وقت دخولى الخدمة رئيسا للسكرتارية العامة ، درجة خامسة ، فى الخمسين من عمره ، وظل يشغلها حتى أحيل الى المعاش عام ١٩٤٤ • ولما اطلع على ملف خدمتى الجديد سألنى :

ـ أكنت من تلاميذ الدكتور ابراهيم عقل ؟

فأجبت باعتزاز :

ـ نعم ومن تلاميذ الدكتور ماهر عبد الكريم أيضا •

فقال بصوت ذى رنة نحاسية :

ـ ماهر عبد الكريم رجل عظيم أما ابراهيم عقل فوغد كافر من ذيول المبشرين !

فقلت وأنا لا أجد حافزا للدفاع عن الرجل :

ـ يخيل الى أنه اعتزل الفكر ولم يبق من أستاذيته الا شبح ••

فقال بحدة :

ـ لم يبق منه الا مرتزق من المرتزقة !

وحضرته ـ طنطاوى اسماعيل ـ مرات فى مكتب المدير

العام فراعنى منه أنه لا يحنى ظهرا ولا يردد ملقا وأنه يحافظ على كرامته تماما ، ثم يغادر المكان مخلفا وراءه أسوأ الأثر ! • ولفت نظرى أنه كان يصحح الخطابات التى تعرض عليه للتوقيع من أخطائها اللغوية والنحوية لا المصلحية فقط • وكان يفتش على حجرات الادارة متفقدا النظام والعمل ، فلا يتسامح مع متلكىء أو مهمل أو متهم بسوء معاملة الجمهور • وبالرغم من ذلك كله لم أعثر على موظف واحد يعترف له بفضائله • كانت تصرفاته توصف عادة بالحماقة أو بجنون العظمة • وأذكر أنه قال لى قبيل حلول عيد الهجرة :

ـ أنا أول من طالب باعتبار يوم الهجرة عطلة رسمية !

ووعدنى بالاطلاع على المقالة التى دعا بها الى ذلك وقد فعل • وأذكر أيضا أنه رقى ترقية جديدة بعد أعوام تنفيذا لقرار مجلس الوزراء الخاص بالمنسيين فهنأته بذلك ولكنه قال بصوته الجهورى :

ـ لو أنصفوا لولوا المنسيين مقاليد الحكم فهم فى الواقع أشرف الموظفين !

وكان عم صقر الساعى موجودا ، وكان موضع عطف الرجل فقال له :

ـ لعل ذلك يدعو سعادتك الى تغيير رأيك فى الوفد ؟

فقال بصراحته :

ـ ليس هذا بالانصاف المنشود ولكنه مداراة قلقه لشر مستحكم ، نوع من أنصاف الحلول ، وذلكم هو شعار الوفد

الحقيقى الخفى ، الحق حق والباطل باطل ، والخير الحقيقى أن تولى من يصلح وأن تطرح فى السجون الفاسدين ، رحم الله زعماء الحزب الوطنى ، عرفوا الحياة تضحية وجهادا لا سياسة ومهادنة !

واطلع يوما على أسماء كبار الموظفين الذين نالوا رتبا وأوسمة لمناسبة من المناسبات فقال :

ـ لولا ايمانى بالله ، لولا ايمانى بأن حكمته فوق العقول ، لجننت !

وهمس عبد الرحمن شعبان مترجم الوزارة فى أذنى :

ـ ما زال يتصور أنه عاقل !

أجل • بالجنون كان يرمى دائما ، ولذلك غض عن الكثير من تصرفاته • وقد عرفت ماضيه من عباس فوزى وعم صقر وغيرهما • عين فى الوزارة بدبلوم التجارة العليا وهو فى العشرين من عمره • وفى ظرف خمس سنوات عمل مفتشا بالحسابات • وكان ذا خلق نقى طاهر ، يحمل الأمانة باخلاص ، ولا يحيد عن الحق ، فأثار موجة من الرعب فى قلوب الكتبة والمراجعين • كانوا يعملون من خلال نظام محكم تعاونى يقوم أساسه على الرشوة والهدية فانفجر الرجل فى أوساطهم كالقنبلة فاتكا بمصادر رزقهم الحقيقية • ولو كانوا يملكون الشجاعة الكافية لاغتالوه ، ولكنهم فكروا فى وسيلة تخلصهم منه • ولعبوا بامضائه لعبة ماكرة فوجد نفسه وهو لا يدرى

موضع اتهام وتعذر عليه تبرئة نفسه منه • وقدم الى مجلس تأديب فقضى بفصله من عمله •

— تصور شخصا أمينا لدرجة الجنون يجد نفسه مفصولا بتهمة خيانة الأمانة :

غادر الوزارة وهو يصرخ بأعلى صوته « أنا أمين •• أنا شريف •• أنا مظلوم •• حسبى الله ونعم الوكيل » • وعانى الألم والجوع والجنون خمس سنوات كاملة حتى انهارت أعصابه تماما ، وحتى اضطر عمه الى نقله الى مستشفى أمراض عصبية بحلوان ، فقضى فيه عاما ثم غادره بعد أن تماثل للشفاء ، ولكنه كان خسر شيئا صميميا لا يعوض • ومرض وكيل الحسابات فشعر بدنو الأجل ، فاستدعى مدير ادارة التحقيقات واعترف له بحقيقة المؤامرة التى حيكت للايقاع بطنطاوى اسماعيل • وأعيد التحقيق بصفة سرية ثم تقرر اعادة الرجل الى الخدمة ، مع الحاقه بادارة « غير مالية » تجنبا لأى أذى قد يلحق به أو بالآخرين ! • وقد عملت معه عشر سنوات فعرفته عن كثب ، عرفت ايمانه بالله الذى لا حد له ، عرفت نقاء خلقه الناصع ، كما لمست فيه وطنية تبلغ درجة التعصب الأعمى • وكان كثير الاطلاع على المراجع الدينية ، ميالا للمحافظة لدرجة أن يعاف أى حديث من فكر أو سلوك فيعده انحرافا وسقوطا • جمعنى واياه ركن بجامع الحسين فى الليلة السنوية التى كان يحييها الشيخ على محمود ، وكان يسأل من حوله :

— ترى أما زالت الفضائل فضائل أم أصبحت موضة قديمة ؟

وراح يحمل على الجبن والتملق وفساد الذمم والانحلال فيقول :

— نحن فى حاجة الى طوفان جديد لتمضى السفينة بقلة الفضلاء ليعيدوا خلق العالم من جديد !

طالما تشوقت الى معرفة المزيد عنه ، حياته الخاصة ، نشأته الأولى ، علاقاته بزوجه وأبنائه ، تصرفه حيال سائر مغريات الحياة ، ثم قنعت بما تيسر لى معرفته ، فهو انسان يتجلى بالنقاء لكنه بعيش فى مستنقع مكتظ بالجراثيم • غير أن عنفه فى الحق يدفعه أحيانا الى حافة اللاانسانية وهو لا يدرى ، فصراحته كثيرا ما تتسم بالايذاء فى غير ما ضرورة ، مما جر عليه شعورا عاما بالنفور بل والكراهية ، وكان عبد الرحمن شعبان مترجم الوزارة يشير اليه بقوله « ابن المجنونة » ، كما كان الأستاذ عباس فوزى يقول عنه متهكما :

— سيدنا طنطاوى بن الخطاب رضى الله عنه !

ورغم ذلك كله فلم يستطع أن يصد موجة « العصر » عن أن تغزو عرينه ، فذات يوم — وأنا موظف جديد — رأيت فتاة مليحة جذابة تجلس الى جانب مكتبه قدمنى اليها ثم قدمها الى قائلا :

ـــ ثريا رأفت كريمة شقيقى ••
ثم قال باحتجاج باسم :
ـــ طالبة بالمعهد العالى للتربية !
ثم وهو يهز رأسه :
ـــ العلم نور ، ولكنى لا أوافق على المرأة العاملة ، ومن ذلك فلا سلطان لى على بيت أخى لأكبر الا النصيحة ••

ولعل آخر موقف انطبع فى نفسى من طنطاوى اسماعيل كان غداة يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ ، قال لى قبل أن يجلس الى مكتبه :

ـــ ما رأيك ؟ •• ها هو زعيمك يرجع الى الوزارة فوق الدبابات البريطانية ••

وكنت أتجنب مناقشته وبخاصة وهو ثائر ، وجعل يتساءل وعيناه تبرقان :

ـــ أسمعتم عن زعامة من هذا النوع من قبل ؟ !
ثم اجتاحته موجة من الغضب فجعل يصيح كالممسوس :
ـــ الطوفان •• الطوفان •• الطوفان ••

طـــه عنـــان

ظهر فى حياتنا ونحن فى السنة الرابعة الثانوية ، كان أبوه مأمور قسم شرطة بأسيوط ثم نقل الى القاهرة مأمورا لقسم الوايلى متخذا من العباسية مقاما لأسرته • وتعرف طه عنان بأصدقائى جعفرخليل ورضا حمادة وسرور عبد الباقى من زملاء المدرسة الثانوية ، ولكن علاقته توثقت بى وبرضا حمادة فقط لاشتراك ثلاثتنا فى العقيدة الوفدية والميـــول الثقافية • وقد اشترك فى الاضراب الذى استشهد فيه زميلنا بدر الزيادى ، ومما يذكر أن أباه كان ضـــمن القـــوة التى حاصرت المدرسة ثم اقتحمتها بعد ذلك بالقوة والعنف • وناقشنا موقف والده ، وكان خجلا منه ومتألما وجعل يدافع عنه فيقول :

ـــ أبى وطنى ، مثلنا تماما ، ويؤمن بمصطفى النحاس كما آمن بسعد زغلول ، ولكنه يؤدى واجبه !
فقال رضا حمادة :
ـــ سمعنا عن ضباط مثله انضموا الى الثوار فى سنة ١٩١٩ •
فقال طه عنان مدافعا عن أبيه ما وسعه الدفاع :
ـــ كانت أيام ثورة ولا ثورة الآن ••

وكان يغلب على طبعه الجد فنفر من مزاح جعفرخليل •

وكنا نقرأ معا بعض كتب التراث وكثيرا من مؤلفات كتاب العصر من قادة الفكر الحديد ، كما كنا نناقش كل شىء بحرية وحماس • ونتطلع الى مستقبل فكرى واحد • وكان يؤمن بالكتب ويرجع اليها فى كل ما يهمه من شئون الحياة • ولما اطلع على قصة حبى لصفاء الكاتب دهش وقال :

— ولكن حالك غير طبيعية ••

فقلت باستياء :

— ولكنها واقع ••

— أنا أحب أيضا ابنة عمى ونفكر فى اعلان خطوبتنا !

واتباعا لأسلوبه فى الرجوع الى الكتب مضى بى الى دار الكتب ورحنا نقرأ معا عن كلمة « حب » فى دائرة المعارف البريطانية ، ثم قال :

— هذا هو الحب من جميع نواحيه الفسيولوجية والنفسية والاجتماعية ، ومنه ترى أن ما بك ليس حبا ولكنه جنون ••

فتمتمت بحنق :

— جنون ••

فابتسم قائلا :

— لا تغضب ، ربما احتجنا لقراءات أخرى !

ولكنا لم نواصل القراءة عن الحب ، وقرأنا كثيرا — وخاصة فى العطلة الصيفية — عن حقائق جديدة ومتنوعة ، وكل شىء كان جديدا • وتعرضنا لأزمات نفسية وعقلية وحشية • ولزلزل قلبانا زلزالا •

واقترح على اقتراحا عجيبا ونحن جالسان فى مقهى الفيشاوى قال :

— علينا أن نبدأ من العدم !

— من العدم ؟

فقال بثقة لا تتفق مع انهيارنا :

— لا سبيل الى مواجهة هذا العذاب الا بأن نبدأ من الصفر ••

ورمقته بنظرة متسائلة بالرغم من أننى أدركت ما يعنيه فقال :

— من الصفر ، ثم نستعيد قصة الحضارة من جديد معتمدين على نور العقل وحده ••

فسألته :

— وان صادفتنا أشياء لا يفصل فيها العقل بحكم ؟

فقال بحماس :

— نبدأ بالعقل باعتباره الانسان ولننظر أين يذهب بنا •

وواصلنا رحلتنا طوال العامين الأولين من حياتنا الجامعية • واعترضتنا أحداث لم تخطر لنا على بال ، فقد ألغى اسماعيل صدقى دستور ١٩٢٣ وهب الوفد لمحاربته بكل قواه الشعبية •

وكان ثمة يوم رهيب بلغ التوتر فيه مداه • احتلت مفارق الطرق بقوات الشرطة والجيش • ولم يتمكن الشعب من التجمع الذى يصلح أساسا لمظاهرة ضخمة ، فعمد الناس

من جميع الطبقات الى التجمد فى الحوارى والأزقة والشوارع الجانبية ، ومنها يندفعون بقوة هاتفين ملقين بالطــوب فى جميع الجهات ثم يتفرقون بسرعة ليعيدوا الكرة والرصاص يطاردهم • اشتركنا فى مظاهرات ذلك اليوم أنا وطه عنان ورضا حمادة • اشتركنا من أول اليوم فى التجمعات المتفرقة والانقضاضات المباغتة والتفرقات السريعة على أنغام الرصاص المتطاير • وشاهدنا المئات وهم يسقطون كما شاهدنا الجنود وهم ينقضون عليهم كالنسور فيحملونهم بعنف غير انسانى ويلقون بهم فى اللوريات ويطمسون آثار دمائهم فوق أديم الأرض بالرمل والأتربة • وقبيل المغرب خفت حدة القتال وندر ظهور التجمعات ، ولكن لم يخل الجو من هتافات متقطعة متباعدة ومن طلقات نارية قليلة ولكن مستمرة • وقررنا العودة الى بيوتنا فسرنا معا مخترقين شارع حسن الأكبر • سرنا متشابكى الأذرع من شدة الاعياء ونحن نتصبب عرقا ، وقال طه عنان وهو يتوسطنا :

ــ منذ أشهر والشعب يقاوم والضحايا يسقطون بلا حساب ولا مبالاة ••

فقال رضا حمادة :

ــ انه سفاح متعطش للدماء !

فقال طه :

ــ على أى حال فايجابية الشعب خير من المناقشات الباردة التى نسمعها فى صالون أستاذنا الدكتور ماهر عبد الكريم ••

وثقل بين أيدينا حتى سألته :

ــ هل غلبك التعب ؟

ولكنه ثقل أكثر دون أن يجيب فالتفتنا نحوه فرأينا فاه ينفث دما غزيرا • صاح حمادة :

ــ أصيب برصاصة ••

لم تكن الطلقات قد سكتت • ورأينا لافتة طبيب أسنان فحملناه اليها ونحن نرتعش من الاضطراب • وكانت العيادة خالية ولكن التمرجى أنامه على كنبة وهرع الى التليفون لطلب الاسعاف •

ولفظ طه أنفاسه الأخيرة بين أيدينا قبل أن يصل رجال الاسعاف •

عبـــاس فـــوزى

جمعت بيننا مودة صميمة منذ أول يوم دخلت فيه الخدمة • وكان يجمع مكاتبنا ركن واحد بادارة السكرتارية العامة ، أنا وعباس فوزى وكيل السكرتارية وعبد الرحمن شـــعبان مترجم الوزارة • ولما قدمه رئيسنا طنطاوى اسماعيل قائلا :

ـ الأستاذ عباس فوزى وكيل السكرتارية •

نظرت اليه باهتمام وسألته :

ـ حضرتك الكاتب المعروف ؟

فأجاب بالايجاب فشددت على يده بحماس ، والموظفون يرمقوننا بفتور وقرف • وقلت له :

ـ طالما انتفعنا بكتبك عن التراث •

فقال :

ـ ولكن الجامعة لا تعترف الا بالشهادات ••

ـ ولكن ثمة درجة من العلم تتخطى أى شهادة !

فقال بحنق :

ـ أستاذك ابراهيم عقل لا يؤمن بذلك ••

على أى حال اعتبرته جوهرة فى عالمى الجديد ، زاملته فى العمل ، والتقيت به فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم وسالم

جبر ثم فى صالون جاد أبو العلا فى زمان متأخر • وعجبت كيف أنه فى الدرجة السادسة فقط بالرغم من شهرته وبلوغه الخامسة والثلاثين من العمر ، ثم تبين لى أن زملاءه يعتبرونه مغتصبا للدرجة باسم الخزعبلات التى يؤلفها • والموظف القح لا يحترم عادة الا الموظف « الحقـــيقى » الخبـــير بالادارة واللوائح ، أما تأليف الكتب فيعد عندهم نوعا من العربدة التى لا تليق بالمحترمين من الرجال • ويحكون حكاية وثبته الى الدرجة السادسة فيقولون انه كان كاتبا بالأرشيف كما ينبغى له ، فحتى الابتدائية لم يحصل عليها ، ولكنه دأب ـ كلما تولى الوزارة وزير جديد ـ أن يحمل اليه مجموعة من مؤلفاته مصحوبة باهداء شعرى ، وكان الوزراء يتقبلون الهدية شاكرين ومن ثم يرجع الى الأرشيف ويسدل الســـتار على الـــدراما المتكررة ، حتى تولى الوزارة رجل يحب الأدب فأعجب به ورقاه الى الدرجة السابعة ، ثم ـ بعد عامين الى السادسة مع نقله وكيلا للسكرتارية ، هكذا فرض الرجل عليهم • وكان الأستاذ عباس فوزى على علم بما يقال ، وكان يبادلهم احتقارا باحتقار ، وكثيرا ما قامت بينه وبينهم معارك كلامية حتى يفصل بينهم أهل الخير •

وكان يعتبر الموظف حشرة من الحشرات السامة ، وكان يعرف الانسان فيقول « الانسان موظف ناطق ! » •

غير أن رجلا فاضلا مثل طنطاوى اسماعيل قال لى مرة :

ـ احذر ذلك الرجل ، انه ذو علم ولكنه بلا خلق •

المسألة أنه كان مثقلا بالعيال والفقر وكان يكافح بكل سبيل لاسعاد نفسه وأسرته • ولم أعرف رجلا مثله ينضح بالمرارة ، وكان يترجم مرارته الى سخريات لاذعة لا ترحم كبيرا ولا صغيرا ، موظفا أو مفكرا أو أديبا • سخر من أخلاق الموظفين رغم تشبعه بها حتى قمة رأسه ، ويهون من شأن الناجحين والمفكرين رغم قصوره عن بلوغ ما حققوه حتى فى ميدانه ، ويحتفظ دائما بمدخر لا ينفد من المعلومات التى تشكك فى مواهبهم أو تزرى بسلوكهم الشخصى • أما قيمته الحقيقية فكانت مركزة فى تراث اللغة ، ولا أغالى اذا قلت انه كان يحفظه كله شعرا ونثرا عن ظهر قلب • قال لى يوما :

— شد ما يبهركم الأدب الغربى حتى تظنونه كل شىء ، أما أدبكم العربى فلا تعرفون منه شيئا ، انى أتحداك ، اذكر لى ما شئت من مختار أشعارك الغربية وسأعطيك ما يقابلها من تراثنا •

وجعلت أردد له ما حضرنى من معانى الشعر والنثر فكان يعطينى المقابل العربى بما يقارب الاعجاز • وكان يلاحقنا — اذا تكلمنا — بتصحيح نطق الكلمات ، وكان يقول :

— لا يجوز أن تطبع كلماتنا بدون تشكيل ••

وأذكر أنه مرض يوما بالكلى فذهبت مصطحبا الأستاذ عبد الرحمن شعبان المترجم لنعوده ، فوجدناه راقدا ملفوفا

ببطانية لا يبدو منها الا رأسه • فجلسنا قرب فراشه وسألته :

— كيف الحال الكلى يا أستاذ •

ونطقتها مكسورة الكاف كالمألوف فما كان منه الا أن صحح النطق قائلا بصوت لا يكاد يسمع من الضعف :

— الكلى •

رافعا الكاف • وعدنا والمترجم يقول لى :

— اذا مات هذا الرجل فسوف يصحح النطق للملاك الذى سيحاسبه !

وتركز اهتمامه فى تراث العربية فلم نعرف له هواية أخرى ، فهو لا يتذوق أى فن آخر حتى الغناء ، ولا يكاد يعرف شيئا ذا بال من الثقافة الحديثة بوجه عام ، ولا يهتم بالسياسة ، ولا يفرق بين حزب وآخر ، ولا يحترم الا الوزير القائم بالوزارة ، ولا يؤمن بقيمة من القيم ولا دين من الأديان ، ولم يحب باخلاص الا نفسه وأسرته واللغة العربية • وكان مكتبه بالوزارة ملتقى لكثيرين من الشعراء والكتاب والصحفيين والزجالين من مختلف الأجيال ، ولعل كثيرين منهم كانوا يستعينون به فى مراجعة نصوصهم من الناحية اللغوية والنحوية نظير مبالغ بسيطة • وكان دائما يحسن الترحيب بهم فيغدق عليهم أعذب ألحان المديح حتى اذا ذهبوا انهال عليهم بالحجارة !

— أرأيتم ذلك الرجل ؟ .. انه لا يتملق وهو فى المدينة !

— مسكين ذلك الزجال .. طلق زوجته لوقوعه فى غرام ابن لها من زوج آخر !

— أما هذا فلعله الشاعر المعاصر الوحيد الذى فاق فى لواطه الشاعر الراحل الكبير فلان !

— هذا الكاتب ذو قلب كبير حقا .. لقد أحب جميع الأحزاب ، ولا يحلو له حب حزب الا وهو فى الحكم !

وزاره مرة انجليزى عجوز ، لبث فى مصر بعد احالته على المعاش ، وكان يتقن العربية اتقانه للانجليزية ، ولما ذهب الرجل قال :

— انى معجب بالأخلاق الانجليزية ، فثمة فرق هائل بين لوطى انجليزى ولوطى مصرى ، اللوطى الانجليزى يحمل لواطه معه الى أقصى الأرض فلا يمنعه ذلك من خدمة الامبراطورية حتى الموت ، أما اللوطى المصرى فلا يعرف لنفسه مبدأ أو عقيدة ! .

وكما لم يرحم أحدا فلم يرحمه أحد . كان يزعم أن والده كان مهندسا فقالوا انه كان ترابيا ، وأن أمه كانت غسالة ، ورموه كذلك بالشذوذ الجنسى .

لم يرحم أحداً الا الوزير الذى عطف عليه أو الذى — على حد تعبيره — اكتشفه ، فكان يقول عنه :

— كان رجلا أديبا وشهما ومنصفا رغم أنه كان وزيرا !

ولكنه كان يكبح جماح عدوانه ازاء أصحاب النفوذ ، من هم فى الوزارة ومن هم خارجها ، فلا يتدخل فى مناقشة حزبية ، أو يتعرض بكلمة لرجل من رجال السراى ولو كان طاهيا ، وفى أثناء الحرب تظاهر بأنه من أنصار الحلفاء ، فلما كانت موقعة دنكرك وظن كثيرون أن الحرب موشكة على النهاية بانتصار الألمان سمعته يترنم بقول بشار :

بعثنا لهم موت الفجاءة اننا
بنو الموت خفاق علينا سبائبه
فراحوا فريق فى الاسار ومثله
قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه

ولما دارت الدائرة على الألمان فى موقعة العلمين استشهدت بدورى بشعر بشار فأدرك مكرى ومن فوره قال :

— لا رحم الله بشارا ، كان نازيا لوطيا !

وغداة ٤ فبراير ١٩٤٢ ثار أذيال الأحزاب من الموظفين فاتهموا الوفد بالخيانة ، أما الوفديون فقد فرحوا وطربوا ، وراح عم صقر الساعى يرقص فى الادارة ، فخاف عباس فوزى أن يفسر صمته بأنه موقف غير ودى من الوفد ، فانتهز فرصة غضب طنطاوى اسماعيل وهتافه « الطوفان .. الطوفان .. الطوفان .. » وقال برزانة :

— قولوا فيما حدث ليلة أمس ما شئتم ولكن من الانصاف أن نعترف لمصطفى النحاس بأنه أنقذ الوطن فى هذه المرحلة الحرجة من حياة الوطن !

ومن حسن حظه أن كان الوزير الوفدى مغرما بالأدب فرقاه الى الدرجة الخامسة وعينه رئيسا للسكرتارية عقب احالة طنطاوى اسماعيل الى المعاش • على أن كتبه لم تلق من الرواج ما كان يطمح اليه لمنافسة الأساتذة الجامعيين له فى ميدانه وتفوقهم عليه بمنهجهم العلمى الحديث • وزاد من شجاه أن أحد تلاميذه استغل معرفته بالتراث فى تأليف كتب دينية عن النبى والقرآن فربح من ذلك أموالا خيالية فكاد الرجل أن يجن • وراح يقول :

ـــ على أيامنا كان الالحاد هو الموضة فولينا وجهة أخرى !

ثم هز رأسه فى أسى وتساءل :

ـــ كيف فاتنى ذلك الباب الذهبى ؟!

ثم سألنى حانقا :

ـــ أتعلم ما هى الثروة الحقيقية فى بلاد العرب ؟

ثم أجاب :

ـــ ليست البترول ولكنها السيرة النبوية والقرآن •

فقال له الأستاذ عبد الرحمن شعبان المترجم :

ـــ ما رأيك فى أن نترجم معا بعض الكتب الغربية التى أنصفت الرسول ؟

فرحب بالفكرة ، ونفذاها ، بالرغم من الحادهما الكامل ، فدرت عليهما ربحا يعتبر أول ربح ذى وزن ربحه فى حياته •

وانطلق بعد ذلك يكتب سير الأنبياء ، فتحسنت أحواله وواجه بثقة ارتفاع الأسعار الذى أعقب الحرب ، حتى قال لى يوما :

ـــ ليت الله أرسل أضعاف أضعاف من أرسل من الأنبياء والرسل .

ومضى أبناؤه يتخرجون فى الجامعة ويتوظفون ، فقرر فى عام ١٩٥٠ القيام بأول اجازة صيفية فى حياته • أجل ، لم يكن يطلب اجازة أبدا ، ولبث يعمل عاما بعد عام بصفة متواصلة حتى سألته :

ـــ لم لا تقوم فى اجازة لتنعم بقدر من الراحة ؟

فضحك وقال :

ـــ يا لك من طيب القلب ، أنت لا تدرى شيئا عمن يطمعون فى وظيفتى ، انهم يلقوننى بالأحضان على حين يوارون خناجرهم وراء ظهورهم ، فاذا غبت شهرا سعوا سعيهم ودسوا دسائسهم ليستولوا على الوظيفة ، اننا نعيش فى غابة من الوحوش ولكنهم أحط من الوحوش وأقذر ••

ولم أفهم منطقه وعجبت له • على أى حال وثق عام ١٩٥٠ بنفسه واطمأن الى دخله من كتبه فقرر أن يبر نفسه باجازة ، بل سافر بحرمه وكريمته الى الاسكندرية • كان يرى الاسكندرية لأول مرة فى حياته ، ولكنه وجد نفسه كالتائه الشريد اذ لم يتعود أبدا معاملة الفراغ • كان يومه مستغرقا دائما بالعمل فى الوزارة ، فى البيت ، فى صالونات الأدب ،

ولكنه لم يعرف مقهى أو سينما أو مسرحا فضلا عن الاسكندرية • لذلك ضاق بالمصيف ، وفزعت حرمه من الزحام ، فقررا العودة بعد اسبوع واحد ، وبالرغم من توسلات ابنتهما الحارة • ولما قامت ثورة يوليو لم تكد تؤثر فيه شيئا ، فلا حزن على العالم المولى ولا سر للعالم الصاعد ، وضاعف نشاطه فى التأليف الدينى حتى حاز ثروة كبيرة بكل معنى الكلمة • وأحيل الى المعاش عام ١٩٥٩ فتفرغ لعمله أكثر ، وشيد عمارة فى عابدين أقام لنفسه فوق سطحها فيلا ، ولكنه ما زال حتى اليوم متمردا ساخرا ، وكلما زرته أتحفنى بالجديد من سخرياته وشكاياته • قال :

— تصور أننى لم أنتخب حتى الآن فى المجمع اللغوى !•• كأن أعضاءه الخواجات أفقه فى اللغة منى ! ، والمجلس الأعلى للآداب لا يوجد عباس فوزى ضمن أعضائه ! •• هل حتم ألا يدخله الا العوام ؟ !

ولما لاحظ همى وغمى فى الأيام التى أعقبت هزيمة يونية قال باسما :

— شاب شعرك ولم تتعلم الحكمة بعد !

ثم تساءل بسخرية :

— هل ثمة فارق حقا بين أن يحكمك الانجليز أو اليهود أو المصريون ؟ !

عدلى المؤذن

عندما التحقت بالجامعة كان موظفا بها • وكنت ألتقى به كثيرا فى مكتبة الجامعة • كما كان يحضر معنا محاضرات مسيو كوريه فى الفلسفة تحصيلا لبعض فوائد رآها ضرورية فى تحضير رسالة الماجستير • وكنا ندعوه « الكاتب المصرى » للشبه العجيب الذى بينه وبين وجه التمثال المعروف بالكاتب ، غير أنه كان طويلا عريض الكتفين ذا وجه أسمر غامق تتحرك فيه حركة متحدية براقة عينا صقر يشعان ذكاء ودهاء ، التقينا مرة فى حديقة الأورمان ونحن سائران الى الكلية فتصافحنا وأخذنا فى الحديث • قال :

— سأقدم رسالة الماجستير فى أكتوبر القادم ولكنى أفكر منذ الآن فى الخطوة التالية ••

فسألته :

— الدكتوراه ؟

— كلا ، هل لك فكرة عما يمكن أن يروج من الكتب الفلسفية ؟

— لا أعتقد أن الكتب الفلسفية توضع للرواج ••

— ولكن اذا أصدرنا سلسلة من الكتب عن ضحايا

الفكر الحر فى الفلسفة والتصوف ألا نسهم بذلك فى الدفاع عن الحرية المغتالة فى هذا العهد ؟

فقلت بحماس :

ــ فكرة بديعة ••

ــ وناجحة ، أليس كذلك ؟

ــ بكل توكيد ••

ولكنه حصل على الماجستير ولم ينفذ فكرته ، ولم ينشر من الكتب الا تحقيقا لتهافت الفلاسفة وتحقيقا آخر لتهافت التهافت • وكان زميلى فى الكلية عجلان ثابت هو الذى أطلعنى على جانب من ماضيه المجهول ، قال :

ــ انه يسكن معنا فى حى السيدة ، وكان أبوه سائق ترام ، وهو يعيش اليوم مع أمه وشقيقته ••

فقلت :

ــ ان مظهره المهيب الرزين يقطع بأنه من سلالة حكام !

فضحك عجلان ثابت وقال :

ــ توظف بالابتدائية ثم درس وهو موظف حتى بلغ ما بلغه من العلم ••

ثم همس :

ــ ويبدو أن شقيقته بنت لغوب عفريتة ولذلك فاتها سن الزواج ولم تتزوج !

ولم يكن يخلو من جانب مزاح ففى أحد احتفالات آخر السنة بالكلية تطوع لتقليد بعض الأساتذة ، ونجح فى تقليد الدكتور ابراهيم عقل نجاحا مثيرا ،

فما كاد يتكلم عن المثل العليا حتى دوت القاعة بالتصفيق الشديد • ومع ذلك كانت علاقته بالدكتور ابراهيم عقل وثيقة ، ولما ولى الدكتور منصبه الخطير نتيجة لتقربه من السراى اعتمد فى ادارته على عدلى المؤذن ، وهو الذى قدمه الى أحد الوزراء قبيل الحرب العظمى الثانية فنقله الوزير الى وزارته مفسحا لطموحه مجالا جديدا أحفل بالفرص من ادارة الجامعة • هكذا وفد الى وزارتنا كرجل خطير من رجال الوزير ، وزرته مهنئا ومستبشرا بقدومه خيرا ، ولكنى وجدت فيه شخصا جديدا ، شخصا اداريا خطيرا مقطوع الصلة تقريبا بالرجل الذى كان يتلمس طريقه بمشقة بين مسالك الفلسفة •• وتجلت مواهبه الكامنة فى خدمة الوزير والوزارة ، وكان ــ والحق يقال ــ حاد الذكاء ذا مقدرة ادارية فذة ، وكان بارد الأعصاب لدرجة لا تصدق ولم تعهد عادة بين المصريين ، ومنذ أول يوم شعر شرارة النحال بخطورته وعمل له ألف حساب وحساب • وخيل الى الأستاذ عباس فوزى أنه طرأ على الوزارة موظف خطير مثقف لأول مرة ، وأنه يحسن به أن يهدى اليه مؤلفاته ، وفعل ، وقال له وهو يهديها اليه وبحضورى اذ كنت أنا الذى قمت بالتعارف بينهما :

ــ ليس من عادتى أن أهدى كتبى الى أحد ، ولكن الكتب لا تؤلف الا لتهدى الى أمثالك !

فقال عدلى المؤذن ببروده النادر :

ـ أعترف لك بأنى اطلعت عليها ٠٠

فشاع الفرح فى وجه عباس فواصل الآخر قائلا :

ـ وأعترف لك بأنى وجدتها سطحية لم تكد تضيف الى الأصل الا قليلا ٠٠

فاصفر وجه عباس فوزى غير أنه قال متظاهرا بالمرح :

ـ لا تحكم بعقلك يا أستاذ ، نحن نكتب للبسطاء لنعلمهم ، أما الفلاسفة فلا سبيل لنا اليهم ٠٠

وعدنا الى الادارة والرجل يقول لى فى الممشى :

ـ لا تخبر بما سمعت أحدا من الرعاع ٠٠

فقلت له برثاء خفى :

ـ طبعا ٠٠

فقال مستردا طبعه الساخر :

ـ بدأت الفلسفة بابن رشد وانتهت بابن كلب !

وفى مدة وجيزة أحاط عدلى المؤذن بشئون الوزارة والموظفين ، وكان يشغل وظيفة رئيس المكتب الاستشارى ، فاتصل بحكم عمله بجميع فروع الوزارة ٠ وأثبت فى العمل طاقة خارقة ، واستحق بعمله الثقة كل الثقة دون انزلاق الى سراديب الحزبية ، مع الاحتفاظ لشخصيته بالاحترام ، ومع عدم الحيد الى ما يمس الكرامة الا عند الضرورة القصوى فرفع الوصولية الى أرفع مراتبها ٠ وكان فى أعماقه ميالا للوفد وقيمه الشعبية والديموقراطية والاستقلالية ، ولكنه كبتها فى الأعماق ، وتغلب عليها

بقوة أعصابه الباردة ٠ ولم يعرف عنه أنه صنع خيرا فى حياته ، ولم يتورع عن ايذاء شخص طالما وسعه ذلك ، وكان بلا شك يجد سعادة خاصة فى الشر والتحدى والايقاع بالخصوم بل وبالأصدقاء ، ولم يكن يهمه أن يكون محبوبا ، وخيل الى كثيرا أنه يعمل بشغف على أن يكون موضع النقمة والبغض والحسد ٠ وهو يختلف فى ذلك عن شرارة النحال الذى آثر بعض الأذناب بالعطف ، والذى حرص دائما على معسول الكلام حتى وان دس فيه السم ، والذى سعى الى نيل الثقة ولو بالكذب والنفاق ٠ لذلك كره الموظفون عدلى كابليس ، وتهامسوا بنقاط ضعفه كأصله وسيرة أخته ، ومنهم من فسر عزوبيته بشذوذ جنسى يخفيه بصرامته وعنجهيته ، ولذلك فان الموظف الوحيد الذى ساعده كان شابا جميلا منحلا ٠ وطالما ساءلت نفسى حائرا كيف أمكنه المحافظة على كرامته ووظيفته بالرغم من تتابع الوزراء والأحزاب عليه ؟ ٠ وبالبحث والتحرى ، ولمعرفتى الوثيقة به ، علمت أنه كان يبسط حمايته ـ وقت اقبال الدنيا عليه ـ على عدد محدود من موظفى الأحزاب المختلفة ، حتى اذا أقبلت دنيا الأحزاب على أحدهم رد الجميل اليه فزكاه عند وزيره ، بذلك احتفظ بمكانته فى جميع العهود معللا فوزه بكفاءته الشخصية وحدها ، وظل يترقى من درجة الى درجة حتى عين مديرا عاما قبل ثورة يوليو ٠ ورغم صلتنا القديمة وزمالتنا العلمية لم يتورع عن

التضحية بى فى أول فرصة سنحت · كان ذلك عندما رشحتنى لجنة شئون الموظفين لدرجة خالية بعد مقارنات طويلة بينى وبين منافسى الذى كان كاتبا بالسجلات · ورفعت اللجنة قرارها فوقعه الوزير وغادرت الوزارة مترقبا متلقيا التهانى ، ولما رجعت الى الوزارة صباحا فوجئت بالغاء القرار وترقية المنافس بدلا منى · كدت أفقد عقلى ، وبالبحث علمت أن موظفا كبيرا بديوان جلالة الملك اتصل مساء أمس بالأستاذ عدلى المؤذن موصيا بمنافسى فما كان منه الا أن سارع الى مقابلة الوزير ـ والعهد كان ملكيا ـ وأخبره بالتوصية ، وفى الحال تمزق قرار ترقيتى وتحرر قرار جديد بالترقية الجديدة · وذهبت الى عدلى المؤذن منفعلا وناقشته فيما سمعت من أنباء ، ولكنه ظل طيلة الوقت صامتا باردا حتى تعبت وبخت ، ثم قال لى بهدوء :

ـ أعدوا بيان الميزانية الجديدة للنشر فى الصحف !

وعرفت أمورا أكثر من وكيل المستخدمين الذى كان لى صديقا كما كان له عدوا ، قال لى :

ـ ما حصل يعتبر مخالفة صريحة للقانون ، فالقرار الوزارى لا يجوز تغييره الا بقرار وزارى مثله ، وقد اطلعت بنفسى على قرار ترقيتك فمتى صدر قرار آخر بالغاء الترقية ؟ !

فسألته :

ـ ألا تستطيع أن تثير المسألة رسميا ؟

فقال ضاحكا :

ـ هيهات أن يستطيع ذلك الا السفير البريطانى نفسه !

فسألته بدهشة :

ـ ولكن ما علاقة الموظف الآخر وهو على قد حاله مثلى تماما برجل السراى الخطير ؟

فقال ضاحكا :

ـ صل وسلم على سيدنا لوط !

ومنذ ذلك الموقف فترت علاقتى به حتى كادت تقتصر على العمل الرسمى · قبل ذلك كنا نلتقى صباحا فى ميدان سليمان باشا ، نسير كزملاء رغم فارق الدرجة ، فنتناول فطورنا فى الأميركين ، ثم نمضى فى طريق الوزارة معلقين على الأحداث والمارة والأشياء ، ويبدو فى تلك الفترة لطيفا ودودا ضاحكا محبا للمزاح حتى ليقص على آخر ما سمع من النكات السياسية عن الملك وحاشيته وأسرته ، أو يدعونى الى زيارته فى مسكنه الجديد بالمعادى الذى انتقل اليه بعد صعوده السريع ، ثم قد يستدعينى الى مكتبه بعد ذلك بربع ساعة فيطالعنى بوجه جديد ، وجه صارم بارد مجرد ، يأمر ويكلف وينذر بلا رحمة ولا ذوق ! · وأغادره وأنا أضرب كفا على كف ، ومرة فضفضت نفسى فبحت بما يكربنى للأستاذ عباس فوزى فقال لى :

ـ عنده انقسام شخصية ابن القديمة ، نحن موعودون فى هذه الوزارة بكافة أنواع الشذوذ ·

ولما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ تهيأت له فرصة للتخلص من شرارة النحال أكبر منافس له على وكالة الوزارة · وأشهد أنه كان وراء بعض العرائض التى قدم بها شرارة الى لجنة التطهير ، ولكن الرجل نجا بأعجوبة ورقى وكيلا للوزارة فتلقى عدلى المؤذن أكبر ضربة وجهت اليه فى حياته · وسرعان ما وجد نفسه غريبا بين موظفين جدد لم يعرف لهم أصلا ولا فصلا · اختفى أغلب معاونيه فى التطهير واستقبل حياة جديدة بكل معنى الكلمة · ورجع يخطب ودى كما كان يفعل فى حديقة الأورمان ، ورجعنا نتلاقى فى ميدان سليمان باشا وراح يقول ساخرا :

ـ لقد سقطت الوزارة فى أيدى جماعة من الغلمان !

أو يقول :

ـ ما قيمة أن تعرف القوانين والأصول الادارية ؟· ممكن أن تفعل الآن أى شىء كما تشاء وكيفما تشاء باسم الثورة !

وشعرت لأول مرة فى حياتى بأن موجة من العدالة تجتاح العفونة المتأصلة بلا هوادة فتمنيت أن تواصل سيرها بلا تردد ولا اعوجاج وفى نقاء وطهر الى الأبد· وحاول الرجل التسلل الى القيادات الجديدة ولكنه لم يفلح · وما لبث أن أصيب بسرطان الدم فاعتكف فى بيته فترة ثم وافاه الأجل حوالى عام ١٩٥٥ · ولا أنسى ساعة انتشار خبر وفاته فى الوزارة ، فقد خرج

الموظفون على تقاليدنا المرعية ، وسمعت العشرات وهم يقولون بأصوات مرتفعة شامتة :

ـ الله يجحمه !

ـ فى ألف داهية !

وكانت جنازته أفقر جنازة شهدتها ، شيعها عشرة أنفار ، قريب واحد وتسعة من زملائه القدامى بالجامعة ، وحضرها رجل ذو شأن واحد هو الدكتور ابراهيم عقل فى عهد دروشته التى دأركته بعد وفاة ابنيه وقبيل وفاته · وعقب وفاة عدلى المؤذن بيوم واحد انتحرت شقيقته العانس ·

عبد الرحمن شعبان

شخصية لا تنسى · عندما جلست الى مكتبى لأول مرة فى ادارة السكرتارية لفت نظرى بشدة كهربية · عملاق فى طول العقاد وضخامة زيور باشا ، أنيق الملبس فخم المنظر ، تخاله وزيرا رجعيا أو مدير بنك ·

ـ حضرته أستاذنا الكبير عبد الرحمن شعبان مترجم الوزارة ·

ليس هذا فحسب ولكنى عرفت أيضا مع الأيام أن مرتبه عشرون جنيها لا غير ! · بدا لى أول يوم منطويا متجهما كحصن فقدرت المتاعب فى زمالته التى فرضتها الأقدار على ، ولكنه كان يفتح قلبه بيسر وبسرعة ، وسرعان ما تنفجر قهقهاته كالقنابل ويحتقن وجهه المستدير الريان بالدم ويتجلى فى براءة الأطفال · وعند الحديث تنهمر منه المعلومات كالمطر الغزير ، فهو يحب الموضوعات التى تطرق مدخراته من المعارف بقدر ما يضيق بالموضوعات التى يجهلها فتضطره الى التزام السمع وهو أبغض الأشياء الى نفسه · يحب الكلام لحد العبادة ، ولديه معلومات لا حصر لها عن أشياء لا حصر لها السيارات والأثاث والزيوت والأمراض والساسة والأفلام والبلاد والنكت والتاريخ والجغرافيا والفلك والقانون والمصارف

والدعارة · طفل كبير فى الخامسة والثلاثين ، خفيف الروح ، دعاباته أزهار منورة ، ونوادره وشى منمنم ، أما غضبه فآه لو انفجر غضبه ، وما أسهل أن يثور غضبه · لشىء ولغير ما شىء ينفجر غضبه ، وعند ذلك تزلزل الزلازل وتنفجر البراكين وتنطلق الأعاصير ، فاذا لم يقابل بتحد هدأ وسكن وتراخى وتراجع فاعتذر وقدم السيجارة أو أمر بالقهوة · تناقش مرة مع أحد الموظفين فعانده الرجل حتى أثاره ، وأراد أن يفحمه فاستشهد بنادرة من التاريخ الاسلامى ـ وعبد الرحمن يجهل التراث جهلا تاما ـ فقال :

ـ دخل بدوى على عبد الملك بن مروان فقال ··

ولكن عبد الرحمن شعبان انتتر قائما كعمود السوارى وصاح وهو ينتفض غضبا :

ـ عبد الملك بن مروان ! ، من هو عبد الملك بن مروان ؟! ·· تستشهد لى بحيوان يا حيوان ، ملعون أبوك أنت وعبد الملك بن مروان ··

وهجم عليه كالوحش ففر الرجل من الادارة كالنحلة · ولكنه لم يقدم فيه شكوى ، حتى طنطاوى اسماعيل رئيس السكرتارية كان يتجاهل ذلك التمرد الصارخ على أصول الوظيفة ، وكان يقول :

ـ انه أحمق ولكنه أنظف معدن فى هذه الوزارة ·

وأدركت أن معاندته غير مأمونة ، وأن الخوض معه فى موضوع تعرفه ويجهله مغامرة جنونية · ولعل



عبــاس فوزى كان أول من عرف كيف يداريه بمكره ولباقته ، ومع أن عبد الرحمن كان يحتقره فى باطنه الا أنه عامــله باحترام ومــودة · وكان أبوه وزيرا للحربية ، أرسله الى فرنسا ـ بالبكالوريا ـ ليدرس الطب فمضى يتنقــل ما بين فرنســا وانجلترا عشرة أعــوام دون جدوى ، مكث عاما أو عامين فى كليــة الطب ، وعامين آخرين فى كلية العلوم ، كذلك الحقوق والآداب ، ولكنه لم يثابر ولم يحصل على شــهادة · ولما توفى والده رجع الى مصر فى الثــلاثين ، يحمــل فى رأســه دائرة معــارف مضطربة غير متكاملة وخبرة عميقــة بالانجليزية والفرنســية والنســاء والقمــار والحانات والمسارح والسينما وبيوت الدعارة ، كما رجع بزوجة لبنانية تقاربه فى العمر أو تمــاثله · ولم يترك أبوه له مالا ، وكانت أخته الكبرى متزوجة من ســفير خارج القطــر ، فعمــل مترجما فى الســفارة الفرنسية ·

ـ لم أعمر فى الوظيفــة أكثر من عام ثم اضطررت الى تركها بسبب لكمة وجهتها الى الملحق الصحفى !

واشتغل بالاذاعة ـ قبل تمصيرها ـ ثم اضطر الى الاستقالة بعد مشاجرة عنيفة ، وعمل فى جريدة المقطم حتى وجه الى صاحبها كلمة نابية كاد يقدم من أجلها للمحاكمة فتركها ، وأخيرا التحق بخدمة الوزارة بعد نجاحه فى امتحان أعلن عنه فى الصحف · وكان اعتاد الحياة الدسمة المضيئة على الطــريقة الأوروبية فلم

يف مرتبه بتحقيق مآربه ، فاستغل قدراته فى اللغتين فى الترجمة للصحف ودور النشر وروايات الجيب ، مكرسا جهده الضخم لرفاهية الحياة ولابنة وحيدة كان يعبدها عبادة . وأقام فى شقة فى شارع فؤاد الأول ، وأحاط جوه العائلى بصداقات أوروبية لأسر فرنسية وايطالية وأحيانا انجليزية ، ليكفل لنفسه البيئة التى يعشقها بكل مشتهياتها من أثاث جميل ومأكل طيب وشراب ممتع وصحبة راقية وأحاديث طلية رفيعة . وكان يقول بوجد :

– أوروبا روح الدنيا وأهلها ملائكة الخلق أما من عداهم فهم حيوانات أو حشرات ..

ومرة قال لى :

– أصاب أحيانا بذهول مرضى عندما أنظر حولى فأجد نفسى غريبا وسط نفر من الموظفين التعساء الجهلاء الخانعين المطيعين المتملقين المنافقين ، الله يرحمك يا أبى ، لم بددت مالك فى القمار ؟ !

ولم يكن يوجد ما يدل على اسلامه الا شهادة الميلاد ، ولا يعرف بعد ذلك من دينه الا اسم « محمد »، ولم ألمس فيه اهتماما بقيمة من القيم وان كان شجاعا كريما محافظا على كرامته ، وكان مدخنا مجنونا وسكيرا عربيدا ومقامرا متهورا وأكولا متوحشا . وكنا نسير معا عادة عقب انصرافنا من الوزارة حتى محطة الترام الواقعة تحت مسكنه ، فلا يكف عن الكلام دقيقة واحدة وأتابعه أنا بالسمع والبصر ،

وكان ينتقد كل ما تقع عليه عيناه ، ويقارنه بنظيره فى فرنسا أو انجلترا :

– أتعجبك هذه المحال والدكاكين ؟ . انها زنزانات سوقية .

– انظر الى قذارة الشوارع فى قلب المدينة ! ، سيأتى يوم يطالب فيه الذباب بحقوق المواطن !

– ما رأيك فى هؤلاء الغلمان الحفاة فى شارع سليمان باشا ؟ !

– انظر الى هذا المنظر الفريد ، الكارو والجمل والسيارة فى قافلة واحدة وتقولون الاستقلال التام أو الموت الزؤام ؟ !

– أيعجبك حقا ذلك المقرىء المدعو على محمود ؟ . رجل ضرير منفر المنظر يزعق كالأبله ، قارن ذلك بقداس كاثوليكى تسبح فى جوه الموسيقى الخالدة !

– صدقنى ان رجال السياسة الذين تعجب بهم لا يصلحون موظفين مبتدئين فى سفارة أجنبية ..

– وملايين الفلاحين القذرين بأى منطق يستحقون الحياة ؟ .. لماذا لا تستغنون عنهم بالآلات الزراعية الحديثة ؟ !

– ان خير ما تمخضت عنه الحضارة المصرية هو الحشيش ومع ذلك فما أقبحه بالمقارنة بالويسكى !

– هل حقا تعجب بهؤلاء الكتاب والأدباء ؟ .. صدقنى أنهم أميون على المستوى العالمى ..

– اسمح لى أبول على جميع من تحبهم من زعماء وأدباء ومطربين ..

– أتعرف ما هى أكبر نعمة أغدقت علينا ؟ .. هى الاستعمار الأوروبى ، وسوف تحتفل الأجيال القادمة بذكراه كما تحتفلون بمولد النبى ..

– لا يغيظنى شىء كما يغيظنى ضربكم الأمثال بعدالة عمر ودهاء معاوية وعسكرية خالد ، عمر شحاذ ومعاوية دجال وخالد فتوة درجة ثالثة لم يجد من يؤدبه ..

– المرأة المصرية هى المخلوق الوحيد الذى يستحق التقدير ، فهى لبؤة ، ويمكنها اذا منحت مزيدا من الحرية اسعاد هذا الشعب الذى يستحق الابادة !

– أليس الأفضل للانسانية أن ينتشر الأوروبيون فى الأرض وأن يبيدوا من عداهم من بنى آدم ؟ !

لم يكن يقرر ذلك عن حقد ولا عن رأى بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، ولكن عن انفعال ، ووسط ضحكات بريئة ، ولو صادف بعد ذلك شخصا يتعصب لأوروبا لانقلب بنفس الحماس مدافعا عن الشرق ، فهو معارض بطبعه ، ان قلت حلوا قال مرا وان قلت مرا قال حلوا ، مغتنما الفرص على الحالين للكلام . ولم أجد عنده أصالة فى عواطفه الا ما تعلق بكريمته ، فهو يعبدها عبادة ، يروى أحداثها التافهة كأنها ملاحم ويستشهد بكلامها الفارغ كأنه جوامع الحكم ، وينقل الينا آراءها – التى ينسبها اليها كذبا وادعاء

– فيما مر بالوطن من أحداث وحروب ، منوها بذكائها المبكر الذى يكبر سنها بعشرات السنين . وكنت دائما أخاف أن يصطدم يوما بشخص قوى ومؤذ مثل عدلى المؤذن أو شرارة النحال ولكن ضخامته أسبغت عليه مهابة فرضت على كبار الموظفين احترامه ، وهو من ناحية أخرى – بعد تجاربه المؤسفة فى السفارة الفرنسية والاذاعة والمقطم – تجنب أصحاب النفوذ ما وسعه ذلك . وكان يقول لى :

– لعن الله الأيام التى علمتنا احترام الأوغاد ، الله يسامحك يا بنتى !

وقد دعوته الى الفيشاوى وعرفته ببعض الأصدقاء مثل جعفر خليل ورضا حمادة وشعراوى الفحام فأعجبه المكان وأحب الأشخاص ، وفى جنازتى شعراوى وجعفر بكى كطفل . وبالرغم من مودتنا الحميمة فاننى لم أسلم من غضبه ، فيوما كنت أقرأ الجريدة فاطلعت على صفحة مخصصة لذكرى سلامة حجازى ، ونقلا عن كاتبها قلت للأستاذ عباس فوزى بسرور :

– هل تصدق أن فردى قال عن سلامة حجازى انه لو كان ولد فى ايطاليا لما كان له – فردى – شأن ؟ !

واذا بالأستاذ عبد الرحمن يرمى بكتاب كان يقرأه وصاح بى كبركان :

– ما هذا الكلام الفارغ ! ، أتصدق أى كلام يتقوله هؤلاء الأوباش فى الصحف ؟ .. من هو سلامة

حجازى ؟ ٠٠ ان أى منادى سيارات فرنسى أعذب منه صوتا ، ولكن هكذا أنتم أيها المصريون ، لن تزالوا غارقين فى أوهام الكلمات حتى تموتوا ، كوكب الشرق ٠٠ مطرب الملوك والأمراء ٠٠ سلطانة الطرب ٠٠ عاهل التمثيل فى الشرق ٠٠ لو لم أكن مصريا لتمنيت أن أكون مصريا ، ولم لا تتمنى أن تكون حمارا ، فيكون لك نفع على الأقل ، نيلة تأخذكم أنتم وبلدكم ! ٠

وفى عام ١٩٥٠ زوج معبودته « كريمته » من موظف فى البنك الأهلى ٠ واحتفل بزواجها فى الأوبرج ، وسعد كما لم يسعد من قبل فسعدنا به ٠ وبعد ذلك بعامين ، وعلى التحديد فى صباح يوم ٢٧ يناير ١٩٥٢ دخل علينا معاون الوزارة وقال :

ـ البقية فى حياتكم فى الأستاذ عبد الرحمن شعبان !

وفزعنا كأنما نسمع عن الموت لأول مرة ٠ كان حتى أمس يتخذ مجلسه بيننا فى الادارة ، وسرت معه حتى مسكنه فى شوارع مكتظة بالمتظاهرين والمخربين وألسنة النيران تشتعل هنا وهناك فى المحال العمومية والملاهى والسينمات ٠ وعلمنا فى أثناء النهار ونحن نشيع جنازته أنه كان ساهرا فى الترف كلوب مع بعض أصدقائه الانجليز حين هاجم المتظاهرون النادى فقتلوا من فيه ، وقتل الرجل فيمن قتل ، وانتهت حياته العجيبة ٠

عبد الوهاب اسماعيل

انه اليوم أسطورة ، وكالأسطورة تختلف فيه التفاسير ٠ وبالرغم من أننى لم ألق منه الا معاملة كريمة أخوية الا أننى لم أرتح أبدا لسحنته ولا لنظرة عينيه الجاحظتين الحادتين ٠ وقد عرفته فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم فى أثناء الحرب العظمى الثانية ، كان فى الثلاثين من عمره ، يعمل مدرسا للغة العربية فى احدى المدارس الثانوية ، وينشر أحيانا فصولا فى النقد فى المجلات الأدبية أو قصائد من الشعر التقليدى ٠ كان أزهريا ، لا علم له بلغة أجنبية ، ومع ذلك أثار اهتمامى واحترامى بقوة منطقه وهو يناقش أشخاصا من المعروفين بثقافتهم الواسعة واطلاعهم العميق على اللغات الأجنبية مثل الدكتور ابراهيم عقل وسالم جبر وزهير كامل ٠ وامتاز بهدوء الأعصاب وأدب الحديث فما احتد مرة أو انفعل ولا حاد عن الموضوعية ، ولا بدا فى مستوى دون مستوياتهم الرفيعة ، فكأنه ند لهم بكل معنى الكلمة ، فاقتنعت بحدة ذكائه ومقدرته الجدلية واطلاعه الواسع رغم اعتماده الكلى على التراث والكتب المترجمة ، ولم يداخلنى شك فى أنه أذكى من ابراهيم عقل وسالم جبر وزهير كامل جميعا ٠ وحتى نقده

للكتب العصرية لم يتسم بالهزال أو السطحية بالقياس الى نقد المتخصصين من حملة المؤهلات الباريسية واللندنية ، وان كان ثمة فارق دقيق فلم يكن لينكشف الا لعين العارف المدقق ·

قال لى عنه يوما الدكتور ماهر عبد الكريم :

ـ انه شاب موهوب ومن المؤسف أنه لم يرسل فى بعثة ·

وكان الدكتور ماهر عبد الكريم ممن يزنون أقوالهم بميزان دقيق · وبالرغم من أن عبد الوهاب اسماعيل لم يكن يتكلم فى الدين ، وبالرغم من تظاهره بالعصرية فى أفكاره وملبسه وأخذه بالأساليب الافرنجية فى الطعام وارتياد دور السينما ، الا أن تأثره بالدين وايمانه بل وتعصبه لم تخف علىّ · أذكر أن كاتبا قبطيا شابا أهداه كتابا له يحوى مقالات فى النقد والاجتماع فحدثنى عنه ذات يوم فى مقهى الفيشاوى فقال :

ـ انه ذكى مطلع حساس وذو أصالة فى الأسلوب والتفكير ·

فسألته ببراءة وكنت مغرما بالكاتب :

ـ متى تكتب عنه ؟

فابتسم ابتسامة غامضة وقال :

ـ انتظر وليطولن انتظارك !

ـ ماذا تعنى ؟

فقال بحزم :

ـ لن أشترك فى بناء قلم سيعمل غدا على تجريح تراثنا الاسلامى بكافة السبل الملتوية ·

فتساءلت بامتعاض :

ـ أأفهم من ذلك أنك متعصب ؟

فقال باستهانة :

ـ لا تهددنى بالأكلشيهات فانها لا تهزنى ·

ـ يؤسفنى موقفك ·

ـ لا فائدة من مناقشة وفدى فى هذا الموضوع ، وقد كنت وفديا ذات يوم ، ولكنى أصارحك بأنه لا ثقة لى فى أتباع الأديان الأخرى !

وقد كان حقا وفديا ، ثم انشق على الوفد وراء الدكتور أحمد ماهر وكان عظيم الاعجاب به ، ورقى فى عهد السعديين الى وظيفة مفتش · وكم تخلى عنه حلمه بسبب مصرع الدكتور أحمد ماهر ، كأنما أصيب بنفس الرصاصة التى أودت بحياة الرجل ، وقال لى بحزن بالغ :

ـ ضاع أعظم رجل فى الوطن ·

وكان يشكو صحته كلما سنحت مناسبة ، وبها يتعلل فى افطار رمضان ولكنه لم يصرح بحقيقة مرضه لأحد ، كما أنه لم يهتم فى حياته بالنساء ولم يتزوج ، وعرف فى تلك الناحية بالاستقامة الكاملة · وعلى جدية أخلاقه ، وحملاته الصادقة على المنحرفين ، تكشف لى جانب منه لم أكن لأصدقه لو لم أخبره بنفسى · ذلك أنه كان يوجد كاتب صاحب مجلة ومطبعة

تصدر سلسلة شهرية من الكتب ، وكان عبد الوهاب يحتقره ويقول عنه :

ــ لولا مجلته لما وجد مجلة تقبل أن تنشر له كلمة ٠

وكم أدهشنى أن أطالع له مقالة فى الرسالة عن صاحب المجلة رفعه فيها الى السماء ! ٠ حرت فى تفسير ذلك ، حتى علمت بأنه اتفق معه على نشر كتاب له فى سلسلته الشهرية نظير أجر ممتاز لم يظفر بمثله كاتب آخر ! ٠ وتذكرت فى الحال موقفه الأعمى من الكاتب القبطى فأزعجنى جدا اكتشاف ذلك الجانب الانتهازى فى شخصيته ، وساورنى شك من ناحية صدقه وأمانته ، واستقر فى نفسى ــ رغم صداقتنا ــ نفور دائم منه ٠ وظل يعمل مفتشا وكاتبا حتى ولى الوفد الحكم عام ١٩٥٠ ، فلم يرتح الى معاملة الوزير الوفدى له ، فقدم استقالته وتفرغ للعمل فى الصحافة ــ وعرف فى تلك الفترة بهجومه المتواصل على حكومة الوفد ، وفى نفس الوقت شرع يكتب كتبا عصرية عن الدين الاسلامى ، لاقت نجاحا منعدم النظير ٠ وقامت ثورة يوليو ١٩٥٢ وهو منغمس فى محاربة الوفد والدفاع عن الدين الاسلامى ٠ وكان مر عامان على الأقل لم نلتق فيهما أبدا وانقطعت عنى أخباره الخاصة ٠ ويوما كنت فى زيارة للأستاذ سالم جبر فقال لى :

ــ الظاهر أن نجم عبد الوهاب اسماعيل سيلمع قريبا ٠٠

فسألته باهتمام :

ــ ماذا تعنى ؟

ــ أصبح من المقربين ٠

ــ ككاتب سياسى أم ككاتب دينى ؟

ــ باعتباره من الاخوان المسلمين ٠

فهتفت بدهشة :

ــ الاخوان ؟٠٠ لكننى عرفته سعديا متطرفا ٠

فقال متهكما :

ــ سبحان الذى يغير ولا يتغير !

وقابلته بعد ذلك بعام أو نحوه أمام بار الأنجلو فتصافحنا بحرارة ، وسرنا معا نتحادث حتى جاء ذكر الثورة فقال بتحفظ :

ــ ثورة مباركة ولكن من العسير أن تعرف ماذا يريدون ٠٠

ولمست فى حديثه مرارة لم أقف على سرها ولم يبح به ٠ كانت له قدرة على الاحتفاظ بأسراره ليست الا لقلة نادرة من المصريين ٠ وقلت له :

ــ بلغنى أنك انضممت الى الاخوان المسلمين ؟

فابتسم ابتسامة غامضة وقال :

ــ أى مسلم عرضة لذلك !

ــ من المؤسف حقا أنك نبذت النقد الأدبى ٠

فضحك قائلا :

ــ يا لها من تمنيات جاهلية !

وافترقنا وأنا أشعر بأننا لن نلتقى مستقبلا الا

مصادفة فى الشوارع • وعند أول صدام بين الثورة والاخوان قبض عليه فيمن قبض عليهم من أعضاء الجماعة ، وقدم للمحاكمة فحكم عليه بعشرة أعوام سجن • وغادر السجن عام ١٩٥٦ فرأيت أن أزوره مهنئا ، فذهبت الى مسكنه بشارع خيرت • والحق أنه لم يتغير كثيرا ، شاب شعر رأسه ، كما يتوقع لرجل فى السابع أو الثامن والخمسين من عمره ، وزاد وزنه حتى خيل الىّ أن صحته تحسنت عما كانت عليه • وتبادلنا الأسئلة عن الظروف والأحوال ، وكان يحافظ على رزانته المعهودة وبرودة أعصابه الفذة ، وخاض دون مقدمات فى المسائل العامة فأدلى بآرائه بكل ثقة ..

ـ يجب أن يحل القرآن مكان كافة القوانين المستوردة •

وقال عن المرأة :

ـ على المرأة أن تعود الى البيت ، لا بأس من أن تتعلم ولكن لحساب البيت لا الوظيفة ، ولا بأس من أن تضمن لها الدولة معاشا فى حال الطلاق أو فقد العائل •

وقال بقوة :

ـ الاشتراكية والوطنية والحضارة الأوروبية خبائث علينا أن نجتثها من نفوسنا ..

وحمل على العلم حملة شعواء حتى ذهلت فسألته :

ـ حتى العلم ؟ !

ـ نعم ، لن نتميز به ، نحن مسبوقون فيه وسنظل

مسبوقين مهما بذلنا ، لا رسالة علمية لدينا نقدمها للعالم ، ولكن لدينا رسالة الاسلام وعبادة الله وحده لا رأس المال ولا المادية الجدلية ..

استمعت اليه طويلا ضاغطا على انفعالاتى حتى لا أخل بواجب المجاملة ثم قمت للانصراف وأنا أسأله :

ـ ماذا عن المستقبل ؟

ـ هل لديك اقتراح ؟

ـ لدى اقتراح ولكنى أخشى أن يكون جاهليا هو أن تعود الى النقد الأدبى !

فقال بهدوء :

ـ تلقيت دعوة للعمل فى الخارج •

ـ وعلام عولت ؟

ـ انى أفكر ..

وودعته وانصرفت • وبعد انقضاء عام على المقابلة طلعت علينا الصحف بأنباء مؤامرة جديدة للاخوان، ولم أعرف وقتها شيئا عن مصير عبدالوهاب اسماعيل الذى رجحت أنه غادر الوطن للعمل فى الخارج • غير أن الصديق قدرى رزق أكد لى أنه كان ضمن المؤامرة وأنه قاوم القوة التى ذهبت للقبض عليه حتى أصيب بطلقة قاتلة فسقط جثة هامدة •

عبدة سليمان

لعلها كانت أول فتـاة تعين بوزارتنا ، ولكن مؤكد أنها كانت أول موظفة بادارة السكرتارية · عينت فى أيام الحرب العظمى الثانيـة ، فى نفس الشـهر الذى تولى فيه عباس فوزى رياسة السكرتارية · كانت فى الخامس والعشرين من عمـرها ، بضـة ممتلئة ، سمراء ، متوسطة الجمال ، خفيفـة الروح · وكانت تحمل شهادة البكالوريا ، ولم ترغب فى الوظيفة حتى توفى والدها · وقال عباس فوزى محذرا :

ـ كونوا جديرين بالزمالة من فضلكم !

وهمس لى عم صقر وهو يقدم لى القهوة :

ـ صاحبتك من السيدة زينب !

فسألته :

ـ وماله ؟

ـ السـيدة مأهـولة بالطلبـة ولذلك فكثيرات من بناتها ··

ورسم بيده حركة مثيرة للشك · وعموما اشتدت العناية بالمظهـر فى السكرتارية ، واسـترقت الأعين النظر الى ركن الحجرة حيث جلست عبـدة الى يمين الأستاذ عبد الرحمن شعبان · وكان علينا أن ننتظر

طويلا حتى تصير عبدة « عادة » يومية لا تثير الأهواء ولا تلفت النظـر · وتواترت أخبار تصـور سلوكها الخاص فى حى السيدة بالاستهتار · وقال لى عم صقر:

ـ لا تصدق أن فتاة « شريفة » تقبل أن تعمل وسط الرجال ·

فقلت له :

ـ ولكنها مؤدبة حقا وتصد عنها جميع الطامعين دون استغلال للدعابة ·

فقال باصرار :

ـ سياسة حلوة ·· حفظا على كرامتها كموظفة ، ولتوقع بالمغفل ابن الحلال !

ولاحظنا أن زميلا من الأرشيف أصبح يتردد على صديق له فى السكرتارية على غير عادة ، وكان زميلا مشهورا رغم حقارة وظيفته وبدائية تعليمه الذى لم يجاوز الابتدائية ، ولكنه كان جميلا ، له مظهر الذوات واعتدادهم بأنفسهم ، وكان من أسرة العادل ـ يدعى محمد العادل ـ فى الثـلاثين من عمـره ، وكان ابن شقيق الباشا عميد الأسرة ، وزوج كريمتـه الغنية ، ورغم فقره وضـآلة مرتبـه كان يرتدى أفخر البـدل وينفق عن سعة من مال زوجتـه ، وعرف أنه يطارد عبدة ، وأنه يزور السكرتارية جريا وراء هدفه · ولم يتعرض له عباس فوزى بأية ملاحظة لعلمه بصداقة عمه الباشـا لوكيل الوزارة فتجاهله على مضض ، ولكن الأستاذ عبد الرحمن شـعبان المترجم لم يبال

بذلك فمضى نحــوه يوما ثم قبض على أعلى جاكتتــه ودفعه أمامه حتى باب الادارة وهو يقول له :

ــ اذا رجعت مرة أخرى فسأكسر رأسك ٠٠

ولكن عم صــقر أخبرنى أنه يطــارد عبــدة حتى مشارف السيدة وأنه يلح بجنــون فى التعرف بهــا ٠ ووضح أن الفتاة رفضت تلبيــة النداء وأصرت على ذلك ٠ رفضت بكل قــوة أن تكون عشــيقة وعاملتــه بخشونة ٠ وأخذنا نناقش الموضوع همسا ٠ فقــال عباس فوزى :

ــ الولد فحل جميل ولا يقاوم ٠٠

فقال عبد الرحمن شعبان :

ــ ولكنه حقير جاهل ٠٠

فقال له عباس فوزى :

ــ المرأة هى المرأة والرجل هو الرجل ٠

فقلت :

ــ من الطبيعى أن تبحث عن زوج فما معــنى أن ترضى بدور العشيقة ٠٠

ــ هذا هو المعقول ولكن الحب لا معقول ٠٠

ولكن مضــت الأيام وعبــدة ســليمان ترفض أن تستسلم ٠ ذات يوم طلبت اجازة أسبوعا ٠ ولم يهتم أحد بالطلب حتى جاءنا عم صقر وهو يقول :

ــ محمد العادل أخذ اجازة أسبوعا أيضا !

وتضاربت التخمينات ولكنها كانت مجرد تخمينات ،

ومضى الأسبوع ورجعت عبدة ولكننا رأينا فيها فتاة جديدة كأنما فقدت فى صــميم روحها شــيئا ثمينــا لا يعوض ٠ انتظرنا أن تقول شيئا ولكنها عكفت على عملها فى صمت تكتنفها هالة حزن كأنما هى راجعــة من قرافة ٠ ومال عبد الرحمن شعبان نحوها وسألها برقة :

ــ مالك يا مدموازيل ؟

وبمجرد استشعارها العطف انهمرت دموعها ! ٠ واتجهت اليها الأبصار ، ومضى عبــاس فوزى فوقف أمام مكتبها وهو يسأل :

ــ مالك ؟ ٠٠ نحن زملاء ، والانسان للانسان !

ــ لا شىء !

ــ لا نريد اكراهك على الكلام اذا كرهت ذلك ٠٠

فقالت بيأس :

ــ لن يخفى شىء !

ــ حسن فماذا يحزنك ؟

ترددت قليلا ثم قالت :

ــ أخذت الاجازة لأتزوج ٠٠

ــ لا عيب فى ذلك ولا حزن ٠

ــ تزوجنا ، أنا ومحمد العادل ٠

ــ محمد العادل !

ــ نعم ٠

ــ سرا ؟ !

ــ قال لى انه يقامر بمستقبله ، وأنه اذا عرفت زوجته أو عمه الباشا فسيقضى عليه الى الأبد ··

فسألها عباس فوزى بنبرة لم تخل من عتاب :

ــ وكيف رضيت أن تتزوجيه وأنت على علم بحاله ؟

فقال عبد الرحمن شعبان بغضب :

ــ تذكر أقوالك عن الحب ··

فتراجع الرجل قائلا :

ــ حسن ، وماذا حدث بعد ذلك ؟

ــ سافرنا الى الاسكندرية فمكثنا أسبوعا !

ــ ثم ماذا ؟

وهى تحاول تمالك أعصابها الباكية :

ــ طلقنى أمس !

ــ طلقك ! ؟

ــ نعم ··

ــ لم ؟

ــ قال انه اذا استمرت العلاقة فستعرف واذا عرفت خسر كل شىء !

وهمس عم صقر فى أذنى :

ــ طريقة جديدة للعشق !

ونالت عبدة من العطف بقدر ما نالت من اللوم · وتطوع كثيرون لمساعدتها فى اجراءات القضية الشرعية · ونما الخبر الى الزوجة والباشا ، واستدعى وكيل الوزارة ــ بايعاز من الباشا ــ عبدة فوبخها واتهمها باغواء الولد الأرعن وطالبها بالتنازل عن

القضية فى نظير أن يحفظ لها حقها ولكنها صارحته بأنها حبلى ، وبذلك تعقدت الأمور أكثر · ووضعت طفلة وكانت النفقة تقتطع لها من مرتب الشاب الصغير ، والحق أن محمد العادل لم يكن شبع تماما من عبدة ، وكانت هى من ناحيتها تحبه ، وهى حقيقة لم تخف عن المجربين مثل عباس فوزى وعبد الرحمن شعبان · وعادت العلاقة بينهما ، غير شرعية هذه المرة ، وفى تكتم لم يدر به أحد منا ، حتى فوجئنا ذات يوم بالوكيل يستدعى عبدة ومحمد ، ويهددهما بالنقل الى الأقاليم اذا لم يقطعا علاقتهما « الآثمة » فى الحال · وحدث ذلك بحضور الباشا نفسه ، وترامت الأصوات الى السعاة فالتقط عم صقر الخبر وأذاعه بطريقته السادية ، حتى اضطر الأستاذ عبد الرحمن شعبان الى تذكيره بابنته الضائعة فغادر الرجل الحجرة متقلص الوجه · ونقل محمد العادل بعد ذلك الى وزارة الزراعة ، وتزوجت عبدة من مقاول قبل أن تتربى ابنتها فى بيته تحت شرط أن تقدم عبدة استقالتها وقد فعلت · كان ذلك على عهد حرب فلسطين الأولى عام ١٩٤٨ ، ومر على ذلك عشرون عاما حتى لقيت عبدة مصادفة فى ميدان التحرير ·

تصافحنا بحرارة ، وكانت فى الخمسين وبدينة جدا ، وسرنا معا وهى تسأل عن الزملاء القدامى فحكيت لها ما كان من أمر عباس فوزى ، ونهاية عبد الرحمن شعبان وقد تأسفت عليه بصدق ، وحتى

عم صقر أخبرتها بسوء مآله ، أما هى فأخبرتنى بأن زوجها توفى من عامين ، وأنها أنجبت منه ثلاثة ذكور فى كليات الطب والزراعة والاقتصاد ، وأن ابنتها تزوجت من ضابط ، ثم تساءلت :

ـ أتدرى ماذا حصل لأبيها ؟

ولكنى كنت نسيته تماما فقالت :

ـ بعد تطبيق قانون الاصلاح الزراعى بعام واحد مات الباشا ، ولم يبق لابنته الا ما تستطيع أن تربى به أولادها فامتنعت عن اعطاء زوجها أى نقود فلم يستطع ممارسة الحياة على المستوى الذى اعتاده فاختلس وفصل من عمله .. وهو يعيش الآن كالمتشردين ، واضطر الى العمل فى الاسكندرية منادى سيارات !

ثم سألتنى ونحن نتوادع :

ـ خبرنى ماذا عن الموقف ، حرب أم صلح ؟

فبسطت راحتى فى عجز عن الجواب وافترقنا ..

عجلان ثابت

زاملنا فى الجامعة عاما ونصف عام ، واتهم بسرقة طربوش فافتضح أمره واضطر الى قطع دراسته . حدثنى عنه فى ذلك الوقت الأستاذ عدلى المؤذن فقال :

ـ انه يعيش مع أم عجوز على معاش بسيط .

فقلت بأسف :

ـ لا أحد منا يستطيع معاونته ، وكان النجاح والتفوق فى ميسوره ..

ـ ولكنه كان قليل الأدب ، ألا تذكر مناقشاته الحادة مع الدكتور ابراهيم عقل ؟

فقلت بامتعاض :

ـ انه أفضل فى نظرى من الدكتور ابراهيم عقل ..

وفى أثناء تزاملنا اقتنعت بذكائه واجتهاده ووعيه ، وكان ذا استعداد طيب لتعلم اللغات الأجنبية ، كما كان قارئا ممتازا . وأذكر أنه ترجم ـ فى تلك الفترة المبكرة من حياته ـ بعض قصائد شيللى ونشرها فى مجلة المعرفة . وكان يقول لى :

ـ لا تحترم طالبا غير مهتم بالسياسة ، ولا تحترم مهتما بالسياسة ان لم يكن وفديا ، ولا تحترم وفديا ان لم يكن فقيرا ..

فقلت له :

ـ ولكن سعد زغلول لم يكن فقيرا ..

ـ أما مصطفى النحاس فزعيم فقير !

ـ هل تعنى أن مصطفى النحاس خير من سعد زغلول ؟

ـ كان سعد زغلول عبقريا أما مصطفى النحاس فارادة نقية .

ولم يستطع ـ بعد انفصاله عن الجامعة ـ أن يجد وظيفة ، فالوظيفة كانت مطلبا عسيرا لمن لا وساطة له ، ولكن أحد أعضاء الوفد استطاع أن يلحقه بدار صحفية محايدة مترجما بأجر زهيد . وافترقنا نحوا من عشرة أعوام ، وتقابلنا بعد ذلك مصادفة فى مقهى الفيشاوى . ورحبنا بالمصادفة واعتبرناها سعيدة وسألته عن حاله فقال :

ـ ما زلت مترجما صحفيا وما زال الأجر زهيدا !

وضحك وكانت روحه المعنوية مرتفعة وقال :

ـ ولكنى متزوج ..

ـ أنت مغامر !

ـ انه الحب ، عليه اللعنة ! ..

ودعانى الى مسكنه بخان الخليلى فتعرفت بزوجته ، وكانت فتاة حسناء ، على قدر متوسط من التعليم ، ولاحظت أنها متفانية فى الحب وذات ارادة صلبة فى مواجهة حياتها المتقشفة . ودار الحديث عن الحرب والسياسة ، فقال :

ـ لم أعد وفديا كما كنت ..

فدهشت ، ولكنه صارحنى بأنه « شيوعى » ، وراح يؤكد لى أن الشيوعية حل لمشكلات العالم ، ثم وهو يضحك :

ـ وحل لمشكلتى أيضا ..

فضحكت زوجته وقالت :

ـ وهذا هو الأهم !

ومضى يشرح الشيوعية باعتبارها نظرية علمية ولكننى شعرت بأنها حلت فى نفسه محل العقيدة الدينية . وفى أعقاب الحرب فصل من الدار الصحفية بايعاز من الداخلية فى ظل الحكم الرجعى الذى سيطر على البلاد بعد اقالة الحكومة الوفدية . وتحرج مركزه ، حتى سكنه المتواضع أصبح مهددا بالطرد منه لعجزه عن دفع الايجار . وكنت أزوره ، وأقدم له أحيانا مساعدات لا تغنى ، ثم تبين لى أن مسكنه يتحول الى شىء جديد غريب ، الى ملتقى لبعض أهل البلد من اغنياء الحرب ، حيث تدور الجوزة . وتجلس زوجته بينهم كربة الاستقبال والبيت ! . وآثرت ـ تفاديا للاحراج ـ أن تقتصر مقابلاتنا على المقهى ، وأخذ يبدو لى مكشوف الوجه مستهترا ، وماجنا عابثا ، ورغم ذلك كله فان عقيدته لم تتخلخل ، ولم يتسلل اليها الفساد ، وبقيت جوهرة مدفونة فى العفن ولكن محتفظة بقيمتها . وفى عام ١٩٥٠ رجع الى عمله بالدار

الصحفية ولكنه لم يغير أسلوبه فى الحياة ، لزهادة المرتب من جهة ولفقدان الثقة من ناحية أخرى • ولقيت زوجته بعد انقطاع طويل فهالنى ان ارى غانية متبرجة ذكرتنى بالمحترفات فتقطع قلبى وحزنت حزنا لا حد له • ولعله لاحظ انقباضى اذ قال :

ــ مهما يكن من أمرنا فثمة جانب فينا يستطيع أن يصنع المعجزات ، وهو الذى خلق الله !

وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ أمكن بعض زملائه أن يهيئوا له عملا أرقى ، فتحسنت أحواله ، بل وغير مسكنه فانتقل الى شقة فى عمارة بميدان الجيزة ، رمزا لعزمه على تغيير أسلوبه فى الحياة ، وممارسة حياة محترمة • وبسبب نشاطه العقائدى اعتقل أعواما حتى اضطرت زوجته الى اللجوء الى حماية أحد زبائن بيتها القديم • ولما خرج من المعتقل خرج متعبا متقززا • استعاد عمله ودخله ولكنه لم يستطيع اســتنقاذ زوجته • قال :

ــ أدمنت الأفيون •••

وهز رأسه فى رثاء وقال :

ــ انى أحبها ، وسأحبها الى الأبد ، ولكنها لم تعد قادرة على أعطاء الحب !

ثم بغضب :

ــ انى أحمل على الفساد بصدق أيان أجده ، ولا يخيفنى أن يشهِّر بى أحد ••

وقدّس علاقته بها ، متفانيا فى الاخلاص لها والتسامح معها ، فهيأ لها الحياة الطيبة ولم يسمح لنفسه بمحاسبتها على تصرف ، تواجدت أم غابت ، استقامت أم استهترت • وزحف عليه العجز قبل الأوان فلم يبق له من مسرات الدنيا الا العمل والحديث والتسامح اللانهائى مع زوجته • وبالرغم من آلامه وحرمانه وتدهور زوجته المحبوبة فقد بلغ فى تلك الفترة غاية نضجه وأعطى أطيب ثمــاره ، فتتابعت مقالاته السياسية والاجتماعية متسمة بالطلاوة والعمق ، وانى لأعد كتابه عن الفكر العربى التقدمى من أمتع الكتب المعاصرة وأقواها ايحاء وتفاؤلا ، كما أعد وجهه الشعبى ، وتناقضات حياته الشخصية ، ومتاعبه الجسمانية ، وحدة ذهنه وصفائه ، مثالا لعصر مضطرب جياش بعوامل هدم وبناء ، وتفكك وتجمع ، ويأس وأمل • ولشد ما تألمت عندما لم أجد من أستاذى الدكتور ماهر عبد الكريم استعدادا للترحيب به فى صالونه فقال بهدوئه المعروف :

ــ يقال انه شَخَص ••

وابتسم ابتسامة استغنى بها عند تسجيل وصف لا يرتاح اليه ذوقه الرفيع ! • وعلمت أن الذى وشى به عنده هو جاد أبو العلا ، ذلك الشخص الذى لا وجود له فى الواقع ! •

عـــدلى بركات

له فى الذهن صورة قديمة ، كالعباسية القديمة بحقولها وسكونها الأبدى ، عندما كان يتهادى به الحنطور من العباسية الشرقية الى المدرسة ، فيغادره وهو يسير — رغم حداثة سنه — فى عظمة خيالية تناسب ولاة العرش ، ويمر بنا دون أن يلقى نظرة على أحد ، وحيدا بلا صاحب الا فيما ندر ، ونتابعه بسخرية تخفى تحتها اعجابا وحسدا • وكان آل بركات — كآل الكاتب — من أرستقراطية العباسية الشرقية المقيمين فى القلاع • وكانت أم عدلى تركية وكان الأب فلاحا مصريا غنيا ، فأنجبا غلامين عدلى وأخا أكبر • وماتت الأم وعدلى فى الثانية عشرة ، فتزوج الأب بعد عام من وفاتها بسيدة مصرية • وقيل لى ان وفاة أمه رسبت الحزن فى أعماق روحه • كما أن حلول أخرى محلها قضى على توازنه مدى العمر • تلك أحزان يمكن تخيلها فحسب أما تحليلها فلا سبيل اليه ، وبخاصة وأن عدلى لم يكن يذكر سيرة أمه أمام أحد ، ولا يسمح لأحد بالتسلل الى ذلك التاريخ القديم ، وبالرغم من أننى عرفته فى تدهوره ، وهو لا يعترف لشىء باحترام أو يعفيــه من سخريته ، فانه كان من المسلم به بيننا أن أمه سر مغلق مقدس

لا يجوز مسه أو الحومان حوله أو مجرد التفكير فى الاقتراب منه • وكنا فى صبانا نراه كثيرا ، فى المدرسة ، فى حديقة القصر ، ولكن لم تنشأ بيننا وبينه أى معرفة أو حتى ميل الى ذلك • ومرة وكنا عائدين من ملعب الكرة فى الصحراء وجدناه واقفا أمام قصره فقرر خليل زكى أن يتحرش به فوقف أمامه وسأله بوقاحة :

— هل تعرف أين تقع دكان عم فلقوس بياع المدمس ؟

فتراجع الى داخل القصر دون أن ينبس ومضينا ونحن نكتم الضحك ونلعن خليل ولكن اجتاحنا سرور لا شك فيه • وطالما كان خليل يقول :

— يا ما نفسى أطبق فى زمارة رقبته !

ودخلنا الجامعة فى عام واحد فزامل رضا حمادة فى كلية الحقوق ، وعارف رضا بينى وبينه ونحن نشاهد مباراة كرة حامية بين النادى الأهلى والمختلط • قلت له :

— نحن أبناء حى واحد منذ قديم ومع ذلك لم نتعارف الا اليوم •

فابتسم قائلا فى اقتضاب :

— نعم •

وتمعنته عن قرب فاذا به رغم الأناقة والعظمة المطبوعة يشبه أباه الفلاح لحد التماثل ، ولم يرث عن الأم التركية شيئا ظاهرا ينتفع به ! • وأدركت من أول وهلة أنه متعب ، وأنه يحتاج الى سياسة خاصة فى معاملته كى يمنـــح ثقته

وصداقته ، وأنه يحتقر كل شيء في الوجود ، وأن كلمة « مضحك » اكليشيه لاصق بلسانه يصف به أي شخص أو أي فعل مهما يكن رأي المتحدث فيه ، فأستاذ المدني « دكتور مضحك » ، ومصطفى النحاس « زعيم مضحك » ، وقرار الوفد باعلان المقاطعة « اعلان مضحك » ، وقواعد الاسلام « قواعد مضحكة » حتى سألته مرة :

ــ من يستحق احترامك من الناس ؟

فأجاب وهو يضحك :

ــ الجميل الشرير !

ثم وهو يواصل الضحك :

ــ يقال ان اسماعيل صدقي كان كذلك في شبابه ..

فقلت :

ــ ولكنك تحترم والدك بلا شك ؟

فبصق على الأرض بتلقائية ووحشية وقال :

ــ اللعنة عليه وعلى جميع الحشرات !

وعرفت ما لم أكن أعرف من مقته لأبيه . وحثني موسيقار من جيوانه عن تلك العلاقة الغريبة فقال انه ــ عدلي ــ لم يعد يخفي كراهيته لأبيه منذ زمن بعيد ، وأن الباشا يداريه مسلما أمره لله . وسألت عن السبب فقال :

ــ لا يدري أحد شيئا على سبيل اليقين ، وعدلي نفسه لا يحب أن يفشي ذلك الجانب من أسراره ، ولكن المظنون أن مرجع هذه الكراهية الى زواج أبيه من امرأة أخرى بعد وفاة أمه ..

ولما توثقت العلاقة بيننا سألته عما يدعوه الى مقت أبيه واحتقاره فحدجني بنظرة قاسية وقال :

ــ ألا يكفي لذلك أن يورثني سحنته ؟ !

فقلت :

ــ أنت فلاح جميل !

فعبس قائلا :

ــ لو نافقتني مرة ثانية فسأمقتك أكثر منه .

ولكي يبتعد عن مجال أبيه ويتجنب رؤيته ما أمكن أقام في مبنى مستقل بحديقة القصر كان يستعمل كمضيفة ، وربما مر الشهر والشهران فلا تقع عينا أحدهما على الآخر . وفي آخر عهده بكلية الحقوق انتقى من الزملاء صحبة قليلة عرفت باستهتارها الأخلاقي ، وجعل منها خاصة أصدقائه ، وبهم خرج من عزلته فعرف مواطن اللهو ومقهى الفيشاوي ، وانقلب مقامه المستقل في الحديقة الى حانة وغرزة ! . ولا شك أن الباشا فطن الى دبيب الحركة الجديدة المريبة ولكنه لم يستطع أن يتعرض لها ايثارا للسلامة . وقال لي يوما :

ــ عليك بصحبة الأشرار فبفضلهم تعرف نفسك ..

ولم أعرف ما يعنيه تماما الا فيما بعد نسبيا ، عندما تبين لي أنه بقدر ما يحب مصاحبة الحسان فانه لا يستجيب لهن ، وأنه لا يستجيب الا للمومسات ذوات السحن الوحشية . وأتم دراسه عام ١٩٣٨ بعد سقوط أربع مرات ، وسعى الباشا الى تعيينه في النيابة العمومية بنفوذه ، ولكن لم يكن

يقبل أحد فى وظائف النيابة الا بعد تحريات ، وقد كشفت التحريات عن الغرزة المستقرة فى مسكنه المستقل فرفض الطلب وأبلغ والده بالحقيقة ! • وفاتحه أبوه بالأمر فقال باستهانة :

— النيابة العمومية وظيفة مضحكة !

فغضب الرجل وغضب الابن وسعى الابن الآخر بينهما حتى هدأت النفوس • واتفق على أن يفتح الباشا له مكتب محاماة فى مقامه المستقل على أن يجعل سهراته الخاصة فى الخارج • وأعد فى احدى الحجرتين اللتين يتكون منهما المبنى مكتب ، ومكتبة قانونية ، وألصقت على مدخل السراى لافتة باسم المحامى الجديد • ولم ينفذ الاتفاق الا أياما معدودات ثم رجعت ريمة لعادتها القديمة ، فعاد الأصدقاء ودارت الجوزة ، وكان الحشيش قد أسره تماما • ولم يقنع الأصدقاء بذلك فكانوا يجيئون ببعض المومسات باعتبارهن عميلات للمحامى الجديد ، فتطورت الغرزة الى ماخور ، وسكرت احداهن ذات ليلة حتى فقدت وعيها فتجردت من ثيابها وراحت ترقص فى الحديقة تحت ضوء القمر ••

ولأول مرة يسمح الباشا لغضبه بالانفجار ، انهال على الابن سبا ولعنا ، فرد له الابن السبة سبتين واللعنة لعنتين ، وصفعه الأب فهدده الابن بالصفع والركل ، وعند ذلك طرده

من قصره وحذره من أن يريه وجهه مرة أخرى • وغادر عدلى القصر مطرودا فى أوائل أيام الحرب العظمى الثانية ، وليس معه الا ملابسه • وراح يبيت بالتناوب فى بيوت أصدقائه ويفكرون فى المستقبل • اقترح عليه بعضهم أن يبحث عن أى وظيفة كتابية حتى يجىء الفرج ، ولكنه قال بكبرياء :

— انى أفضل الصعلكة ••

وعرض عليه رضا حمادة أن يبدأ من جديد فى مكتبه ولكنه قال له :

— نسيت القانون ولا همة لى الآن على استرجاعه •

فقال الرجل ببراءة :

— قم بأى عمل فى المكتب !

فأدرك أنه يعرض عليه أن يعمل كاتبا بمكتبه فصاح غاضبا :

— انى أحتقرك وأحتقر من خلقك !

واختار الصعلكة فكان يقترض مبالغ متفاوتة بضمان موت أبيه الذى جاوز السبعين من عمره وكان يتبلغ بالسندوتش ويسكت صراخ بطنه بالفول السودانى ، وينتقل فى الليل من غرزة الى غرزة فيدخن بالمجان ، ثم يقضى الليل فى بيت صديق أو فى مقصورة من مقاصير مقهى الفيشاوى • وساء مظهره ، ووهنت صحته ، ورثت ثيابه ، وصار أشبه بالمتشردين ، ولكن كبرياءه كان يتعقد ويتضخم حتى انقلب وقاحة وسفاهة •

وكنا مجتمعين مرة بالفيشاوى فاذا به يضحك عاليا ويستغرق فى الضحك ، فسألته عما يضحكه ، فقال :

— تصور أن أموت أنا قبل « الكلب » •• ؟

فقلت باسما :

— هذا محتمل ومتوقع أيضا !

فلعننى وقال :

— انى على استعداد لأن أعبد الله اذا أخذ روحه ••

ثم مستدركا :

— على أى حال ليس لدى ما أشكوه ما دمت أجد الحوزة فى آخر النهار !

وكان أيضا قابعا فى الفيشاوى — ١٩٤٧ أو ١٩٤٨ — عندما جاءه رسول من شقيقه ينعى اليه والده ويدعوه الى القصر • كان مسطولا فلم يفهم من المرة الأولى ، ولما أخذت الحقيقة تلاطمه وتوقظه وقف مترنحا ، فحملق فى الجدار المطعم بالأرابيسك ، وسرح فى غيابات لا يدريها أحد ، ثم غادر المكان دون أن يلقى تحية وراءه • واستقبله أخوه — رئيس محكمة كان — وقال له :

— البقية فى حياتك •

ومضى به الى الداخل وهو يقول :

— ما كان كان ، وهذه ساعة مقدسة تنسى فيها الأحقاد ••

حتى أوصله الى مخدع الباشا فأوسع له وهو يقول :

— ادخل فودع أباك ليغفر الله له ولك ولنا جميعا •

وتسلل عدلى الى الحجرة — كما حكى لنا فيما بعد — ووقف وحده عند رأس الجثمان المسجى ، ثم أزاح الغطاء عنه قليلا حتى انكشف وجهه المطوق ، ونظر اليه مليا ، ثم غمغم :

— الى الجحيم يا قذر !

وأكثر من صوت قال :

— مستحيل •• مستحيل ••

فنظر اليهم باحتقار لضعفهم وتمتم :

— كم وددت أن أمثل بجثته !

بعضنا لم يصدق كلمة مما حكى والبعض آمن بكل حرف وخمن أنه ربما فعل أكثر مما قال • على أى حال ابتسمت له الدنيا بعد عبوس • وقد ترك الباشا أملاكا منها أرض وعقار وأموال سائلة ، وكان نصيب عدلى عمارتين يدران دخلا صافيا قدره ألف جنيه فى الشهر ، بالاضافة الى أربعين ألفا من الجنيهات • وقال كثيرون من أصدقائه :

— لقد كانت أعوام التشرد درسا أريد به أن يعرف قيمة القرش فيحسن معاملته !

والتف حوله أصدقاؤه عقب انفضاض المأتم واستبقوا الى تخطيط صورة للمستقبل السعيد :

— من حسن الحظ أن مطالبك فى الحياة معقولة وأنه بوسعك أن تعيش ملكا حتى آخر يوم فى حياتك •

— وفر لنفسك مسكنا جميلا ، واعرض نفسك على طبيب كبير ، واحمد ربك انك لم تغو القمار ، الطعام أمره هين ، ومزاجك فى النسوان متواضع ، ولم نسمع عن أن الحشيش خرب بيت أحد ، فمبارك عليك رزقك الحلال !

وصاح بهم :

— كفوا عن النصائح عليكم اللعنة !

كان يمقت النصح ويعده تعاليا مرذولا ولكنه بدا ثملا بالفرح والسعادة ، وبات ليلتها فى فندق سميراميس ، وأقام به حتى يدبر أموره ، ونشط نشاطا غير معهود فاستأجر شقة على النيل بخمسين جنيها شهريا • ومضى يؤثثها بأفخر الأثاث ، وقد ذهلنا — نحن البسطاء — عندما علمنا بأن تأثيثها تكلف عشرين ألفا من الجنيهات ، وأعجب ما أذهلنا فيها كان حجرة شرقية ، أقام بها بارا أمريكيا وغرزة موهت أدواتها بالذهب والفضة ، كما ابتاع سيارة كاديلاك ، وكان مجموع ما أنفقه على ذلك — بالاضافة الى الملابس — ثلاثين ألفا • كان مبلغا خياليا ، ولكن اعتذر عن ضخامته أصدقاؤه بما عاناه من حرمان طويل ، وقالوا أيضا ان التأسيس عادة يتكلف أضعاف ما تتكلفه الحياة اليومية • ولكن الحجرة الشرقية شهدت سهرات ليلية جمعت الأصدقاء والطفيليين وغانيات الملاهى الليلية وبعض الفنانين والفنانات ، وجرت الخمر وانتشر الدخان الأزرق وجىء بموائد الطعام من نادى

السيارات ، وراح يخطر بين الضيوف رافلا فى الحرير محاطا بالاجلال والاكبار • وما لبث أن تطايرت العشر الآلاف جنيه فلم يبق الا دخل العمارتين ، وقال المتفائلون أن آن أوان الانضباط وستسير الحياة سيرتها المتزنة المعقولة ، ولكنه كان اعتاد عادة الاسراف وتقمص روح ليالى ألف ليلة وليلة ، وعلى حين كان ينفق بسخاء على غانيات الملاهى كان يمارس العشق الحقيقى مع بنات الهوى المتواضعات ، ومع بياعة فول سودانى فلاحة من المترددات على مقهى الفيشاوى ، ولذلك لم يوفق الى التوازن أبدا ، واضطر الى بيع احدى العمارتين رغم توسلات الأصدقاء ، ثم ألحق بها الأخرى ، وتجلى فى أثناء ذلك سعيدا مجنونا فوق الحذر والماضى والمستقبل • وما جاء عام ١٩٥٠ حتى كان قد باع شقته ورجع للاقامة فى فندق سميراميس ، ثم باع السيارة ، وبدا المستقبل واضح المعالم • وأذكر أننى تدارست حاله مع الصديق رضا حمادة فقلت له :

— أهو مجنون ؟

فأجاب :

— لا يخلو من جنون •

— انه لا يشعر بالغد •

— أو أنه مستغرق فى لحظته الراهنة •

— أكاد — وسط همومنا التى تثقلنا — أحسده !

فضحك عاليا ، وقال :

ـ على الحياة أن تكون جدا أو فلتذهب الى الشيطان !
وعندما نفد حسابه غادر سميراميس • وواجه الحياة مرة أخرى وهو لا يملك مليما ولا أمل له من وراء وفاة أحد • ولم يكن بلا خطة • شرب زجاجتى ويسكى وبلبـع ربع أوقيـة حشيش وهام علي وجهه • وعثر عليه صباح اليوم التالى جثة هامدة على شاطىء النيل •

عـزمى شـاكر

تعرفت به فى صالون الدكتور ماهر عبد الـكريم عام ١٩٦٠ ، وقد قلت له من فورى :
ـ أذكر أنى رأيتك فى زيارة للأستاذ عباس فوزى فى أثناء الحرب العظمى الثانية ••
فقال :
ـ لم أقابله من مدة طويلة ، وبالمناسبة كيف تفسر تحوله الى تأليف الكتب الدينية ، أكان عن عقيدة حقا ؟
فأجبت بحذر :
ـ أنت تعلم أنه كان دائما من المهتمين بالتراث !
وكان عزمى شاكر يوم تعرفت به فى الأربعين ، وقد جذبنى بذكائه وثقافته وصراحته ، وأشعرنى تماما بأنه من الناس الذين يأخذون الأمور مأخذ الجد ، ويلتمسون السبل الى الأمل • وكان دكتور فى التاريخ من فرنسا ، ومتزوجا من مدرسة دكتورة فى العلوم • وكان الأستاذ سالم جبر يعرفه ، وقال لى عنه :
ـ انه كان تلميذا وفديا ولكنه اهتم من بادىء الأمـر بالمشكلات الاجتماعية ، ويعترف بأن قلمى كان له الأثر الأول فى توجيهه ••

ولما حادثت عزمى شاكر فى ذلك قال لى :

ـ لم تكن وفديتى قوية كالحال فى جيلكم ، وتخلصت منها تماما قبيل الثورة ، ولكنى بقيت على صلة حميمة بالجناح الوفدى اليسارى ، وعددت منذ ذلك الوقت من الشيوعيين وعرفت بذلك فى أوساطهم ..

وقال لى أيضا :

ـ ولما قامت ثورة يوليو أستقبلتها بترحاب وحذر معا : أعجبت بالغائها للنظام الملكى وبتحقيقها للجلاء ، ولم أعجب كثيرا باصلاحها الزراعى ، وسرعان ما اعتبرتها انقلابا قصد به الاصلاح وتفادى الثورة الحقيقية ..

وبسبب موقفه فصل من هيئة التدريس الجامعية ، ثم اعتقل أعواما ، ثم أفرج عنه فعمل فى الصحافة . وعكف على الكتابة فى الموضوعات التى تتيح له التعبير باخلاص عن آرائه فآثر الكتابة فى الشئون الخارجية أو التاريخية أحيانا . وعقب صدور قوانين يوليو ١٩٦١ الاشتراكية تغير موقفه تغيرا ذاتيا وجذريا وعن اخلاص حقيقى . كان قد انضم الى أصدقائنا ، وكان يجتمع بنا فى مكتب سالم جبر وصالون ماهر عبد الكريم . وذات يوم قال لى :

ـ الثورة هى أنسب حركة تاريخية لوطننا فى ظرفه الراهن .

فقلت له :

ـ اذن غيرت رأيك ؟

ـ أجل ، علينا أن نضع عقائدنا بين قوسين ، وأن نؤيدها بكل قوانا !

وآمنت بصدقه ، ولم أجد ما يدعو الى التشكيك فيه ، ثم اننى من المؤمنين باخلاصه . ومن يومها وهو دائب على تأييد الثورة بقلبه وقلمه ، فى سره وعلانيته ، ولم يفهم موقفه على حقيقته فى أوساط زملائه .

وأذكر أن عجلان ثابت قال لى عنه :

ـ انه وغد لا أكثر ولا أقل ، ومهما خطر فى لباس قديس !

فقلت له :

ـ انى أعتقد باخلاصه ، لا يداخلنى شك فى ذلك .

فقال ساخرا :

ـ ان أقواله تبرر تردده ، هذا كل ما هنالك !

وسنحت فرصة لرجوعه الى الجامعة ولكنه آثر الجهاد فى ميدان الصحافة . ومن المهم أن أسجل أنه لم يكن مؤيدا أعمى أو متعاميا ، فلم تكن تخفى عنه الأخطاء التى ترتكب وكثيرا ما كان يردد :

ـ مما يؤسف له أن الثورة لم تعتمد على الثوريين الحقيقيين ، فخلقت منهم أعداء حينا ، أو وضعتهم تحت المراقبة حينا آخر .

وقال مرة بحزن شديد :

ـ ان الفساد ينتشر كالوباء ، لا نملك الا التحذير ، وحتى ذلك لا يتيسر لنا الا فيما ندر .

وثبت لى أنه من الشيوعيين المتجددين ، الذين يتطلعون دائما الى الحرية ، الذين يعتقدون أن الحرية تعانى مأساة

مريرة ، ولكنه لم يهون أبدا من شأن النقلة التاريخية التى وثبها الوطن ، وكان يتعلق بالمستقبل المضىء كلما ألحت عليه عثرات الحاضر • ولما عرفته بالدكتور صادق عبد الحميد لمس سريعا ما يقرب بينهما من وجهات النظر فتوثقت العلاقة بينهما • ولما قبض على الشيوعيين حزن حزنا عميقا ، وساوره قلق أشبه بتأنيب الضمير ، ولكنه قال :

— انه التعصب ، والايمان بالكتب أكثر من الواقع !

وكم اغتبط لدى الافراج عنهم ، واغتبط أكثر عندما علم بأنهم تبرأوا من الحزب الشيوعى ، وعقدوا العزم على التعاون مع الثورة ، وقال :

— ها هم يرجعون الى موقفى الذى اتهمت به عندهم !

فقال الدكتور صادق عبد الحميد :

— وفى ظروف مختلفة تماما !

وتولوا مناصب رئيسية فى الدولة والصحافة تاركين اياه — نسبيا — فى القاع ، فلم تخل نفسه من امتعاض ، وأفلت منه ذلك القول مرة :

— أخشى أن يكتشف الكتاب يوما أن اللامعقول أسلوب مناسب لمعالجة العقائد أيضا !

ولم يعد يجد فى الصحافة الراحة النفسية التى نعم بها طويلا ، فطلب العودة الى التدريس بالجامعة ، وسرعان ما حققت له رغبته • ولما وقعت الواقعة — هزيمة يونية ١٩٦٧ — تزلزل كيانه كالجميع ، وشدته اليها موجة النقد العاتية

فغطس فيها وقب ، ولكنه لم يكتب كلمة فى الموضوع بالرغم من أنه كان يكتب نظرات أسبوعية فى مجلة سياسية • وأشهد بأنه كان من أوائل من ثابوا الى التوازن بل لعله كان أولهم ، ففى أكتوبر من السنة نفسها نشر مقاله المشهور الذى حلل به الهزيمة ، فاعتبرها درسا ، وحذر من الاستسلام لطغيان النقد واحتقار الذات وتعذيبها وفقدان الثقة بالنفس ، وأكد فى النهاية حقيقة ما زال يؤمن بها وهى أن الثورة هى الأرض الحقيقية المتنازع عليها ، لا سيناء ولا القدس ، وأنها هى التى يجب أن تبقى وأن تستمر • وفى الأعوام التى تلت ذلك عكف على تأليف كتابه الرائع « من الهزيمة نبدأ » ، وهو دستور لحياة جديدة تشق طريقها نافضة عن نفسها ركام الأتربة ، وقد شهدته وهو يعمل فى وحدته بالاتحاد الاشتراكى بهمة مذهلة ، كما استمعت اليه فى التلفزيون مرارا • وهو من القلة التى لم تصب بانقسام الشخصية ، فهو هو سواء تكلم على الملأ أم فى مجالسه الشخصية • واشادتى به كانت بلا شك من أسباب اغضاب كثيرين ممن هزمتهم الأحداث مثل عجلان ثابت وسالم جبر • ولا أنسى كيف غضب الأستاذ سالم وأنا أنوه مرة بكتاب « من الهزيمة نبدأ » فقال ببرود :

— طالما احترمته ولكنه لم يعد الا المعادل الموضوعى المدنى !

أما ثابت عجلان فسمى الكتاب « من الانتهازية نبدأ » ، وجعل يضحك ويقول :

ـ حسبنا أن يكون لنا من الكتاب جاد أبو العلا وعزمى شاكر ، يا بلد الاحتفال بالاسراء والمعراج فى عصر الهبوط على سطح القمر !

ولكن الدكتور عزمى ما زال ثابتا فى ايمانه وصدقه ونشاطه .

عزيزة عبده

عندما قدمنى لها الدكتور زهير كامل فى صالونه لم أكن أسمع باسمها لأول مرة ، لعلى اطلعت عليه فى مجلة أو جريدة . كانت بصحبة زوجها ، سمراء أنيقة القسمات خفيفة الروح ، قدرت عمرها بالثلاثين وقال جاد أبو العلا انها فى الأربعين ، وكان ذلك فى عام ١٩٦٠ ، وهى وزوجها ـ فى الخمسين ـ فنانان تشكيليان ، وقد دعيانى الى مسكنهما فى مدينة الأوقاف فاطلعت على معرضهما الدائم ، ودهشت وأنا أتنقل بين لوحات واقعية فى زمن ندرت فيه الواقعية وطغى التجريد ، بل كانت واقعية ذات أهداف واضحة ، وقلت مداعبا :

ـ أخيرا أظفر بفن رجعى !

ولكنها قالت بلحتجاج عذب :

ـ أمامك فن تقدمى ، بل الفن التقدمى الوحيد !

ونشأت بينى وبينها مودة عميقة ، وكما أقنعتنى بفنها أقنعتنى بأمومتها الصادقة لابنين ، ولكنها بدت أقدر على الصداقة من زوجها الذى لا يحب الارتباط ، والذى يحضرنا بجسمه على حين يغيب بروحه عن الزمان والمكان . وكانت مثقفة جدا ، وتعتبر هى وزوجها من ذوى الميول اليسارية ،



ولكنها كانت تشعرنى دائما بقوتها بخلاف زوجها الرقيق ، القشة التى تتلاعب بها أخف الرياح • واصطحبت معى الأستاذ يوسف بدران محرر احدى الصحف الفنية الى بيتهما بناء على اقتراح منها ، فلاحظت أنهما تفاهما تفاهما روحيا عجيبا وسريعا ، وأنهما تبادلا احتراما ومودة •

وذهبت يوما لزيارة يوسف بدران فى شقته بشارع قصر العينى ، وجلسنا نتحادث وأنفاسه تتردد على وجهى معبقة برائحة الخمر ، وما لبث أن فتح باب حجرة النوم فخرجت منه عزيزة عبده مرتدية احدى بيجاماته ! • دهشت وارتبكت ولكنى واجهت الموقف باللغة المناسبة فتظاهرت بعدم المبالاة • وشجعتنى على موقفى بضحكاتها العذبة وحديثها الطبيعى ، وكانت أنفاسها تنفث أيضا شذا الخمر •

وتكلمنا فى شئون كثيرة أما وجودها فى الشقة بالحال التى وجدت عليها فمضى دون ضوء أو تفسير كأنه حقيقة مسلم بها • وقال لى يوسف بدران فيما بعد :

ــ هكذا وقع الحب علينا من السماء !

فقلت له :

ــ أنت تحب الغزل !

ــ ولكنها كانت البادئة ••

فرميته بنظرة شك فقال :

ــ صدقنى ، وسيطرتها أقوى من جمالها ••

— تحبها ؟

— هى تحبنى وفى ذلك ما يكفى ٠

— وأنت ؟

— هى كنز لا يستهان به ولكنها لا تعكس الأسلوب الذى أعشقه !

— وزوجها ؟

— لا أهمية له فى الموضوع !

والتقيت بها بعد ذلك فى صالون جاد أبو العلا ، وكانت وحدها اذ كان زوجها فى الاسكندرية ، فطلبت منى أن أوصلها الى بيتها ، وسرنا معا فى الطريق فاذا بها تقول :

— أنا حريصة على صداقتك ٠

فقلت بصدق :

— وأنا حريص على صداقتك ٠

— ولا صداقة بلا احترام ٠

— وانى أحترمك ٠

— أكاد أقرأ فى نفسك تساؤلات محيرة ٠٠

— لست قليل الخبرة كما قد تظنين ٠

— ولكن قد يبدو لك زوجان شاذين لنظرتهما المغايرة للدنيا والحرية ؟

— لا أظن ٠٠

— أنا لم ولن أمارس الخيانة !

— لا تسيئى الظن بفهمى يا عزيزتى ٠٠

وحدثتنى عن ماضيها فقالت انها التحقت بالمدرسة الثانوية

وهى مزودة بارشادات أمها الطيبة المرددة لصوت الجيل السابق ، ولكنها سلمت نفسها لأول شاب بادلها الحب وهى تظنه سيفى بوعوده ، ثم كررت ذلك مرارا ، بدافع الثورة حينا وبدافع اللهو حينا آخر وبدافع الحب فى بعض الأحوال ٠

— وكنت أشعر بالخوف أحيانا ولكنى لم أشعر بالندم قط ٠٠

وتوقفت عن السير متأثرة ثم قالت :

— أصبحت سيدة نفسى ، وتحديت العالم كله ، بكل قيمه التى لم أعد أومن بها ٠٠

وواصلنا السير وهى تقول :

— وآمنت دائما بأننى نقية مثل الأوكسيجين ٠

ولما حم الافتراق شدت على يدى وهى تقول :

— نحن أمل المستقبل الحقيقى !

وبعد سنوات من تعارفنا اعتقل زوجها فيمن اعتقل من الشيوعيين ، فحزنت حزنا عميقا شاملا ، ونهضت بعبء الأسرة والابنين رغم اضطراب بطنها بجنين جديد ٠ وتوارت عن الصالونات والمعارض ولم نجد وسيلة للاطمئنان عليها الا التليفون ٠ وسألت يوسف بدران عنها فقال لى :

— علمى علمك ٠٠

فسألته بدهشة :

— ألا تتقابلان كالعادة ؟

— قطعت العلاقة مذ اعتقل الرجل ٠

— حقا ؟
— انها غريبة الأطوار ولكنى غير آسف •

انقطعت عنها فلم أعد أتذكرها الا لمناسبة • وزرتها بعد ذلك بسنوات — بعد الافراج عن زوجها — للتهنئة • كان ابناها طالبين فى الجامعة وكانت ابنتها فى السادسة • ودب النشاط فى حياتها مرة أخرى ولكنها لم تصل ما انقطع من أسبابها بيوسف بدران الذى تزوج فى تلك الفترة من مهاجرة فلسطينية مثقفة • ويوما كنت ويوسف فى زيارة للجبهة الشرقية ضمن مجموعة من المواطنين ، وجاء ذكر عزيزة فسألنى :

— أرأيت ابنتها الصغيرة ؟

فقلت :

— نعم ، وهى جميلة جدا !

فهمس فى أذنى بهدوء :

— انها ابنتى !

فقلت بذهول :

— كلا !
— هى الحقيقة !

ثم قال :

— حاولت اقناع عزيزة باجهاض نفسها ولكنها رفضت ••
— متى كان ذلك ؟
— فى الأيام السابقة مباشرة لاعتقال الرجل •
— ولم رفضت ؟

فصمت قليلا ثم قال :

— قالت لى لقد أحببتك حبا لم أحبه أحدا من قبل وسأحتفظ بثمرته !
— رغم أنها قاطعت الدنيا عقب اعتقاله !
— وزوجها هل يعلم ؟
— لا أدرى ••

وتفكرت قليلا ثم قلت :

— الحق أن البنت تشبهك !
— أجل ، ولذلك أحرص على تجنب رؤيتها !

وبحلول عام ١٩٧٠ أحرزت عزيزة عبده أول نجاح حقيقى فى حياتها الفنية بنجاح معرضها ، واعترف بها كفنانة مصرية أصيلة ••

عشماوى جلال

يقع بيته فى شارعنا عند طرفه الشرقى المتصل بشارع العباسية ، وهو بيت رمادى اللون ، مكون من طابقين ، وحديقة شبه مهملة لم يبق من زرعها الا ياسمينة ونخلتان وشجرة مانجو شامخة • وكلما مررت به ألقيت عليه نظرة مشحونة بحب الاستطلاع والنفور كحال سكان شارعنا جميعا • وأنا جديد طارىء على الحى ، وفى فترة التعارف والاستكشاف ، أشار صديق ــ لعله رضا حمادة ــ الى البيت وسأل :

ــ أتعرف بيت من هذا ؟

فأجبت بالنفى طبعا فقال :

ــ بيت عشماوى بك جلال !

وسرحت لحظة كالمذهول ثم هتفت :

ــ عشماوى بك جلال ؟!

ــ بنفسه ودون غيره !

ــ قاتل الطلبة ؟

ــ قاتل الطلبة !

ــ وهل ترونه ؟

ــ لا يعلم أحد بمكانه ، لا هو ولا أهله ، يخافون جمعية الكف السوداء ، ولكن هذا هو بيته ••

ــ أكانوا يقيمون هنا ؟

ــ نعم •

ــ ومتى هجروا البيت ؟

ــ مذ اشتهر الشيطان بقتل المتظاهرين ••

اقترن اسم عشماوى جلال بالرعب فى وجدانى منذ طفولتى • كان ضابطا كبيرا بلواء الفرسان بالجيش المصرى ، واستحق بجدارة أن يوصف بأنه العدو الأول لثورة ١٩١٩ فى الجيش المصرى • وجرت أخباره كحكايات الرعب بأنه يقتل بلا رحمة ، ويعذب ضحاياه فيربط الطلبة بجواده وينطلق به وضحيته يسحل خلفه مرتطما بالحصى والأسفلت حتى تفيض روحه • ولما تولى سعد زغلول الوزارة عام ١٩٢٤ أحاله الى المعاش فتسلل عائدا الى بيته المهجور بشارعنا ، وقبع فيه لا يبرحه كأنه سجن • وددت كثيرا أن أراه ولو مرة ، أجلت البصر فى النوافذ والشرفات والحديقة ، لمحت زوجته وابنتيه ولكنى لم أره أبدا • وكان اختفاؤه مثار الأحاديث ، فهو لا يغادر البيت ولا يظهر فى نافذة ولا يتمشى فى الحديقة ، وتعرض المناسبات فى الشارع فلا يزور ولا يجامل ، فكيف يمضى وقته ، وكيف يطيق سجنه ، قال جعفر خليل :

ــ انه ينفرد بنفسه لأنه لا صديق له •

وقال رضا حمادة :

ــ انه يخاف انتقام الشعب ••

وقال سرور عبد الباقى :

— يقال انه فقد البصر وعجز عن الحركة وأنه يتكتم ذلك حتى لا يشمت الناس به •

وكان له ابن وابنتان ، فأرسل ابنه الى انجلترا ليباشر دراسته الثانوية خوفا عليه من انتقام الطلبة فى القاهرة ، وسمعنا فيما بعد أنه التحق بكلية الطب فى لندن ثم عمل هناك طبيبا وتزوج وتجنس بالجنسية الانجليزية • وأما البنتان فكانتا تلعبان فى حديقة البيت ، وكانتا وسيمتين جذابتين فعجبت كيف ينجب الوحش مثلهما ، ولما حجبا — عند الشباب — كان عزفهما على البيان يترامى الينا فى الشارع ، فعجبت مرة أخرى كيف يعاشر الوحش الموسيقى والألحان ، وحوالى عام ١٩٣٥ تزوجتا من عريسين مجهولين ، ولم يعد فى البيت الا الرجل وزوجته ، ثم شاع فى الحى أنه هجر بيته تاركا زوجته وحدها ، وقيل — وأكدت زوجته ذلك — أنه أقام فى الأسرة فى الحجرة المعدة لاستقبال زوار القبرة فى المواسم وأنه أوصى بأن يدفن بعد موته دون جنازة أو احتفال ، وكانت زوجته جميلة وطيبة ، وقد خرجت من عزلتها عقب هجرته الى المدفن ، فزارت الجيران ، واكتسبت ودّهن بيسر ، وأصبح لها مكانة مرموقة فى الحى ، وكل ما عرف عن الرجل الوحش عد ذلك فمرجعه الى رجال الجيل السابق من قدامى سكان الحى ، قالوا عنه انه كان غلاما منطويا على نفسه ، ولكنه كان مهذبا ، ورغم اجتهاده فشل فى دراسته حتى اضطر أبوه

— وكان ناظر وقف صغير — الى الحاقه بالمدرسة الحربية وهو ساقط ابتدائية • متشفعا بصداقته لهربرت باشا ناظر المدرسة فى ذلك الوقت • ولدى تخرجه عمل فى السودان • فأثبت فى الخدمة كفاءة حازت تقدير الانجليز وخدمت سياستهم الموضوعة بحذق فى جباية الضرائب بقسوة لتنفير المواطن السودانى من الضابط المصرى ، ومن ثم نشأت بينه وبين الضباط الانجليز صداقة حميمة • وكان عشماوى جلال يعجب بالانجليز اعجابا فاق الحدود ، ويحبهم حبا عظيما ويتيه بصداقتهم ويعتدها عزته الأولى فى الحياة • وكان يمضى اجازته السنوية فى انجلترا سائحا ومستطلعا حتى آمن بأن الانجليز هم سادة البشر وأنهم المبعوثون من العناية الالهية لتمدين البشر وخاصة المتأخرين منهم كالمصريين • وأخبرنى رضا حمادة أنه بسبب آرائه تلك احتدمت المناقشة بينه وبين والده الدكتور يوما حتى تبادلا كلمات قاسية قطعت ما كان بينهما من علائق المودة والجيرة •

ولما قامت ثورة ١٩١٩ دعى الجيش المصرى لمساعدة جيش الاحتلال فى قمع الثورة والقضاء على الثوار ، ولكنه لم يحز الثقة أبدا ، وافتضح تعاطفه مع الثورة ، وولاؤه لزعيمها ، بل وتصديه جهارا للدفاع عنه عندما تآمر أعداؤه على الغدر به • ولكن شذ عن ذلك عشماوى جلال باندفاعه الجنونى فى الهجوم على الثوار والغدر بهم وتعذيب زعمائهم من الطلبة حى فاق

الانجليز أنفسهم فى عنفهم وقسوتهم ، وحتى احتل فى قلوبهم منزلة لم يحتلها مصرى من قبل • وأبغضه مواطنوه حتى الموت ، ولم يعطف عليه السلطان لعلمه بأن اخلاصه كان وقفا على سادته الانجليز لا عليه ، وبذلت محاولات لقتله لم تكلل بالنجاح ، وان أصابته شظية قنبلة وطنية اصابة سطحية فى ساقه • ولم يكترث الرجل لموقف الشعب منه ، وتمادى فى ضلاله كأنما كان يؤدى فريضة دينية • وقالت زوجته ضمن أحاديثها عنه مع جاراتها ان والدها طالبه يوما بالاعتدال وأنه قال له :

— قم بواجبك بلا تورط فى الأعمال المتطرفة ••

فقال له :

— انى لا أقوم بواجبى كضابط فحسب ، ولكنى أدافع عن مبدأ ، فانى أعتقد أن استقلال مصر عن انجلترا سيودى بها الى الانحلال والفساد ، وأننا اذا خرجنا من الامبراطورية خرجنا من الحضارة ! •

وتوفيت زوجته بالسكتة قبيل الحرب العظمى الثانية فدفنت على بعد أذرع من مقام الرجل الوحيد فى حجرة استقبال المدفن • ولحق بها فى العام الأول من الحرب بعد أن تمكن منه تليف الكبد ، ومن العجيب أن اسمه لم يمح من ذاكرة جيلنا حتى اليوم ، وأن الكثيرين ما زالوا يحفظون الأغنية الشعبية التى وضعت بقصد التشهير به •

عصام الحملاوى

كان بيت آل الحملاوى يطل على شارعنا بضلع كما يطل على بين الجنانين بضلع آخر · وهو أكبر بيوت الشارع ، وذو حديقة واسعة تحيط به من جميع الجهات ، ويتراءى من فوق أسواره العالية رءوس النخيل والمانجو بكثرة مذهلة · وكان ربه عصام بك من الأعيان والمضاربين فى البورصة ، وكانت أسرته تتكون من زوجة وثلاث بنات · وكان الحنطور يحمله فى الذهاب والاياب معلنا برنين جرسه عن تحركاته · ولم تكن الأسرة تنتسب الى زماننا ، ولا ألوانها البراقة تنتمى الى جنسنا ، وهى وحدة كانت مستقلة بذاتها ، لا سبب يربطها بمن حولها من الجيران ، فلا تزور ولا تزار ، ولا تتبع تقليدا ، ولا تحترم موسما ، واذا خرجت الأم وبناتها — راكبات أو راجلات — خرجن سافرات فبهرن الأعين ببشراتهن العاجية وشعورهن الذهبية وعيونهن الملونة · وخرق عصام بك المألوف والمعقول عندما دعا الى بيته ممثلة مشهورة ، وعندما مضت تتردد عليه فى أيام محددة ، وسرعان ما عرف أنه اتخذها عشيقة · بل نشرت مجلة الفن أنه أهدى اليها عقدا ثمنه عشرة آلاف جنيه · وكنا نتجمع فى الشارع لنشهد مقدمها واستقبالها ونسعد بذلك حتى قال جعفر خليل :

- نحن نشاهدها بالمجان أما بقية المسرحية فلا يمكن تخيلها !

وتساءل خليل زكى :

- كيف يتصرف البك القواد أمام زوجته وبناته ؟

فقال سيد شعير :

- يتصرف أمامهن كما يتصرفن أمامه !

وكان بيت سيد شعير أقرب بيوتنا الى بيت آل الحملاوى ، وكان آل الحملاوى يثيرون اهتمامه للدرجة القصوى ، فجاءنا يوما وهو يقول :

- انكشف الغطاء !

والتففنا حوله متلهفين فقال :

- الهانم تعشق محمد الكواء !

- محمد الكواء !

كنا نعرفه تماما فهو كواء الشارع ، والى ذلك كان فتوة كما كان أعور ، ولم نتصور أن الهانم الجميلة التى كنا نشبهها بماى موراى يمكن أن تعشق ذلك الأعور ذا الكرش المترامية والرقبة الغليظة والوجه المفلطح . وقال سيد شعير :

- وهى تذهب الى بيته متخفية فى الملاءة اللف ، رأيتها بعينى !

واستغنت المرأة عن الاستخفاء فكان الكواء يحمل الملابس بنفسه ويذهب بها الى البيت فلا يغادره الا بعد ساعة أو ساعتين . وحدث أن اصطحب عصام بك الممثلة الى رحلة خارج القطر فكان

الكواء يتردد على البيت لمناسبة ولغير ما مناسبة ، ومضى يبيت فيه جهارا وبلا حذر . وفى أثناء ذلك كان البنات الثلاث يخرجن معا الى أطراف العباسية الشرقية فيقابلن المعجبين ، أو يستقبلنهم مساء فى حديقة البيت ، ورأيت بين أولئك عيدمنصور وشعراوى الفحام وقريبى أحمد قدرى وضابط قسم الوايلى وطبيب أسنان الحى ومدرس فرنسى ! . وتوهمنا أن واجب الرجولة يطالبنا بالتحرش بالبيت وبالمترددين عليه ولو بالقذف بالطوب من بعيد لصغر سننا وضعفنا ولكن شرطيا انبرى لحماية البيت ، ربما بايعاز من ضابط القسم العاشق . وكنت اذ ذاك غارقا فى حب صفاء فغضبت أضعافا على سلوك بنات عصام ، واعتبرته زراية وتلويثا لأسمى عاطفة فى الوجود . ولكن بدءا من عام ١٩٣٠ حدث ما خيب تقديرات أهل الحى جميعا . فقد تزوجت البنات الثلاث تباعا ، وفزن بزيجات ممتازة ! . تزوجت الكبرى من مهندس ، والوسطى من سكرتير وزير ، والصغرى من محام ناجح . والأعجب من ذلك أنهن قاطعن حياة بيتهن مقاطعة شاملة فكون أسرا كانت مثالا فى التوفيق والاستقامة ! . وفى الخمسينيات وما بعدها صادفت بعضا من أبنائهن من الشباب الموفق الناجح ، ومنهم من عرف بالوعى السياسى التقدمى . وقد توفى عصام بك فى أيام الحرب العظمى الثانية ، فى نفس الأسبوع الذى قتل فيه شعراوى الفحام .

ووزعت التركة فورثت الهانم دخلا كبيرا ، وكانت فى الخمسين من عمرها ولكن حيويتها فاقت سنها ، كما احتفظت من جمالها بقدر موفور ٠ ومكثت فى البيت وحدها ، وأصبح من النادر أن تزورها احدى بناتها ، وذهبنا فى تفسير ذلك مذاهب لا تخلو من سوء ٠ والواقع أن علاقتها بالكواء كانت وما تزال مستمرة ، ولكن بدا أن الرجل أراد التخلص منها ، حتى أنه صفعها مرة أمام دكانه وعلى مرأى من بعض الخدم وهى تحاوره بما لم يسمعه أحد ٠ ولم تمض أسابيع حتى نشأت علاقة جديدة بينها وبين القصاب ، حتى قال جعفر خليل ضاحكا :

ـ الولية ارستقراطية ولكنها ذات ميول شعبية !

وفى أواخر أيام الحرب باعت البيت وغادرت الحى ، ولكنها لم تغب عن ناظرى طويلا ، اذ كانت ترى جالسة فى مقهى اللواء أو جروبى أو الأرجنتين ، تشرب كأسا ، ثم تمضى وقد اصطادت شابا ، حتى اشتهرت بذلك فى وسط المدينة ٠ ورأيتها فى أثنيوس بالاسكندرية تلعب نفس اللعبة٠ وتغيب فترة ـ طويلة أو قصيرة ـ ثم تظهر مرة أخرى فى نفس الأمكنة لتلعب نفس الدور ، هذا والكبر يزحف والذبول يستفحل والفخامة تقل مما قطع بأن نقودها تنفد مثل أيامها ٠ وكلما رأيتها من جديد أدركت أنها تتدهور وتقترب من النهاية المحتومة ٠ لم تعد الا عجوزا معدمة أو شبه ذلك ، وسارع اليها الانحلال والتفسخ ٠ وامتنعت

عن الذهاب الى تلك الأماكن الفاخرة أو اضطرت الى ذلك ، فقنعت بالتجوال فى الشوارع فى ملابس رثة ممزقة ، ثم لم تعد تظهر الا فى جلباب وشبشب ، وانتهى بها الأمر الى التسول أو ما هو قريب من ذلك ٠ لم أرها تمد يدا ولكن بعض أصحاب المطاعم الصغيرة ممن وقفوا على سيرتها المشهورة كانوا يتصدقون عليها بالسندوتش أو ببعض النقود ٠ وما زلت كلما لمحتها أستشعر رجعا من الأسى وأستقبل فيضا من ذكريات الشارع القديم بالصورة التى كان عليها على عهد الفوانيس المدلاة من أعالى الأبواب والحقول المترامية والهدوء الشامل ، تلك المرأة التى راحت ضحية لنهم جنونى بالحياة ، والتى يسعى من حولها أحفادها الناجحون وهم على جهل تام بأشجانها ووحدتها ٠٠

عيد منصور

من مجموعتنا العتيدة ، صادقها وصادقته ، واتصلت بيننا الأسباب على مدى العمر ، ولكنه كان وما زال الصديق بلا صداقة · وكان وما زال بلا قلب، حتى خليل زكى له قلب وحتى سيد شعير له قلب ، أما عيد منصور فلا قلب له · وكان يعيش مع أبيه وخادم عجوز ولا رابع لهم ، أما أمه فماتت عقب انجابه مباشرة · وكان أبوه تاجر عمارات ، عمل مع اليهود طويلا ، واكتسب الكثير من أساليبهم ومهاراتهم · وكان عجوزا فقد أنجبه وهو فى الخمسين ولم يتزوج مرة أخرى بعد وفاة زوجته فكان عيد وحيده ، وكان بخيلا ، دقيقا ، فظا ، جامد المشاعر فربى ابنه تربية شديدة لا رحمة فيها ولا مهادنة ، مصمما على اخراجه على نمطه ، فلم يعرف صديقنا المعاملة العاطفية ولا جرب الحنان أو الرحمة ، كأنما كان يتكون فى معسكر لاعداد الارهابيين · لذلك تجلت مواهبه منذ سن مبكرة ، فنشأ عمليا ، صارما ، ذا عقل نفعى ، وبلا قلب ، وما زال كذلك حتى اليوم والغد · ومنذ الصغر اتخذ من القرش معبودا ومقياسا للرجولة والتفوق ، ولم يتسع قلبه الا لذلك المعبود الأوحد · وكما قلت فهو الصديق بلا صداقة ، صديق بحكم الجوار

والزمالة واللعب وعشرة العمر ولكن بلا عاطفة ولا مودة ولا حب حقيقى ، يضحك للكارثة كما يضحك للنكتة ، فلم يعان أى تأثر لموت شعراوى الفحام ولا لموت جعفر خليل ، ويوم قتل زميلنا بدر الزيادى فى الاضراب لم يكن يخفى ارتياحه لخلو الميدان من منافسه فى رئاسة فريق الكرة ، ولما شعر يومها بعينى تحرقانه عض على أسنانه ليمنع ضحكة من ضحكاته القاسية فقلت له :

ـ أنت شيطان !

فهمس فى أذنى :

ـ ربنا يسمع منك !

ثم بمزيد من السخرية :

ـ لا فرق بينى وبينكم الا أننى صادق غير منافق !

واعتاد أن يعيش بحكم تربيته ومزاجه خارج دائرة تقاليدنا وديننا وأشواقنا ، بحكم تربيته ومزاجه وبلا دخل من تفكير أو فلسفة ، وبلا دافع من الفساد والشقاوة كما كان الحال مع خليل زكى وسيد شعير ، فلم تحتشد قواه الا للعمل والربح ، العمل والربح وحدهما ، حتى الجنس وهو الترفيه الوحيد الذى مارسه لم يشغل الا هامش وقت فراغه · وما ان حصل على البكالوريا عام ١٩٣٠ حتى أشركه أبوه فى العمل ، وظل يدربه حتى مات عام ١٩٣٥ مخلفا عليه ثروة طائلة · ورغم مغامراته فى حديقة بيت آل الحملاوى فلا أعتقد أنه تعلق بامرأة مثلما تعلق بثريا

رأفت . رآها وهو يعمل مع والده فاندفع فى اغرائها ، وقد قال لى :

ــ مر بى وقت وقعت فيه تماما تحت سيطرتها ولو تمنعت على تماما حتى النهاية لربما ..

وسكت فسألته :

ــ لربما تزوجتها ؟

ــ على الأقل كنت فكرت فى ذلك ..

فسألته :

ــ ألم تحزن أو تخجل من الغدر بها ؟

فقال وهو يضحك :

ــ لا أظن ..

لم يعرف الحب ، ولا رغب فى الزواج ، ولا حن الى الأبوة ، وحتى اليوم وهو فى الستين أو جاوزها بقليل ما زال يعمل بنفس الهمة ويجمع المال بنفس النهم ولم يعرف للحياة غاية أخرى . وكنت أضيق به اذا سخر من عواطفنا الوطنية كما ضقت به يوم سخر من بكائى لوفاة سعد زغلول ، ولكنه كان يستهين بكل ذلك ويقول :

ــ لولا الانجليز ، لولا اليهود ، ما كان لهذا البلد حياة !

وظل يردد ذلك حتى آخر يوم للانجليز فى مصر . ومع أنه كان بخيلا كأبيه الا أنه استن لنفسه سنة جديدة فى البخل ، فقرر ألا ينفق مليما لغير ما ضرورة بشرط أن يهيىء لنفسه حياة رغدة .

ــ أنا أعزب وسأظل أعزب وبلا وريث فيجب أن أتمتع بحياتى ..

طالما احتقر الزواج واعتبره عجزا وغباء ، ويبدو أنه لا يندم على قرار اتخذه أبدا ، وكلما تقدم به العمر نعم برضاه عن نفسه وعن قراراته . ومنذ عام ١٩٣٦ غادر حينا بعد أن باع البيت ، وأقام فى فندق ميناهاوس اقامة دائمة مفضلا الفندق لما يوفره له من خدمة شاملة وليعفيه من هموم المسكن المستقل المتنوعة ، وفى الوقت نفسه استأجر بيتا ريفيا فى الهرم لمغامراته النسائية المتقطعة ، اذ لم يكن يحب العلاقات الطويلة ويفضل غوانى الملاهى الليلية من الأجانب ، ولم يضن على نفسه بفاخر الطعام والشراب مع اعتدال تام فى الخمور ونفور طبيعى من المخدرات . وكان يقضى لياليه فى سمر تجارى مع العاملين معه فى حقل تجارة العمارات ولكنه لم ينقطع عنا فى ليالى سهراتنا الأسبوعية . وكان يهمه أن يقارن بين نجاحه وبين نجاح أصدقائنا الناجحين أمثال الدكتور سرور عبد الباقى والأستاذ رضا حمادة ، ولم يخف ادلاله بالتفوق عليهما فى الثروة التى يعتبرها القيمة الأولى والأخيرة فى الحياة .. وقد داعبته يوما قائلا :

ــ ها هو خليل زكى ينافسك فى النجاح والثروة !

فقال باحتجاج :

ــ انه قذر حقير .

فسألته :

ـ أتعتبر نشاطك المالى نشاطا شريفا ؟
فقال بصراحة معهودة فيه :
ـ الشرف تتغير معانيه من بيئة لأخرى ، قد أقوم بصفقة تعتبر فى نظرك نهبا ولكنا نعتبرها خبرة وذكاء ولكنى أحتقر أساليب خليل زكى التى تعد من خبرة الفقراء !

وأحبته غانية افرنجية ، ومضت تراسله ، فكان يقرأ علينا رسائلها ساخرا ويقول :
ـ هكذا تتوهم المرأة أنها تحب اذا رغبت فى الاستحواذ على رجل وامتلاكه !

وتجلت عواطفه العامة فى أبشع صورة يوم نشبت الحرب بيننا وبين اليهود عام ١٩٤٨ ، حتى خيل الى أنه يكره وطنه لأسباب لا أدريها ، أو أن مصالحه التجارية أفسدت عليه الميول التى نعتبرها فطرية ، وتكرر ذلك الموقف منه عام ١٩٥١ لدى الغاء المعاهدة وكفاح القنال ، ولذلك كان يكره الوفد بالرغم من لامبالاته السياسية بصفة عامة ، على أن حياته واصلت مسيرها فى استقرار حتى قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ · ومع أن الثورة لم تقتحمه بصفة عامة الا أنها زعزعت طمأنينته وأقلقت ثقته · توالت عليه الهموم بالغاء النظام الملكى واعلان الاصلاح الزراعى والجلاء · توثبت فى أعماقه غريزة الدفاع عن النفس، وأدرك ـ وان لم يكن هدفا مباشرا ـ أنه ضمن الجبهة التى تهب عليها العواصف وأنها قد تقتلعه عاجلا أو

آجلا · وهيأ له الاعتداء الثلاثى عملية نقل دم ولكن سرعان ما انطفأت شعلة الأمل ، واختفى من الميدان كثيرون من أصدقائه اليهود حتى قال لى يوما :
ـ كم أتمنى أن أهرب أموالى وأهاجر !
ولما قرأ الوجوم فى وجهى قال :
ـ لم تعد مصر بالمقام الصالح للأذكياء !
ثم ضحك ضحكته القاسية وقال :
ـ لو لم أكن مصريا لتمنيت أن أكون مصريا ·

وتابع نشاطه بنفس القوة بالرغم من مخاوفه ، واسترد أنفاسه فى يونية ١٩٦٧ ، ومع أنه راقب الأحداث التالية للهزيمة بدهشة وذهول الا أنه لم يفقد الأمل هذه المرة ، وقال لى بشماتة :
ـ لا مفر !
وقال أيضا :
ـ طبعا سمعت عن صحوة الموت !

ومرت أشهر ، وعام وعامان وثلاثة أعوام ، وتحسنت الأحوال ، وصلبت الارادة ، وتجددت آمال النضال ، ولكن ذلك لم يهزمه وان أقلقه أحيانا ، واعتصم بفكرته الثابتة ، وغذاها بمتابعة الاذاعات المعادية ، والاشاعات المغرضة ، ولما وجد منى ومن رضا حمادة اتهاما لوطنيته قال :
ـ لا وطن بعد اليوم الا وطن المصالح ، فاما أن تكون أمريكيا واما أن تكون سوفييتيا ، اما أن تقبل

الحرية والارادة الخلاقة والانسانية واما أن تقبل النظام والعدالة العمياء والارادة الميكانيكية !

فقد الأمل فى الانجليز ، وأصبح حلمه الذهبى أن تسيطر أمريكا على الشرق الأوسط وأن تحدد له مدارا حضاريا فى مجالها الحيوى يلعب فيه العرب واليهود دورا متكاملا ٠

هكذا علمته المصلحة أن يتكلم فى السياسة ، وما زال يعمل، يشيد العمارات ويبيعها، يقيم فى ميناهاوس يستمتع بحياته كأعزب مقطوع من شجرة ، ويمارس الجنس كل شهر مرة ، ويزورنا فى أوقات محددة تحية لعشرة نصف قرن ، صداقة بلا حب حقيقى ولا احترام، نراه مخلوقا شاذا قد من حجر ويرانا مجموعة من الحمقى العابثين بلا قيمة حقيقية ٠٠

غانم حافظ

كان مدرس الرياضيات فى المدرسة الثانوية ، وكان وقتها شابا ، عرف بالأدب والوقار وحسن المعاملة فلم يخرج تلميذ فى معاملته عن حدود الأدب ، حتى الذين عرفوا بالشقاوة مثل جعفر خليل وبدر الزيادى وعيد منصور ٠ طلبه عيد منصور مرة لدرس خصوصى بعد أن أقنع أباه بأن أجرة الدرس الخصوصى أرحم من مصروفات سنة اعادة ٠ وقابل غانم أفندى حافظ والد عيد فسأله الرجل عما يطلب فطلب ريالا فى الساعة ولكن الرجل فزع وقال انه لا يدفع أكثر من شلن ، فابتسم غانم أفندى حياء واقترح أن يعطيه الدرس مجانا بشرط أن يحضره مع تلميذ آخر فى نفس الحى ، وقد كان ، وتلقى عيد منصور درسا خصوصيا فى الحساب مجانا طيلة شهرين ! ٠ وقد رأيته وهو يبكى يوم مصرع بدر الزيادى ، وكان جزاؤه منا حبا واحتراما ٠ وبعد التحاقى بالجامعة عرفته عن كثب فى مقهى الحى ، فتحولت التلمذة الى صداقة ـ وكان أهم ما يميزه دماثة الأخلاق وهدوء الطبع وأناقة الملبس ، كان يجالسنا يوم واحد فى الأسبوع ـ وخاصة فى العطلة الصيفية ـ يدخن النارجيلة ، يصغى فى أدب ومجاملة

وقليلا ما يتكلم . وكان يعالج شتى الموضوعات فى اطار طبعه الهادىء ،ومهما يكن من عنف الموضوع وشدة حرارته فانه يتحول على لسانه همسا عذبا تحيطه هالة باسمة . لم ير غاضبا أو محتدا أو صارخا ، حتى السياسة كان يترجمها حديثا جذابا لطيفا غاية فى الوداعة ولو هوجم حزبه المحبوب الوفد . واذا تصدى للدفاع قال :

ــ انهم ناس طيبون !

أو يقول :

ــ مصطفى النحاس ؟ .. انه رجل طيب مبارك !

وأقسى ما يذهب اليه فى الدفاع أن يقول :

ــ سامحك الله !

واقتصر نشاطه السياسى على ذلك ، وعلى التوجه يوم الانتخاب ــ اذا تقرر اجراء انتخابات حرة ــ الى اللجنة لاعطاء صوته لمرشح الوفد . ولذلك لم يشترك فى ثورة ١٩١٩ الا بقلبه وحده . وكان جم التواضع ، لا يخجل من أصله بخلاف الكثيرين من أهل طبقته ، فحدثنى مرة عن أصله قائلا :

ــ كان أبى شرطيا ..

ثم قال :

ــ وكان همه أن يجعل منى شرطيا غير أن جارا لنا ــ تاجرا ــ نصحه بادخالى المدرسة الابتدائية ، ففعل ، ونجحت نجاحا استحققت عليه المجانية حتى نلت

البكالوريا ، ولم أجد مدرسة ميسرة أمامى الا المعلمين فدخلتها ! .

وتزوج من كريمة مدرس اللغة العربية وكانت حاصلة على الشهادة الابتدائية .

ــ وكانت أسرة زوجتى على تواضعها أرقى من أسرتى فصادفتنى متاعب مؤسفة ..

ثم قال بشىء من الحزن وفى صراحة مؤثرة :

ــ كان الموقف يتطلب شخصا أصلب منى ! ، ولكن زوجتى أنجبت لى ثلاثة ذكور !

كان له يوم ترفيه واحد يمضيه فى المقهى ولا يغادر أهله بعد ذلك الا لعمل ، ومرت أعوام حافلة بالتاريخ وهو قابع فى عشه يراقب الأحداث من بعيد ، يناقشها بهدوء ويعلق عليها برقة ، مركزا على تربية أولاده الثلاثة حتى تخرج بكريه ضابطا فى سلاح الفرسان ، والأوسط مهندسا ثم التحق بالجيش ، والثالث بيطارا . وقد نجا ابناه من حرب ١٩٥٦ بأعجوبة فحمد الله وشكره ، وواصل عمله حتى أحيل على المعاش عام ١٩٦٠ ، وهو يتمتع بصحة جيدة وحياة زوجية سعيدة . ولما احتشدت قواتنا فى سينا فى أواسط عام ١٩٦٧ خفق قلبه بعنف بعد طول هدوء ، وراح يسأل كل من هب ودب :

ــ حرب أم لا ؟

ووقعت الواقعة ، وانحسر الظلام عن شىء من النور ، فرجع الابن الأوسط مصابا اصابة غير قاتلة ،

أما بكريه فاعتبر من المفقودين ، وهزته الصدمة من الأعماق ، وتبـدد هدوءه التقليدى فانهـار انهيـارا يدعـو للرثاء ، وكان يحب أبنـاءه كأم ، ورفض أن يصدق أن ابنه قتل ، وظل يحلم دائما بمعجزة تعيده اليه سالما ٠ وما لبث ابنه الأوسط أن تماثل للشـفاء فعاد الى الجبهة ، وبقى الرجل ممزقا بين أحلامه عن المفقود وخوفه على المقاتل ، وهو يتابع أنبـاء الجبهة ساعة بعد سـاعة ويوما بعد يوم ، ترجفـه أخبـار الغـارات فى الأرض والسماء ، ويخذله ايمـانه رغم رسوخه ، ويزلزله حبه العميق لأولاده ٠ وأراه أحيانا شـيخا عجوزا محنى الظهر قليـلا أبيض الشـعر ، يجلس شـارد النظـرة ، يفكر فى المجهـول ، لا يبشر منظره بقدرة على مواجهة الحياة بمطالبها الجامحة ، فأحتـار طويلا بين العتب عليه والرثاء له ، ثم أنضم اليه مواسيا ٠ ثم نتبادل التخمينات عن الغيب ٠

فايزة نصار

تعرفت بها فى بيت عجلان ثابت بالجيزة حوالى عام ١٩٦٠ كما تعرفت بزوجها فى نفس الزيارة ٠ كانت فى الثلاثين ، لوجهها طابع ريفى رائق بالرغم من أناقتها العصرية ٠ وهى وان تكن متوسطة الجمال الا أنهـا ذات جاذبية جنسية قوية ، أما زوجها ـ عبده ابراهيم ـ فصاحب جراج فى الخمسـين ، بدين مترهل خامل المظهر ، يشترك فى الحديث بالنظـرة أو الابتسـامة البلهاء ولا يكاد يتكلم ٠

قال لى عجلان :

ـ انها جارتنا فى نفس العمارة وصديقة زوجتى ٠

فقلت :

ـ زوجها غير مقنع !

ـ ولكنه ذو دخل محترم ، أنجب منها طفلين ، وهى أم لا بأس بها وان تكن أمية !

ـ تبدو ذكية ٠٠

ـ فى الأصل كانت ابنـة بياعة جبن وزبدة ، ولكن استعدادها للتأقلم قوى ، وهى تتقدم بفضل الاذاعة والتليفزيون والصديقات ٠٠

وفى زيارة تاليـة لبيت عجلان ثابت قابلت فايـزة نصـار وكانت بصحبة رجل أربعينى حاد البصر قوى

الجسم • علمت أنه يدعى جلال مرسى وأنه صاحب كازينو الهرم • وقال لى عجلان ثابت باستهتاره المعروف :

ـ فى المرة السابقة عرفت زوج فايزة وها أنت تعرف فى هذه المرة عشيقها !

وضجت الحجرة بالضحك ، زوجة عجلان وفايزة وجلال صاحب الكازينو ، وقال جلال :

ـ لا تصدق !

فسألته فايزة بنبرة وعيد :

ـ هل تنكرنى ؟

فأحنى رأسه بخشوع وقال لى :

ـ صدق يا سيدى ••

وقال عجلان ثابت :

ـ وهو صديق الزوج !

ودعتنى فايزة لزيارة بيتها فتوطدت العلاقة بينى من ناحية وبينها وبين زوجها من ناحية أخرى • وذهبت فى صحبتهما مرات الى كازينو الوادى فكان ينضم الى مائدتنا جلال مرسى ، ولمست مدى عمق العلاقة بينه وبين الزوجين • ولم أقطع برأى فى مدى معرفة الزوج بالعلاقة بين زوجته وعشيقها ، وحتى عجلان ثابت لم يعلم أكثر مما أعلم ، ولكنه قال لى :

ـ تعود على هذه العلاقات حتى تبرأ من عبوديتك البرجوازية •

ومرة وكنا مجتمعين فى بيت عجلان أنا وعجلان

وزوجته وفايزة • فأشار الى دون تمهيد وبلا مناسبة وقال لفايزة :

ـ انه يعانى من عشقه لك !

وانتقلت الى جانبى بخفة وطوقت عنقى بذراعها السمراء البضة وقالت :

ـ أرنى !

فقال عجلان ضاحكا :

ـ بهوادة حتى لا يفزع •

فقالت :

ـ ولكن تحت شرط ••

وسألها عن الشرط فقالت :

ـ ليلة واحدة ••

ثم وهى تنظر فى عينى :

ـ المرأة الفاضلة يكفيها زوج وعشيق واحد !

هكذا كانت فى مزاحها ، ولكنها ـ فيما علمت ـ كانت تحب جلال حبا حقيقيا • وكانت فى الوقت نفسه تحرص على نقاء بيتها وتربية طفليها تربية حقيقية ، وقال لى عجلان :

ـ ان ما يتعبها حقيقة هو طموحها ، فبالرغم من أميتها تحلم بأن تكون شيئا عظيما !

فتساءلت :

ـ لعله المال !

ـ حياتها رغدة ، ولكنها تحب المال ، وشيئا أكثر من المال ••



ـ أى شىء ؟

ـ الفن ان صدق تخمينى !

ثم قال لى :

ـ كلفت أن أدعوك لزيارتهم معى ٠٠

فقلت وأنا أتساءل عن السبب فقال :

ـ يبدو أنه أمر هام ، وسنعرفه فى الحال ٠

وجدنا فايزة وزوجها وعشيقها فسلمنا وجلسنا ونحن نشعر بأن توترا ما يكهرب الجو والوجوه ، وسرعان ما قالت فايزة :

ـ المسألة وما فيها أن أحد المخرجين عرض على دورا هاما فى فيلمه القادم !

ونظرت فى وجوهنا وقالت :

ـ ما رأيكم ؟

ـ ولما رأيت عينيها تطاردانني قلت :

ـ المسألة تتعلق بك وبالسيد عبده أولا وأخيرا ٠

فقال عبده ابراهيم وهو يرفع وجهه ليجد الكلام ممرا خلال لغده :

ـ سيدات العائلات يمثلن فى هذه الأيام ٠٠

ولكن جلال مرسى تساءل :

ـ أود أن أعرف كيف ومتى رآك ، ذلك المخرج ؟

فأجاب الزوج :

ـ رآنا ونحن عندك ليلة فى الكازينو ٠٠

ـ وهل تجلت له موهبتها من النظرة الأولى ؟

ـ هذا شأنه لا شأننا ٠

فقال جلال :
ـ كصديق مخلص لكما لا أوافق على دخولها ذلك الميدان ٠
فسألته فايزة وهى تبدو سعيدة رغم التوتر العام :
ـ لم ؟
ـ لم تظهرى فيما سبق أى اهتمام بالفن ٠
ـ لم توجد مناسبة ٠
ـ انه لا يولد فجأة ولا لمجرد أن مخرجا اقترحه ٠٠
ـ بل هكذا يولد ٠
فقال الزوج :
ـ أظن ذلك ٠
فقال جلال بحدة :
ـ انهم لا يعرضون الأدوار لوجه الله ٠
فقال عجلان ثابت :
ـ لوجه الفن ٠
فقال جلال :
ـ ولا لوجه الفن !
فقالت فايزة :
ـ لست قاصرا !
وقال الزوج :
ـ انها أهل للثقة ٠
فقال جلال باصرار :
ـ كصديق مخلص لكما لا أوافق ٠
فقال الزوج :

ـ هذه فرصة لا يجوز اهمالها ٠٠
ووافق عجلان على رأيه كما وافقت أنا وكأنما كانت مؤامرة بلا تدبير سابق ، وقام جلال مرسى فحيانا ومضى وهو يقول :
ـ قلت رأيى وأنا مصر عليه ٠
وقال عجلان بخبث :
ـ عليك أن تقابل المخرج فى أسرع وقت ٠٠
وعندما غادرنا البيت أنا وعجلان قلت له :
ـ عبده ابراهيم بكل شىء يعلم !
فضحك عاليا وقال :
ـ وانتهز الفرصة فوجه الى غريمه ضربة موفقة ٠
ـ ولكنها ماذا ستفعل فيما ترى ؟
فتفكر قليلا ثم قال :
ـ ان صح ظنى فطموحها أقوى من عشقها !
وصدق ظنه ٠ قامت بتمثيل الدور ٠ وكانت مفاجأة فنية لا يستهان بها ، ودعيت الى تمثيل دورين جديدين ٠
وهجرها جلال فلم تسع لاسترداده ٠ وما لبث زوجها أن طلقها بحجة حماية بيته وطفليه من الجو الفنى الذى أخذ يغزو بيته ، ودل بقراره ذلك على أن خموله لم يكن الا قشرة تخفى وراءها حقدا طويلا ٠ وانتقلت فايزة الى شقة صغيرة وأنيقة بالزمالك ٠ وقد زرتها يوما بصحبة عجلان فالتقيت عندها بالدكتور صادق عبد الحميد وعشيقته الصحفية نعمات عارف

زوجة الدكتور زهير كامل التى تخصصت أخيرا فى النقد الفنى ، ووجدت فايزة مرحة كعادتها ، وسعيدة بالنجاح ، حتى قال لى عجلان ونحن راجعان معا :

ـ محتمل أن تحن أحيانا الى طفليها ولكنها ليست بالتى تنهار بسبب ذلك ، أعترف لك بأننى أسعد بنجاح أى فلاح أو فلاحة ، مهما يكن ثمن ذلك النجاح !

فتحى أنيس

لفت نظرى مذ رأيته فى أول يوم التحقت فيه بالوظيفة · حسبته موظفا كبيرا أو سليل أسرة عتيقة ، وكم دهشت عندما تبين لى أنه كاتب القيد بالسكرتارية · كان فى الثلاثين من عمره ، شهادة ابتدائية ، مرتب ثمانية جنيهات ، متزوجا وأبا لخمسة أبناء ، ولكنه كان طويلا رشيقا عظيم القسمات ، حتى قال لى الأستاذ عباس فوزى :

ـ انظر الى عبث الطبيعة ، جادت عليه بمنظر يليق بموظف استقبال بالخارجية ولكنها ضنت عليه بما ينفعه أو ينفع الناس ·

وكان يقول عنه أيضا :

ـ انه حي لا يرزق !

وكان مسئولا عن أم وأختين مطلقتين ، فاستقبل أيام الحرب وارتفاع مستوى المعيشة وهو على تلك الحال · ولم يكن نادرا أن يقترب من عباس فوزى أو عبد الرحمن شعبان ويقول ببساطة :

ـ من يعطينى قرشا أشترى به سندوتش فول وله الجزاء الأوفى فى يوم القيامة ؟

وكان اذا لمح أحدا من الأهالى فى الممشى الخارجى

بادر اليه فيسأله ان كان فى حاجة الى خدمة ويؤديها له عن طيب خاطر ، وفى الختام يسأله بلا حياء :

ــ هل أجد عندك سيجارة ؟

وعطف الأستاذ عبد الرحمن شعبان عليه يوما فقال للأستاذ عباس فوزى :

ــ حال فتحى تستحق النظر ·

فصدق الرجل على قوله وقال :

ــ العين بصيرة واليد قصيرة !

فقال عبد الرحمن :

ــ أسعفوه بوظيفة يمكن أن تدر عليه رشوة !

فقال عباس فوزى باسما :

ــ توجد فرص فى المستخدمين والحسابات والمخازن والمشتريات ولكنه بدون مؤهلات ··

فقال عبد الرحمن فى شبه غضب :

ــ يوجد مديرون بالابتدائية ·

ــ أعنى بالمؤهل الوساطة ويبدو أن أعظم من يعرف فى الحياة هو عم صقر الساعى !

واهتدى الى وسيلة يستغل بها منظره فى مقاومة الجوع ، فكان يتقدم الى أسرة ما كخاطب ، فيقابل بالترحيب من ناحية المبدأ حتى تتم الاستعلامات عنه ، وفى الفترة الموضوع فيها تحت الاختبار يزور الأسرة فيستقبله رب البيت ، ويتعمد البقاء حتى وقت الغداء أو العشاء ، ولما يدعى للمائدة يلبى وهو يقول :

ــ لا يأبى الكرامة الا لئيم ·

ثم يأكل بوحشية وكأنما يخزن الطعام ليجتره بقية الأيام · وتجىء نتيجة الاستعلامات فى غير صالحه طبعا فيعتذرون من عدم قبوله فيذهب وقد فاز ببضع أكلات خيالية · ويواصل غزواته فى أحياء المدينة حتى تسربت أنباؤها الى الموظفين فجعلوا منه نادرة تروى·

وما ندرى يوما الا وهو يدخل علينا مرتديا جلبابا ! ·

وكان الأستاذ طنطاوى اسماعيل ما زال رئيسا للسكرتارية فاستدعاه وسأله :

ــ ما معنى ذلك يا فتحى أفندى ؟

فقال ببساطة :

ــ البدلة استهلكت تماما ، قلبتها منذ ثلاثة أعوام فلم يعد بها رمق ، ولا أستطيع أن أشترى زرارا !

فقال الرجل فى حيرة :

ــ ولكن ذلك يخالف التعليمات !

فقال بثقة :

ــ لا نص فى التعليمات على ذلك !

وتداولنا ا ن كان ذلك يجوز أو لا يجوز دون أن نهتدى الى علاج · وزاد الحرج عندما فاجأنا الوزير الوفدى الجديد بزيارة تفتيشية · ولما رآه الوزير ظنه ساعيا فقال له :

ــ ألم يصرفوا لك بدلة السعاة ؟

فأجاب بايمان :

ــ أنا موظف يا معالى الباشا ، ولكنى لا أملك ثمن بدلة جديدة !

فدهش الوزير وسأله عن وظيفته وشهادته ومرتبه وعدد أولاده الذين بلغوا التسعة عدا فى ذلك التاريخ ، ثم سأله ضاحكا :

ــ أليس لك هواية الا الانجاب ؟

فقال فتحى بجرأته المعهودة :

ــ أنا من شعب الوفد ولن أضام فى عهدكم !

وقد منحه الوزير علاوتين استثنائيتين ، ثم أدركته علاوة الغلاء التى تقررت لأول مرة ، فاشترى بدلة ولكن حاله لم تتحسن الا قليلا ٠ وذات صباح همس لى عم صقر وهو يقدم لى القهوة :

ــ أخيرا وفق ابن الشحاذة !

فسألته :

ــ فتحى أنيس ؟

ــ نعم ٠

ــ كيف ؟

ــ سيتزوج من أرملة غنية جدا ٠٠

ــ حقا ؟ ٠٠ وجميلة ؟

فضحك قائلا :

ــ عمرها ستون عاما ، وهى فى الجملة كالمومياء !

وصح الخبر كجميع أخبار عم صقر ٠ وتزوج فتحى من أرملة عجوز تركية مستحقة فى وقف كبير ، وقيل انه تزوج بموافقة زوجته الأولى ايثارا لسعادة الأولاد على نفسها ٠ وتغير حاله بصورة ملموسة ، وظهرت عليه النعمة فى ملبسه وصحته ورونقه ، ورغم

كل شىء أثار حسد الكثيرين ، وكان عباس فوزى يتهكم به فيسأله :

ــ كيف تطاوعك نفسك على معاشرة مومياء ؟

فيجيبه بصراحته وبساطته :

ــ عندما يملأ الانسان بطنه بثلاثة أو أربعة أصناف من اللحوم وخمس كئوس من الويسكى فانه يستطيع أن يعاشر عزرائيل نفسه !

وعقب حرب فلسطين الأولى ١٩٤٨ توفيت زوجته الجديدة مخلفة عليه ثروة طائلة ، ولم يفلح فى اخفاء أفراحه حتى فى الأيام الأولى للحدث ، واستقال من وظيفته ، وفكر فى انشاء عمل حر ، حتى هداه تفكيره الى فتح مقهى كبير فى التوفيقية ، وتحمل خسائر عام أو عامين حتى يتقن مهنته الجديدة ، ثم نجح المشروع نجاحا منعدم النظير ، وانقطعت أخباره عنى بطبيعة الحال حتى بعثها من الظلمات عم صقر عقب خروجه من السجن فحدثنى عن ثرائه الفاحش ، وما ملك من عمارات ، وعن معيشته الحالية فى قصره بالهرم ، وعن نجاح أبنائه فى المدارس والكليات وقد بلغ عددهم اثنى عشر ولدا ٠ أخبرنى كذلك بأنه أبقى على زوجه الأولى ولكنه اتخذ من راقصة ايطالية عشيقة له ٠ قال عم صقر :

ــ انه اليوم فى السادسة والستين من عمره، ولكنه قوى مهيب كرجل فى عز شبابه ، ويرافق راقصة ايطالية فهل سمعت عن عاشق فى مثل هذه السن ؟ ، ولكنه الحظ ، ألف ليلة وليلة ، وكل ما عداه باطل ٠٠

قدرى رزق

كان يتردد على شقة عدلى بركات الفاخرة فى أوائل عام ١٩٤٨ ، وكان فى الثلاثين من عمره أو دون ذلك بقليل ، وطالما جالسنا ببدلته الرسمية كضابط فى سلاح الفرسان ، فيضفى على المجلس من روحه مرحا وصفاء · وبدا قليل الاهتمام بالسياسة والشئون العامة ، ولولا محاولة بذلت لاغتيال مصطفى النحاس ما فطنت الى أنه ينطوى على ميول وفدية ، ورثها غالبا عن أبيه الذى كان عضوا بالهيئة الوفدية ·

وكان ممشوق القوام أسمر واضح الملامح جذابها ذا شارب غليظ لا ينى يغازله فى اعجاب وارتياح ، وفى جلسات الأنس التى اشتهر بها مسكن عدلى بركات شهدت له غزوات موفقة مع فنانات كثيرات · وفى أعقاب حرب ١٩٤٨ اجتمع بنا فى شقة عدلى بركات وقد زايله المرح ووشت حاله عموما بامتعاض وقرف · وكنا ـ أنا ورضا حمادة ـ فى غاية من الحزن ، فطرحنا عليه العديد من الأسئلة لعله يروى غلتنا أو يبدد من أفكارنا بعض الظلمات ، ولكنه لم يمس التفاصيل وقال بايجاز :

ـ لقد ضحى بالجيش بطريقة دنيئة قصد بها القضاء على كرامته وأرواح رجاله ··

وهز رأسه بضيق وقال :

ـ لا يمكن أن يمر ذلك بلا ثمن !

فقلت ببراءة :

ـ لكننا لم نهزم ، الفالوجة نصر مبين ·

فقال بحدة :

ـ بل هزمنا ، وحوصرنا بين عدوين ، عدو فى الخارج وعدو فى الداخل ·

واستجابت نفسى لغضبه بقدر ما وجدته متجاوبا معها ، وقال رضا حمادة :

ـ كل ذلك نتيجة لحكم أحزاب الأقلية الذى مكن لطغيان الملك ·

فقال قدرى رزق :

ـ ونتيجة أيضا لضعف الوفد الذى عجز عن تحقيق الارادة الشعبية ··

فاستاء رضا حمادة وقال :

ـ الوفد اعتمد دائما على ثورية الشعب ولكن الشعب تخلى عن ثوريته !

فقال قدرى رزق الذى لم أره من قبل على تلك الدرجة من السخط :

ـ الوفد هو المسئول عن تخلى الشعب عن ثوريته !

وتوثقت علاقته بنا فى تلك الأيام ، وتعددت لقاءاتنا بشقة عدلى بركات · وشهدنا معا تدهوره حتى انتحاره ، ولكنه لم ينقطع عنا فكان يجتمع بنا فى بيت رضا حمادة أو فى مقهى الفيشاوى ، ورجع الى طبيعته

الأصلية فقل اهتمامه بالسياسة والشئون العامة ، وعاوده المرح والمجون والتفرغ لغزو الحسان · ولما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ اكتشفنا أنه كان ضمن مجموعة الضباط الأحرار فعجبنا لقدرته الخارقة على الكتمان · وقد سهر معنا عشية الثورة فى مقهى الفيشاوى ، وجلس كعادته يضاحكنا ويسامرنا ، وعدت معه قبيل منتصف الليل الى العباسية مشياً على الأقدام من طريق الجبل ، ثم ملت أنا الى العباسية الغربية وواصل هو سيره شمالا الى مسكنه بشارع أحمد ماهر كما ظننت ، أما الحقيقة فانه لم يذهب ليلتها الى بيته ولكنه مضى صوب منشية البكرى ليقود قوة صغيرة الى احتلال مفترق طرق ! · وغيبته الأحداث عنا فترة غير قصيرة طُرد فى أثنائها الملك ، ثم رجع الينا وقد رقى الى رتبة جديدة · وتتابعت التطورات الهامة مثل الاصلاح الزراعى والجلاء وغيرها ونحن نتلاقى بانتظام أسبوعى فى بيت رضا حمادة قبل اعتقاله ، واستمر التلاقى بعد ذلك فى بيتى أو بيته أو فى مقهى الفيشاوى ، وطيلة تلك المدة لم يخرج حديثنا عن السياسة التى لم يعد له من حديث غيرها · ولم يكن بيننا خلاف جدى ، استطاعت الثورة أن تستأثر بقلوبنا وآمالنا فى لحظة تاريخية أسطورية باهرة · وقال قدرى رزق :

ــ اندثرت القوى الجهنمية التى كانت تعوق تقدم الشعب مثل الملك والانجليز والحكام الفاسدون ورجع

الأمر الى أبناء الشعب الحقيقيين ، فهو حكم الشعب للشعب لخير الشعب ، انتهى الفساد والانحلال وسينطلق تيار الاصلاح والتقدم الى الأبد ..

وقلنا انه آن للحلم أن يتحقق ، وأن ينعم بالحرية والرقى والعدل ذلك الشعب الذى عانى الظلم والاستعباد والفقر والغربة آلاف السنين · أجل ساءنا بعض الشىء التوثب للقضاء على الوفد ، وسأله رضا حمادة ــ قبل اعتقاله ــ أكثر من مرة :

ــ أليس الأفضل أن تتخذوا من الوفد قاعدة شعبية لكم ؟

كما ساورتنا مخاوف من ناحية أمريكا ، وخشينا أن تحل محل انجلترا بطريقة أو بأخرى ، بعدما شعرنا بمدى تأييدها للنظام الجديد ، ولكن قدرى رزق قال :

ــ الأمريكان ذوو نفع كبير ولا خوف علينا منهم بفضل وطنية زعمائنا الجدد ·

وحلت الأحزاب وضرب على أيدى الاخوان والشيوعيين ، وكان قدرى يتحمس لكل اجراء بلا قيد ولا شرط ، حتى سألته مرة :

ــ ولكن من أنتم ؟

فضحك ، وتفكر مليا ، ثم قال :

ــ نحن أصدقاء الوطنية والعروبة والثورة وأعداء الفساد والتعصب والالحاد !

وقال أيضا بحماسه الطيب :

ــ هدفنا تحرير الشعب مما يستعبده سواء أكان شخصا

أم طبقة فقرا أم مرضا ثم دفعه الى المكان اللائق به تحت الشمس ..

ونغص صفونا ما أصاب صديقنا رضا حمادة فى شخصه وابنه وزوجته ، وشد ما تأثر لذلك قدرى رزق وحزن ، ولكن هون من وقع المأساة القوة التى لاقاها بها صديقنا الجلد الصبور القوى . وكان قدرى يعجب به ويقول عنه انه رجل ولا كل الرجال ؛ ويتعجب كيف أن رجلا مثله ورجلا مثل الدكتور زهير كامل ينبتان من أرض واحدة . وتتابعت أحداث مجيدة مثل الاتجاه نحو الكتلة الشرقية للتسليح ، ومثل تأميم قناة السويس الذى بلغ بحماسنا درجة لم نعرفها من قبل ، فثمل بذلك قدرى رزق وثملنا ، وقال لنا :

ـ أرأيتم ؟ . نحن مصريون أولا وأخيرا ، لا أمريكيون ولا روسيون !

وتزوج قدرى فى تلك الفترة من كريمة أسرة كبيرة اقطاعيه ممن طبق عليهم قانون الاصلاح الزراعى ، وكانت مفارقة تستدعى الملاحظة وتحتاج الى تفسير ، غير أنه يمكن اعتبارها ظاهرة عادية اذا نظر اليها من الناحية العاطفية البريئة ، ولم يغب عنى أن صديقى كان فخورا بمصاهرة تلك الأسرة رغم ثوريته واخلاصه وطيبته ، وأما رضا حمادة فقال لى :

ـ انها طبقة تتطلع الى أن تحل مكان طبقة !

ثم كان الاعتداء الثلاثى وانقلابه على المعتدين ولكن صديقنا قدرى رزق أصيب فى ساقه وفقد عينه اليسرى

فاضطر الى ترك الجيش ، وعين فى وظيفة ثقافية كبيرة بوزارة الارشاد . وبتوليته للوظيفة الجديدة بدأ اهتمامه بالثقافة لأول مرة فى حياته ، فكان يعمل نهارا ويدرس ليلا ، وأثبت أنه عالى الهمة فى التحصيل والادارة . وكان فى اجازة شهر العسل حينما نشبت الحرب فاستدعى من بين أحضان عروسه للقيام بواجبه العسكرى فأصابه ما أصابه . ولما أعلنت القوانين الاشتراكية بعد ذلك بأعوام بدأ يدرس الاشتراكية بنفس الهمة التى درس بها الثقافة ، وكان على استعداد دائما للايمان بما تدعو الثورة للايمان به اذ أن ايمانه الحقيقى كان بالثورة ، بالثورة وحدها . والحق أنه كان وما زال برجوازيا فى أخلاقه وآماله وأحلامه وتقاليده ، ولكنه كان وما زال برجوازيا ذا لسان اشتراكى ، ولم يجىء ذلك عن نفاق أو خوف ولكن بدافع اخلاص حقيقى للثورة وما تنادى به ، وانى لأعده من أخلص الرجال وأنقاهم وأنزههم ، كما كان من أشدهم سخطا على المستغلين والمفسدين ممن خانوا أمانة الثورة . ولما جاءت بنا هزيمة ٥ يونية ١٩٦٧ زلزل لها كيانه حتى خيل الى أنه يموت وهو حى ، وتساءل فيما يشبه الهذيان :

ـ أيذهب ذلك التاريخ كله هباء ؟ !

ونظر فى وجوهنا بوجه شاحب وتساءل مرة أخرى :

ـ أنركع مرة أخرى تحت أقدام الرجعيين والاستعماريين ؟!

وكان يجاهد بعنف ليسترد أنفاسه اللاهثة ، وليخلق فى الضياع أملا جديدا ، وليحول الهزيمة الى درس وعبرة • وكلما مر يوم دون استسلام استرد بعضا من عافيته ، وعكف على أرض الواقع الصلبة يحفرها بأظافره لعله يستخرج منها بعض قطرات من ندى الأمل • وما أشبهه فى ذلك بالدكتور عزمى شاكر أو الدكتور صادق عبد الحميد ، وكان يقول :

— ما تاريخ العرب الحديث الا سلسلة من الهزائم أمام الرجعية والاستعمار ، ولكن ما يكاد اليأس يخيم حتى ينبثق من ظلماته نور جديد ، وهكذا ذهب التتار والصليبيون والانجليز وبقى العرب !

وهو يريد للثورة أن تبقى ، وأن تنتصر ، مهما كان الثمن ، كيلا تتعثر النهضة فى زمن لم يعد يسمح بالتخلف يوما واحدا ، ويتابع أنباء القتال وهو آسف على أنه لم يعد فى امكانه الاشتراك فيه • ويحزنه أن نتلقى ضربة دون أن نردها بالمثل ولذلك فهو ينتظر على جمر اليوم الذى نستكمل فيه استعدادنا للقتال • انه يعيش يوما فيوما بل ساعة فساعة فى متابعة وقلق وترقب وأمل ومحاسبة للنفس لا هوادة فيها • وبصرف النظر عن آراء الأستاذ سالم جبر المتناقضة وسخريات عجلان الحادة وانتقادات رضا حمادة المرة فان قدرى رزق يعتبر رجلا محترما ومخلصا من رجال ثورة يوليو ، وقد يتعذر تعريفه على ضوء المبادىء العالمية ولكن يمكن تعريفه بدقة على ضوء

الميثاق ، فهو يؤمن بالعدالة الاجتماعية ايمانه بالملكية الخاصة والحوافز ، ويؤمن بالاشتراكية العلمية ايمانه بالدين ، ويؤمن بالوطن ايمانه بالوحدة العربية ، ويؤمن بالتراث ايمانه بالعلم ، ويؤمن بالقاعدة الشعبية ايمانه بالحكم المطلق • وعندما يقبل على وهو يعرج ويطالعنى بعينه الباقية ينبض قلبى بالمودة والاكبار •

كامل رمزى

تعارفنا عام ١٩٦٥ فى بيت الدكتور عزمى شاكر • كان حديث عهد بالحرية بعد أن قضى فى الاعتقال خمسة أعوام • وهو أسمر نحيل طويل أصلع كبير الرأس صغير العينين براقهما فى الخمسين من عمره • دكتور فى الاقتصاد وكان أستاذا بكلية التجارة حتى تاريخ القبض عليه • قلت له :

ـ قرأت كتابك عن المذاهب الاقتصادية وأشهد بأنه أمتعنى بقدر ما أفادنى ••

فشكرنى وقال :

ـ كانت الحياة الجامعية تناسبنى جدا !

وقال الدكتور عزمى شاكر :

ـ اتهم خطأ بالنشاط العملى أما الحقيقة فهى أنه أستاذ مفكر لا يجاوز نشاطه مجال التفكير والتأليف •

وفى نفس الأسبوع الذى تعارفنا فيه ولى منصبا كبيرا ، وقال لى عزمى شاكر للمناسبة :

ـ انه مثال فى العلم والحزم والنزاهة •

وكان صديقا لسالم جبر وزهير كامل ، وعرفته بدورى لرضا حمادة وقدرى رزق والدكتور صادق عبد الحميد فنال

احترامهم جميعا ولكن لم يغال أحد فى حبه ! • وقد أشعرنى حديثه بالصدق والصراحة والعلم ، وهو ممن أتموا تعليمهم بانجلترا ، وذو اطلاع شامل فى الاجتماع والسياسة ، وله قدرة فائقة فى المناقشة والجدل • ويتكلم اذا تكلم بثقة وصراحة وقوة • ولا يؤمن فى شىء بالحلول الوسطى ، ولا بالمجاملة ، ولا بالتسامح ، بل يؤمن برأيه لحد التعصب ، ولا يطيق المعارضة فهى تثير أعصابه وتخرجه عن الاتزان اللائق بمركزه فسرعان ما يهدر غاضبا بالحجج والأدلة وكأنه يخوض معركة حامية • وهو يشبه عبد الوهاب اسماعيل فى تعصبه على تناقضهما فى الأسلوب ، حتى قلت مرة للدكتور عزمى شاكر :

ـ انه عالم ولكنه ذو عقلية دينية .

فقال :

ـ انه متعصب بلا شك ، ومشتعل فى مناقشته ، ولكن أعصابه لم تفسد بهذه الصورة الا بعد تجربة الاعتقال •

وبمزيد من الاختلاط به عرفت زوجته وهى دكتورة فى الاقتصاد أيضا ومدرسة بكلية التجارة ومثال مشرف للمرأة المصرية • وعرفت له أسلوبا فى الحياة يعتبر غريبا فى عصرنا ، فهو يميل الى التقشف فى ملبسه ، وطعامه الذى يشبه الرجيم ، والى ذلك فهو لا يدخن ولا يذوق الخمر • وقد قال لى مرة :

ـ لم أعرف المرأة قبل الزواج ، وقاومت جميع المغريات وأنا طالب فى البعثة !

وأدهشني أن يصوم في رمضان رغم ايمانه الكامل بالمادية الجدلية وسألته :

— ما معنى ذلك ؟

فضحك قائلا :

— كان أبي عاملا بسيطا ، وكان متدينا ، فربانا تربية دينية شاملة فنشأت في أحضان الأخلاق الاســلامية ، ولم أستطع بعد ذلك التخلي عنها الا فيما يناقض عقيدتي الجديدة ، وكان الصيام فيما استبقيت من العادات القديمة فهو رياضة تناسب سلوكي تماما ..

وتفكر قليلا ثم قال :

— العظمة الحقيقية للدين لا تتجلى الا عندما تعتبره لا دينا !

وذكرني في الحال بالحاج زهران حسونة فذهلت للفارق الهائل بينهما مثل الفارق بين ملاك وشيطان . وقلت له :

— لا يمكن أن تخلو حياتنا من تناقضات كثيرة ..

— المهم أن نعمل للمستقبل ..

— وطبعا أنت تؤمن بالشيوعية ؟

— ذلك حق .

فسألته باسما :

— أتعتبر نفسك مخلصا للثورة التي تعمل في جهازها ؟

فقال بوضوح وقوة :

— خلقت لأعبد العمل وأخلص له ..

— اني أسأل عن اخلاصك للثورة ؟

فأخذ شهيقا عميقا كأنه الترجمة الجسمانية لتفكيره وقال :

— لم أكن في يوم من الأيام ذا وجهين ، وما دمت قد قبلت العمل في جهازها فأنا مخلص لها ..

فقلت باسما :

— هذا هو الجواب الذي أســأل عنه ، ولكن ينقصــه شيء ما !

— عظيم ، أنا مخلص لها ولكني غير مؤمن بها ، أو غير مؤمن بها ايمانا كاملا ، حسبي في الوقت الراهن أنها تمهد السبيل الى الثورة الحقيقية !

فأشرت الى صديقنا الدكتور عزمي شاكر وقلت :

— ما أشبه موقفك بالموقف الذي اتخذه هذا الرجل من بادىء الأمر ..

فضحك ، ورغم ضحكه قال بحدة :

— لقد سلم قبل المعركة أما نحن فسلمنا بالأمر الواقع بعد أن أثبتت المعركة عقمها .

— لعله كان أبعد نظرا !

— اسمح لي في هذه الحال أن ألعن بعد النظر !

وكان عزمي شاكر كبير الاعجاب به ، وكذلك رضا حمادة على تناقضهما في المبدأ ، وكانت شخصية كامل رمزي تغرينا بتحليلها وتقييمها ، ويوما قال رضا حمادة :

ـــ لقد تشفعت به فى نقل موظف فأعطانى درسا قاسياً فى فساد الوساطة ، ومع أننى استأت فى نفسى الا أننى ازددت اعجابا به ••

فقال عزمى شاكر :

ـــ بل أوصاه وزيره بموظف فاعتذر من عدم التنفيذ حرصا على مبادىء العدالة !

فقلت بدهشة :

ـــ وزيره نفسه ؟•

ـــ أجل ، انه خلق صلب غير قابل للثنى ، ولذلك أشك كثيرا فى امكانية بقائه فى منصبه !

فسأله رضا حمادة :

ـــ هل يستغنون عن موظف لاستقامته ؟

ـــ ان الأسباب التى تدعو للاستغناء عن موظف لاستقامته أكثر من الأسباب التى تدعو للاستغناء عنه لانحرافه !

واعترف لى كامل رمزى نفسه بأن أحدا فى ادارته لا يحبه بدءا من الفراش حتى الوزير ، قال :

ـــ لا أستطيع أن أهتم بعواطف الناس والمصلحة العامة معا ، ان منصبى يحتاج لألعبان لا لموظف أمين !

ثم قال بازدراء :

ـــ نحن شعب المصاطب والمجاملات والمساومات •

وضحك عاليا وقال :

ـــ لقد عبدنا مصطفى النحاس يوما لا لشىء الا لنزاهته وصلابته فى الحق وهما صفتان جديرتان بكل مواطن عادى

ولكن لندرتهما جعلنا منهما دعامتين أساسيتين لزعامة شعبية !

فسألته :

ـــ هل عبدت مصطفى النحاس يوما ؟

فقال بصراحته المعهودة .

ـــ كنت وفديا ، وعطفى على الوفد عاش طويلا فى نفسى حتى بعد نضوب ايمانى به ••

وحملق فى وجهى بعينيه البراقتين وقال :

ـــ قل فى الوفد ما شئت ولكن لا تنس أنه كان حزبا شعبيا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وأنه كان يغير سياسته أحيانا اذعانا لمشيئة التلاميذ بالمدارس الثانوية !

ثم حدثنى عن أحداث عام ١٩٣٥ ، وكيف ناقش مصطفى النحاس ضمن وفد من الطلبة ، وكيف احتدت المناقشة بين الطرفين ، وكيف عدل الوفد عن تأييد وزارة توفيق نسيم فأعلن الثورة على لسان مكرم عبيد ، وكيف سالت الدماء عقب ذلك بأقل من ساعة !

ولم يعمر كامل رمزى ـــ كما تنبأ عزمى شاكر ـــ فى وظيفته طويلا • باشرها عاما واحدا حتى ضج جميع أهل الأرض من صلابته ونزاهته ، واذا بجرائد الصباح تنشر خبر نقله الى مؤسسة صحفية •

ومن عجب أن عمت الشماتة به أكثرية الناس • ولم أدهش لذلك كثيرا ، وذكرت فى الحال مأساة الأستاذ طنطاوى

اسماعيل رئيس السكرتارية القديم كما ذكرت الدكتور سرور عبد الباقى ، وقلت لنفسى ان أمثال أولئك الرجال يغلقــون الأبواب فى وجوه الوصوليين والانتهازيين وما أكثرهم ، كما أنهم بقوة أخلاقهم يفضحون الضعفاء أمام أنفســهم فيمتلئون حقدا عليهم • لذلك لم أسمع رثاء له الا بين خاصة أصدقائه • وأما هو فقد غضب وفاضت نفسه مرارة وخيل اليه أن نواميس الطبيعة تقلقلت وشذت عن مداراتها • ولكن ذلك لم يمنعه من مزاولة عمله الجديد بنفس الهمة والنزاهة والقوة السابقة ، بل انه وجد فراغا لم يكن يجده فاستأنف نشاطه العلمى ، وشرع فى وضع قاموسه السياسى • وكان وما زال شعلة من النشاط المتواصل ، ونورا يطارد ظلمات اليأس •

كاميليـــا زهـــران

يوم أقبلت علينا فى السكرتارية بفستانها الأنيق وشعرها الأسود المقصوص المطوق لرأسها تذكرت عبدة سليمان ، ولكن ما أبعد المسافة بين عام ١٩٤٤ وعام ١٩٦٥ ! • اختفت الوجوه القديمة مثل طنطاوى اسماعيل وعباس فوزى وعدلى المؤذن وعبد الرحمن شعبان وعم صقر • اجتاحت السكرتارية موجة من الشباب نصفها من الجنس اللطيف ، وها هى كاميليا زهران تنضم الينا ، كأحدث قطفة من تلك الأزهار • وكنا ألفنــا وجودهن بينا ، كما ألفنا الشائعات التى تلاحقهن فى الفترة الحرجة التى تسبق الزواج • وأكثرهن تزوجن من شبان خارج وزارتنا عدا واحدة تزوجت من زميل فى الادارة القانونية • ولم تهجر واحدة منهن العمل بسبب الزواج ••

وكاميليا زهران حقوقية فى الثــالثة والعشرين ، وقـــد استقبلت عملها بامتعاض لالحاقها بعمل كتابى بعد دراسة قانونية توشك أن تذهب هباء • وسرنى أن أطالع فى عينيها نظرة مستقيمة وجريئة جاوزت بشكل ملموس نظرة الحريم المستكينة الخاملة ، ومع ذلك شعرت بطريقة ما بعمق تجربتها

فى الحياة ، وأنها لا تكاد تختلف فى أمر جوهرى من هـذه الناحية عن زميلها الجالس الى جانبهـا • وسرعان ما رفع الحجاب الكلفة بينها وبين الزملاء ولكنه لم يجاوز حدود الأدب التقليدية ، شأن من تنظر الى المستقبل بحكمة وتعمل حسابا للعقد الشرقية التى يحملها الزملاء من آسلافهم فى البيوت •

وعقب الاجازات الصيفية حدثنى زميل قديم نسبيا فى الادارة فقال :

ـ لعلك لا تدرى أن كاميليا زهران راقصة بارعة ؟

فسألته بدهشة :

ـ راقصة ؟ !

ـ رأيتها فى هانوفيل تراقص شابا وكانت مندمجة فى الرقص بنشوة كأنها نغمة ••

فقلت متوثبا للدفاع :

ـ لم يعد عيبا ما كان يعد عيبا على أيامنا ••

فهرش رأسه قليلا ثم قال :

ـ أود أن أتخيل كيف تكون الحياة مع زوجة مثلها ؟

فقلت :

ـ ان نسبة الطلاق فى هذه الأيام أقل من نظيرتها على أيامنا وكذلك نسبة تعدد الزوجات !

فقال ضاحكا :

ـ الظاهر أنك رجل عصرى رغم كهولتك ؟

ـ أود لو كنت من أبناء هذا الجيل ، لا استخفافا بمتاعبه

ولكن لتخففه من كثير من العقد التى نغصت علينا صـفو الحياة •

وقد قلت مثل ذلك لصديقى رضا حمادة وهو أقرب أصدقائى القدامى الى المحافظة فسألنى عما أعنى فقلت :

ـ تبادل الحب فى جو من الصراحة الصحية خير من الكبت والتقلب بين أذرع البغايا ••

فقال بارتياب :

ـ يخيل الى أن الحب كالديموقراطية أصبح معدودا من المهازل البائدة !

وكنت أرهف السمع كلما دار الحديث بين الشباب فى ادارتنا ، ومن كلمات متناثرة أدركت أشياء لا بأس بها ، خاصة عن كاميليا التى استحوذت على اهتمامى أكثر من غيرها لحداثتها • فأسرتها مثلا متوسطة وهى أول من توظف من اخوة خمس ، وليس من الصعب تخيل المتاعب التى تعانيها أسرة من ذلك النوع والدرجة ، ولا المتاعب التى تتحدى الفتاة كانسانة مستقلة ومسئولة عن نفسـها وربما عن أسرتها جزئيـا ، وما تطالبها به الحياة العصرية من نفقات وما يطالبها به المستقبل كفتاة تتطلع الى عريس محترم • ولذلك فان اهتمامها بالشئون العامة اهتمام سطحى ، وهى تسلم بأشياء تسليما واقعيا دون تفكير ولا ايجابية مثل الدين والثورة ، ولكن حياتها الخاصة



هى شغلها الشاغل ، وما حياتها الا الحب والزواج وثمرات الحضارة الحديثة •

وندر أن صادفتنا أنثى تهتم اهتماما حقيقيا بالدين أو الفلسفة أو السياسة ، ولعل تفسير ذلك أننا لا نزامل منهن الا الأوساط أما النابغات فلهن طريق آخر فى الجامعات أو الحياة العامة • وللدكتور زهير كامل رأى فى الموضوع • قال :

— عدم اهتمام المرأة بالعقائد والفلسفات يقطع بأنها — العقائد والفلسفات — معطلة للنشاط الحيوى الحقيقى ••

وقال أيضا :

— المرأة لا تعنى الا بالخلق وما يتعلق به ، هى خالق جميل ، الخلق محور حياتها كلها ، أما ما عدا ذلك من نشاطات فهى من صنع الرجل وهى ضرورية للسيطرة لا للخلق !

وقال أيضا :

— الدنيا هى هدف المرأة ومعبودتها ، وبمعنى آخر هى هدف الخلق ، وهذا يدل على أننا خلقنا لنهتم بالدنيا دون سواها ، وأن كل ما عداها باطل ، وأن الخلود يجب أن يتحقق فيها ، ولو أن الأديان تصورت الله على صورة امرأة لأهدتنا حكمة جديدة هى السعادة الحقيقية !

وربما تعذر تفسير هذه الآراء على ضوء ما عرفنا من عقلية زهير كامل ، ولكن لن يتعذر تفسيرها على

ضوء حياته اذ كان يعانى الحنين الى زوجته وابنته اللتين هاجرتا الى الخارج كما كان يفتح قلبه لحب جديد ، حب نعمات عارف • وكانت تظلنا سحابة من الغم والنكد فى أعقاب هزيمة يونية عندما قال لى الزميل القديم :

— توجد أحداث غريبة لا صلة لها بالمعركة ••

فسألته عما يعنى فقال :

— كاميليا زهران تلعب مع المدير العام تلك اللعبة القديمة :

حقا اصبح المديرون فى سن الشباب لا كالعهد القديم ، ومديرنا العام فى الأربعين ولكنه متزوج وأب وذو سمعة — من هذه الناحية على الأقل — طيبة • قلت :

— ولعلها اشاعة !

— ولعلها حقيقة !

فسألته :

— وما تفسيرك للأمر ؟

— لعله حب ، وان صح هذا الفرض فسيخرب بيت ويقام مكانه بيت جديد ••

وصمت مليا ثم عاد يقول .

— ولعلها اللعبة القديمة على طريقة شرارة النحال •

— هل تسللت انتهازية جيلنا الى الجيل الطازج ؟

— ان المغريات اليوم أقوى وأعنف ••

فقلت بامتعاض :

— لعل الانتهازية يعترف بها فى النهاية باعتبارها أخلاقا جديدة ، ومهارات جديدة مثل التكنولوجيا !

وحدثت صديقى الدكتور عزمى شاكر فى الموضوع وقلت له :

— انك مفكر بارع ، فلم لا تدرس الأخلاق الجديدة ؟ أعنى الأخلاق الصالحة للعصر الحديث ، التى يجب أن تستلهم من المجتمع الجديد لا من القيم القديمة ••

فسألنى :

— ما الذى دعاك الى هذا التفكير ؟

فقلت وأنا من الاستياء فى غاية :

— انظر الى مآل صديقنا الدكتور كامل رمزى ، وعندى نظائر له عرفتهم فى مجرى الحياة ممن نعدهم أمثلة طيبة للانسان ، ألا يجوز أن أخلاقهم لم تعد صالحة للعالم الحديث ؟

فقال باسما :

— انك تنفس عن مرارة نفسك ••

— الحق انى حائر وحزين •

وتفشت الشائعات عن كاميليا والمدير ، وأصبح الشك يقينا عندما نقلت أخيرا الى الادارة القانونية ، ولكن لم يخرب بيت ولم يقم محله بيت جديد ، ولما تعين عندنا صبرى جاد نشأت بينه وبين الفتاة علاقة حب صادقة • ومع أنه بدا أول الأمر متمردا ومستهترا الا أنه أحب كاميليا كما أحبته ، وبالرغم من أنه كان يصغرها بعامين أو أكثر الا أنهما أعلنا خطوبتهما

رسميا • وسعدت أنا شخصيا بهذه النهاية السعيدة ، التى شدت الاثنين الى حياة أصيلة ومسئولية جادة من شأنها أن تعيد خلق الانسان وتضمه الى الركب الجاد فى الطريق •

ويوما بعد يوم فان ايمانى يرسخ بأن نقاء الانسان يجىء من الخارج بقدر ما يجىء من الداخل ، وأن علينا أن نوفر الضوء والهواء النقى اذا أردنا أزهارا يانعة •

ماهر عبد الكريم

كان أستاذا مساعدا بالكلية عندما التحقت بها عام ١٩٣٠ • وكان فى منتصف الحلقة الرابعه ، يتمتع بسمعة علمية وأخلاقية وانسانية كأنها عبير المسك — ولم أعرف أستاذا فتن طلبته بسجاياه الروحية وسماحة وجهه مثله • وهو سليل أسرة عريقة ، عرفت بثرائها كما عرفت فى التاريخ الحديث بولائها الحزب الوطنى ، وعد هو بالتبعية من الموالين للحزب ، ولكن ذلك لم ينل من حبنا له ، والحق أنه لم يعلن عن ميل سياسى قط ، ولم يقع فى رذيلة التعصب أبدا ، ولم ينطق فى حديث عن هوى أو تحيز أو حقد ، ووهب نفسه للعلم والخير • قال لنا مرة الدكتور ابراهيم عقل :

— لو كان جميع الأغنياء ، مثل ماهر عبد الكريم لقررت أن المثل الأعلى للانسان أن يكون غنيا !

والحق أن كرمه كان يلتهم ثروته ، فلم يصد محتاجا قط ، وكان يجود بالاحسان سرا كأنما يتستر على عيب ، وكان مثالا لسعة الصدر ، هكذا كان فى مناقشاته العلمية والعامة ، بل والسياسة اذا جر اليها جرا ، وكأن أسارير وجهه لم تهيأ أصلا الا للتعبير عن التأمل أو الترحيب أو البشاشة ، وغير

قابلة للافصاح عن الحدة أو الغضب • وكان قصره القــديم بالمنيرة ملتقى أهل العلم والأدب والفكر ، وبه متسع دائما لطلبته فيقدمهم الى الكبار ويعاملهم معاملة الأنداد ، وما أكثر الذين عرفتهم فى صالونه من رجال الفكر • وكان التيار الجارف فى أحاديث الصالون ثقافيا بالمعنى العام ولم تكن السياسة لتخالطه الا فى ظروف نادرة ، ومع ذلك لم يتردد الأستاذ سالم جبر عن اثارة موضوع فوارق الطبقات يوما من أيام عام ١٩٣١ عقب عودته من رحلة فى فرنسا ، قال :

ــ انهم فى بعض الأوساط يحتقروننا لسوء حال شعبنا !

فابتسم الدكتور ماهر عبد الكريم وقال :

ــ أعتقد أنها حالة سيئة •

فقال الدكتور ابراهيم عقل مخاطبا سالم جبر :

ــ انك تزور فى فرنسا أوساطا متطرفة لعلها تضمر نفس الاحتقار لفرنسا أيضا ، على أن الانسان لا تتقــرر حاله الحضارية بما يملك ولكن بما ينبض به فكره وقلبــه ، وأنا شخصيا أعتــبر الفقير الهنــدى أجل انســانية من فورد أو روكفلر !

واحتد سالم جبر فاتهمه بالمثالية الرجعية ، كما اتهمــه بالصوفية التى يعدها مسئولة عن تأخر الشرق •

ولم يكن ماهر عبد الكريم يفكر كما يفكر سالم جبر ولكنه

اعتقد دائما بأن الاسلام يكفل للناس عدالة اجتماعية شاملة ، كما اعتقد أن نشر التعليم يحقق الغاية نفسها بطريقة أخرى • ويوما دعانى أنا وجعفر خليل ــ عقب احدى المحاضرات ــ لمقابلته فى قصر المنيرة ، ووجدناه وحده فى بهو الاستقبال • فرحب بنا وقال :

ــ ستزورنى آنسة أمريكية بناء على طلبها وقد اخترتكما مترجمين بينى وبينها ••

وكان يجهل الانجليزية ، ولعله فضل أن يستعين بنا على أن يستعين بأحد من زملائه الكبار حتى تتبين له أسباب الزيارة الغريبة • وعند الغروب قدمت فتاة شقراء آية فى الجمال ، فى العشرين من عمرها ، فسلمت وجلست وهى تعتذر عن تطفلها • وقدم لنا الشاى والحلوى ، وراحت الفتاة تقص قصتها فقالت انها تزور مصر ضمن مجموعة من الشباب ، وأن أمها كلفتها بالبحث عن شخص فى مصر يدعى ماهر عبد الكريم كان طالبا بالسوربون فى أعقاب الحرب العظمى ، وأن مدير الفندق دلها عليه وطلب قصره لها بالتليفون ، ووضح لنا من تبادل الحديث أن أمها كانت زميلة لأستاذنا فى باريس ، وأنها كانت صديقته أيضا ، وأنها انتهزت فرصة سفر ابنتها الى مصر لتحملها تحياتها اليه •

وعلى طول الزيارة دار الحديث حول الذكريات القديمة

الجميلة ، وما آل اليه حال الصديقين القديمين فى الوقت الحاضر • وعندما غادرنا القصر قلت لجعفر خليل :

— الظاهر أن تأثير أستاذنا فيمن حوله سجية قديمة فيه منذ عهد الشباب ••

فغمز جعفر بعينه وقال ضاحكا :

— ولكن التأثير فى النساء ذو مغزى آخر !

ثم قال بايمان :

— الحق أن جمال الرجل يؤهله لدور الفتى الأول فى أفلامنا !

فرددت قول الفرزدق الذى كان يذكرنى دائما بوجه أستاذنا :

يغضى حياء ويغضى من مهابتـه
فما يكلم الا حين يبتسم

وقلت لجعفر :

— ما أتصوره أبدا متخليا عن وقاره ، فاذا كان الوقار لباسا لغيره فهو منه بمثابة اللحم والعظم •

والحق أنه لم يؤخذ عليه طوال حياته ما يمس السمعة أو السلوك • وعند هذه النقطة أرى لزاما على أن أعرض لشائعة اقتحمته فى فترة القلاقل التى اتسمت بالاغتيالات السياسية فى أعقاب الحرب العظمى الثانية • قيل انه رفع خطابا سريا الى الملك فاروق يحذر من مغبة التمرد الذى يجتاح الشباب ، مفصلا أسبابه وبواعثه ومقترحا العلاج له • سمعنا ذلك فيما نسمع من شائعات فى المقاهى ، وحتى اليوم لم

أتأكد من صدق الشائعة ، وكل ما قيل عنها كان ضربا من التخمين ونتيجة للأهواء السياسية المتنازعة ، فقال وفديون انه اقترح على الملك حل الأحزاب واقامة ديكتاتورية صالحة تعجل بالاصلاح وتربى الشباب تربية دينية علمية ، وقال المتطرفون من تلاميذ سالم جبر انها دعوة لثورة مضادة يراد بها تفادى الثورة الحقيقية • أما أنا فساءتنى الرسالة — مهما كان مضمونها — باعتبارها انتهاكا لحرية الدستور واستهتارا بسلطة الشعب ، ووجدتنى فى حرج شديد بين اجلالى لأستاذى وبين موقفى السياسى الواضح ، ووجدت حرجا أكثر من مفاتحته بالموضوع ، غير أن جعفر خليل وجد الجرأة لمفاتحته ! • حدث ذلك عندما زرنا الأستاذ معا ليودعه جعفر خليل قبل سفره الى الولايات المتحدة ، وعند ذاك أخبره صديقى المرحوم بما يشاع وبما يقال • وأنصت الدكتور فى هدوء وابتسام ، ثم سأله :

— صدقت ما يشاع وما يقال ؟

فتراجع جعفر خليل قائلا :

— كلا •

فاكتفى الأستاذ بقوله :

— عظيم !

ويدعونى ذلك الى تذكر رأى رجلين فيه ، أحدهما صديق له قديم هو الأستاذ سالم جبر ، والآخر مريد من مريديه هو الأستاذ عباس فوزى • أما سالم جبر فكان يحبه

ويعجب به ولكنه يرى أنه من طبقة النبلاء ، لم يعرف الفقر . ويرى الشعب من فوق ، وله رؤيته الخاصة وهى رغم جاذبيتها ونقائها غريبة عنا كأنها لغة كوكب آخر .

أما عباس فوزى — معجم السخريات اللاذعة — فكان يعرب عن رأيه فيه ولكن فى حذر وعلى مهل ونقطة نقطة متجنبا سكب ما فى نفسه دفعة واحدة . فيوما قال عنه :

— انه وجيه نبيل ، مملوك من نسل مماليك !

وتأملت قوله طويلا على ضوء ما أعرفه من خبثه وساءلت نفسى عما يقصد الشيطان . ومرة استمع الى ثناء جميل منى على الأستاذ ثم قال :

— هذه هى فضائل الأغنياء النبلاء وهى فضائل لم تتعرض للتجارب المريرة !

ومرة ثالثة قال لى :

— فى مصر لا يجتمع النبل والثروة والعلم ، ولكن النبيل الغنى متعالم ، يستغل ذكاء الفقراء ، يجمعون له مواد البحث ويقترحون عليه الأفكار ، أما هـو فيصـغى بوقار ويوقع بامضائه !

ومرة رابعة قال لى :

— أستاذك ذواقة لكل طعام جيد ، يلتهم فى اليوم ما يكفى لغذاء لواء من الجيش ، خبرنى يا عزيزى متى يفـرغ من الهضم ليتفرغ للتفكير والبحث ؟ !

ولكنا كنا نتصل بعقل الأسـتاذ اتصالا مباشرا وندرك

مدى ما يتمتع به من دقة ووضوح وغزارة فى العلم ، ومرت به الأحداث وهو ثابت فى وقاره ، ولكنى استشففت قلقا فى ذاته فى مواقف من حياتنا لا تنسى ، مثل الاغتيالات السياسية . حريق القاهرة ، ثورة يولية . القوانين الاشتراكية ، ولكنه لم يجاوز القصد أبدا ، ولا أظن أن اقطـاعيا تلقى الضربة التاريخيـة فى مثـل هـدوئه ، تـلك الضربة التى نزعت مـن يـده عشرة آلاف من الأفـدنة ، وقـد باع قصره القديم بالمنيرة واشترى فيلا جميلة بمصر الجديدة ما زالت حتى اليوم تستقبل أهل الفكر والرأى ، وواصل عمله الجامعى بنفس الهمة حتى أحيل الى المعاش عام ١٩٥٤ لبلوغه السن القانونية ، فعمل أستاذا زائرا . وعين عضوا فى المجلس الأعلى للآداب ونال جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية كما نال وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى . اذن قدرت له الثورة مكانته العلمية وسمعته العطرة واستقامته العامة التى أبعدته عن الشبهات ، وهو وان لم يعلن ولاءه للثورة لبعده عن مجالات الاعلام ولرغبته عن اقحام نفسه فيها بطريقة غير طبيعية أن يرمى بشىء مما يمس الكرامة ، فانه لم يتردد فى اعلان ذلك الولاء فى مجالسه الخاصة ، فقال يوما :

— انى مقتنع بما يقع فهو أقل ما يمكن عمله كى يصلح الوطن للحياة وتصلح الحياة له .

ولم أستشعر فى حديثه أو سلوكه أى أثر لمـرارة ،

ولا معنى بعد ذلك للتنقيب فى الأفئدة فلا يطالب مثله بأكثر من ذلك ، أكثر من أن يواجه بحكمة ثورة تاريخية منطلقة أصلا لاقتلاع طبقته ، وأن يقنع نفسه بها فلسفيا كحركة تاريخية حتمية لا مفر منها طال الزمان أو قصر • وفى عام ١٩٦٩ احتفل بعيد ميلاده الخامس والسبعين ، فازدحم الصالون بمن بقى على قيد الحياة من أساتذة الجامعة القدامى ، وبالأصدقاء سالم جبر ورضا حمادة وعزمى شاكر وكامل رمزى وقدرى رزق وجاد أبو العلا وعباس فوزى وصادق عبد الحميد ونعمات عارف نيابة عن زوجها زهير كامل ، وهفت على ذكريات ابراهيم عقل وجعفر خليل • ورأيت قلة من الشباب بينهم صبرى جاد وزوجته كاميليا زهران ، ولكن غلب الشعر الأبيض والتجاعيد والنظرات المجردة والعصى ، ولم أشعر من قبل كما شعرت ذلك اليوم بمرور الزمن وثقله وجلاله وغدره وأبديته وأثره وترفعه وتواضعه وحكمته ونزقه ، كأنما غفوت فى الديزل اغفاءة طويلة استيقظت بعدها فى محطة سيدى جابر • ورغم كل شىء فقد بقى لماهر عبد الكريم عيناه الزرقاوان الواسعتان وابتسامته الغازية ووقاره العذب • قال أستاذنا :

— لا احتفال بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، فلا يجوز أن نحتفل ونحن نقاتل ، ولكنها فرصة طيبة للاجتماع •

وشرق الحديث وغرب ولكنه كان يرتد الى بؤرة واحدة هى الصراع فى الشرق الأوسط ، ويعالج على مستويات

سياسية واقتصادية وفلسفية ودينية ، ويتفرع الى الموقف العالمى والكشوف العلمية والمشكلات العامة الانسانية والاضطرابات الخطيرة فى الغرب والشرق وذبول القيم والمستقبل ، أجل المستقبل ، وبأى وجه يطالعنا • وطغت موجة من التشاؤم ، وترددت كالهنك المطرب بين الشيوخ ، طوبة يرمون بها الدنيا المولية ، واشترك أستاذنا فى الجوقة ولكن بنغمة أخرى ، وفجأة قال :

— رحم الله ابراهيم عقل ••

ما الذى دعاه الى تذكره ؟ • كان أحب الأصدقاء الى قلبه ، ولم أشهد دمعه الا يوم جنازته عام ١٩٥٧ ، وتذكرت بدورى كلمته لنا قبيل التخرج • وعاد يقول :

— سلم بالايمان تسليمه بالموت وبالحقائق الملموسة مثل شروق الشمس ••

وابتسم طويلا ثم قال :

— قولوا فى الدنيا ما شئتم ، لا جديد فى التشاؤم ، ولكن الحياة فى صالح الانسان والا ما زاد عدده باطراد ، وما زادت سيطرته على دنياه •

محمــود درويش

كان يستلفت الأنظار بين طلبة الكلية بطول قامته ونحول قده ، وسرعان ما تميز بذكائه واجتهاده الخارق فاكتسب مكانة محترمة بين الزملاء ولدى الأساتذة المصريين والأجانب ، وكان دقيق الملامح وسيما ولكنه كان أيضا جافا منطويا على نفسه ، يزامل ويصاحب ولكنه لا يعرف الصداقة ، كان صديقه الحقيقى الكتاب • وكان أبوه امام مسجد بالجيزة ، يشكو كثرة العيال وقلة المال ، فكان محمود درويش يعانى حياة متقشفة ، ومن أول يوم نشأ سوء تفاهم بينه وبين عجلان ثابت ، اذ سمع عجلان محمود وهو يقول ان أباه امام مسجد فضحك ، فسأله محمود درويش :

— ماذا يضحكك ؟

فأجاب عجلان :

— ألا يضحكك أن تكون الامامة وظيفة ؟

فغضب محمود وقال له :

— أنت قليل الأدب •

وهتف به عجلان :

— اخرس !

وفصلنا بينهما ، ولكنهما أصرا على الخصام الى النهاية • وفى حادثة سرقة الطربوش التى اتهم فيها عجلان شهد محمود ضده ، وكان ضمن الأسباب التى أدت الى فصله من الكلية ، وقد عاتبناه فى ذلك ولكنه قال :

— لا خير فى أن نقدم للمجتمع لصا متعلما ••

وكانت آثار الكبت والحرمان تتجلى فى عينيه كلما وقع بصره على طالبة من الطالبات • وأما سعاد وهبى فكادت تتسبب فى جنونه ، ولكنه بدلا من أن يغازلها أو يحاول ذلك على الأقل راح يحمل على « تهتكها » حملة كادت تبلغ العلانية ، وكان أول من أبلغ العميد عن تبرجها ، وعن الفتنة التى تثيرها فى قاعة المحاضرات • والظاهر أنه تعــرض لأزمات عنيفــة ، وصراعات حادة بين حيوته وبين حرمانه الاجبارى ، فلم يجد أبوه حلا لذلك — بعقليته الريفية الدينية — الا أن يزوجه من ابنة عم يتيمة يكفلها فرجع الى الكلية فى العام الدراسى التالى متزوجا من فتاة رفية أمية ، ولكنها أراحت باله ، وأطلقت قواه فى التحصيل دون عائق • ولم يعد له من اهتمام الا العلم والتفوق ، وكان اذا احتشد لكتابة بحث ما نكلف بكتابته فى أثناء السنة الدراسية كتبه بذكاء واقتدار وأحاط به احاطة تقطع باطلاعه الواسع وبدرايته فى استخراج المراجع • ولذلك كان يتابعنا أحيانا ونحن نهدر بأحاديث السياسة وكأنه عاقل يستمع الى مجانين • وتساءل مرة :

— كيف تجدون متسعا بعد ذلك للدراسة ؟

فأجابه طالب متعجبا :

— كان الانجليز يحتلون وطنا غير وطنك وكان الملك يستبد بشعب غير شعبك !

ولم يكن يفرق بين مصطفى النحاس واسماعيل صدقى ، وأحيانا كان ينسى اسم « الباشا » الذى يرأس الحكومة . ولما اجتاحت موجة الاضراب الجامعة وقف حيالها غاضبا وعاجزا ، وكان يتسلل الى المكتبة فيقرأ ويقرأ وحده حتى تغلق ابوابها . ويوما وثب الى منصة الخطابة عقب خطبة ثورية القاها زعيم الطلبة . وثب الى المنصة ، وبجرأة جنونية . دعا الطلبة الى الإنتظام فى العمل والعكوف على الدراسة باعتبارها هدفهم الأسمى ، وهاج الطلاب وماجوا ، وطالبوا بانزاله ، ولولا الاحترام الذى اكتسبه بتفوقه لاعتدوا عليه اعتداء مؤكدا . وصدر أمر باغلاق الجامعة شهرا ، وفى أثناء ذلك قبض على زعماء الطلبة جميعا ، ولما عدنا الى الكلية وجدت همسا تتناقله الألسنة قال لى جعفر خليل :

— سمعت ؟ .. يقولون ان محمود درويش متصل بادارة الأمن العام ..

فاستفظعت ذلك ولم أصدقه فقال :

— يقال ان الذى رشحه لذلك أبوه باعتباره من ألسنة ادارة الأمن وعيونهم !

— ولكنه شاب مستقيم !

فقال بحزن :

— ويقال انه هو الذى أرشد الى زعماء الطلبة !

كانت اشاعة قوية ولكن لم يكن من سبيل الى التأكد منها ، وقد تحرش به بعض الطلبة وعرضوا بدوره فى المؤامرة ، ولكن الدكتور ابراهيم عقل استدعاهم الى مكتبه وهددهم — اذا عادوا — بابلاغ أمرهم الى الجهات المختصة . وعاشت الاشاعة معى زمنا طويلا ، وخلقت فى نفسى نفورا منه وبخاصة وأننى استثقلت ظله من أول يوم ، وكدت أومن بصدقها عقب تخرجنا عندما اختير محمود درويش عضوا فى بعثة الى فرنسا فى فترة من الزمن توقفت البعثات فيها تماما . وانقطعت أخباره عنى أعواما طوالا حتى صادفته فى مكتب الأستاذ عدلى المؤذن بوزارتنا فتصافحنا وجلسنا نتبادل الحديث . بدا لى وقتها فى صورة جديدة ، مليئة بالحيوية والصحة والعافية ، وطالعتنى عيناه من خلال نظارة أنيقة أسبغت على وجهه هيئة العلماء . قال :

— أنا مدرس اليوم بالكلية ..

فقال عدلى المؤذن :

— وهو شارع فى اصدار سلسلة فى فلسفة التصوف ..

وقال محمود درويش :

— أدركتنى الحرب فى فرنسا قبل اتمام الرسالة

فسافرت الى سويسرا وهناك حصلت على الدكتوراه ٠

ولما غادرنا قال لى عدلى المؤذن ضاحكا :

ـ عاد خواجا كما ترى ليجد فى انتظاره زوجة ريفية أمية ٠

وسألته عما قيل عنه يوما من اتصاله بادارة الأمن العام وخاصة وأن عدلى المؤذن كان موظفا فى ذلك الوقت بادارة الجامعة فقال عدلى باقتضاب :

ـ كلام فارغ ٠

ولما حكيت تلك الواقعة للأستاذ عباس فوزى ضحك طويلا وقال :

ـ يا لك من رجل طيب ! ، ألا تعلم أن عدلى المؤذن نفسه كان متصلا وقتها بادارة الأمن العام ؟

والتقيت ـ بعد ذلك بأعوام ـ بالدكتور محمود فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم بالمنيرة ، وكانت قدمه قد رسخت فى عالم التأليف ، وصدر له أكثر من ثلاثة كتب عدت من المراجع الهامة فى دراسة التصوف فى العصر الحديث ، وسمعت عنها الثناء تلو الثناء من أستاذنا ماهر عبد الكريم ٠ ويومها سألته عن أحواله فقال :

ـ لى أربعة أبناء فى كليات الهندسة والتجارة والحقوق والآداب وبنت متزوجة من ضابط طيار ٠٠

فسألته باهتمام :

ـ هل تمارس التصوف ؟

فأجاب ضاحكا :

ـ كلا ، ولكن لا مراء فى أن الانسان لا يتخصص الا فى مادة متغلغلة فى نفسه ٠٠

وفكرت فى زوجته التى اختارتها الظروف ربة لبيت من المثقفين وهى بدائية بكل معنى الكلمة ، فوددت لو أتسلل الى أعماق ذلك الجانب من حياته ، ولكنه كان يبدو متألقا بالسعادة والنجاح ٠ وقال لى :

ـ طبعا علمت بمأساة الدكتور ابراهيم عقل ؟

ـ طبعا ، كارثة ولا شك ، ولكنى لم أرك فى جنازة ابنيه ؟

ـ كنت خارج القاهرة ، هل حافظت على اتصالك به مذ تركت الكلية ؟

ـ كلا ٠٠

ـ انه أستاذ بلا تلاميذ ولا مريدين ٠

والتقيت به مرة أخرى فى صالون المنيرة ، ثم دعى للتدريس فى احدى الجامعات العربية فسافر خارج القطر وانقطعت عنى أخباره ٠

مجيدة عبد الرازق

فى زيارة لسالم جبر فى مكتبه بجريدة المصرى عام ١٩٥٠ قدم لى فتاة حسناء قائلا :

ــ مجيدة عبد الرازق محررة الصفحة النسائية ٠

كانت فى الثلاثين من عمرها ، رشيقة القوام ، تطالعك من عينيها السوداوين نظرة ذكية جذابة ، ولها شخصية قوية تفرض نفسها لدى أول اتصال ٠ والتقيت بها للمرة الثانية فى حفل انتخابى أقامه الدكتور زهير كامل للدعاية لنفسه فسألتها :

ــ اذن فأنت وفدية ؟

فقالت باسمة :

ــ أنا تلميذة للدكتور زهير كامل ٠

ــ آداب ؟

ــ قسم الصحافة ٠

ــ ووفدية ؟

ــ أبعد من ذلك بكثير !

فتساءلت وأنا أنظر فى عينيها الجميلتين :

ــ ماذا تعنين ؟

فابتسمت ولم تجب ٠ والتقيت بها للمرة الثالثة فى بيت زهير كامل فشعرت بأننا ننتقل من مرحلة

التعارف الودى الى مرحلة الصداقة الحقيقية ٠ وعقب ذهابها قال لى الدكتور زهير كامل :

ــ انها مثقفة ثقافة تستحق التقدير وذات شخصية محترمة ٠

فقلت بحماس :

ــ أعتقد ذلك ٠

وهو يبتسم :

ــ وهى شيوعية أيضا !

ــ شيوعية ؟ !

ــ امرأة مصرية معذبة من ضحايا فترة الانتقال ٠

وجمعت بيننا صداقة وطيدة واحترام متبادل ٠ وكنا نجتمع فى أوقات متفرقة بجروبى مع نفر من الأصدقاء ، فتجالسنا مجالسة الأنداد ، وتتجاهل ايماءات الغزل التى توجه اليها أحيانا ، باعتبارها عبثا صغيرا ، اذ لم تكن تتبع الحيل النسائية البالية ، ولا تحترم القيم البرجوازية ، ولكنها كانت تنشد دائما العاطفة الصادقة الأصيلة ٠ قالت لى يوما :

ــ حذار أن تظن بى البرود !

فتساءلت :

ــ ما الذى جعلك تفكرين فى ذلك ؟

فقالت بحرارة :

ــ انى أعبد الحب ٠

ثم كالمستدركة :

ــ أعبد الحب والأيديولوجية ٠

ولما استتب اطمئنانها الى قصت على قصة حياتها فى مقهى الفيشاوى ، قالت :

ـ نشأت فى أسرة من البرجوازية الصغيرة ، ربها موظف مغمـور ، وكنت البنت الوحيدة بين أربعـة ذكور !

فقلت باسما :

ـ إذن كنت جوهرة مدللة ..

ـ بالعكس ، عانيت الاضطهاد من الجميع ، وكان يزداد بتقدم العمر ، ولكنى فرضـت الاحترام عليهم بتفوقى فى المدرسة ..

فأعلنت اعجابى بابتسامة فقالت :

ـ وتقدم لى عريس بعد نجاحى فى الثانوية العامة وبالرغم من ترحيب الجميع به الا أننى اشترطت عليه أن يسمح لى باتمام دراستى الجامعية ، فسألنى عن الحكمة وراء ذلك ، فصـارحته برغبتى فى العمـل ، ولكنه لم يوافق ، وانضم اليه فى الرأى أهلى ولكننى صممت ، فذهب ..

ـ وحققت مشروعك بالكامل !

ـ أجل ولكنى عرفت فى الكلية أستاذا كان له أكبر الأثر فى حياتى ، طبعـا سمعت عن الأسـتاذ محمـد العارف ؟

ـ أجل .

ـ علمنى العلم وما هو أخطر منه ..

ـ الشيوعية ؟

ـ نعم ، ثم ألف بيننـا حب عميـق ، وسرعان ما تزوجنا بعد تخرجى مباشرة ..

فقلت بدهشة :

ـ حسبتك غير متزوجة !

ـ عشت أياما سعيدة وأنجبت توأمين ذكرا وأنثى .

ـ جميل حقا .

ـ وكانت أمه هى ربة بيتنا فلما توفيت اعترضتنا متاعب فتمزقت بين العمل فى الجريدة وبين واجبات البيت ، وكان زوجى يحب النظام كما يحب أن يكون موضع الرعاية فاقترح على أن أتفرغ للبيت ..

ـ رأى لا يخلو من وجاهة .

فقالت بحدة :

ـ كلا ، كانت لى آمالى الخاصة أيضـا فرفضت ، ولم أجد منه عطفا ولا تقديرا .

فلم أنبس بكلمة فقالت :

ـ وتكشفت لى أنانيته وقلة أدبه ورغبته الدفينة فى السـيادة ، واشـتعل بيتنا بالعنـف والخصام ، ثم انتهى الأمر بالطلاق ..

ـ متى وقع ذلك ؟

ـ أيام الكوليرا !

فسألت باشفاق :

ـ وكيف حالك الآن ؟

فقالت بمباهاة :

ـ أتقـدم فى عملى كما ترى ، وتعاوننى فى تربيـة

الطفلين امرأة طيبة ، وهو يمدنى بالنفقة الشرعية ٠

ولما قامت ثورة يوليو بذرت فى ساحة صداقتنا الهادئة بذور خلاف عنيد لأول مرة ، فاتهمتها بأنها ثورة رجعية ، أو لون جديد من الفاشستية ، أو انقلاب برجوازى صغير يشبع تطلعات أمثالى من البرجوازيين الصغار ! ٠ وأصرت على رأيها حتى اتجهت الثورة الى الكتلة الشرقية فأخذ عنادها يلين ورأيها يتغير ٠ وساءتنى وحدتها كثيرا ٠ وشعرت بأنها تعانى منها مرارة حادة ، ولكنها رفضت دائما رغبات الزملاء الجامحة العابثة انتظارا للحب الحقيقى الذى تعبده كما قالت لى من قديم ٠ وبصراحتها العذبة قالت لى مرة :

— خدعت مرة واحدة !

— لا أصدق ٠

— طبيب أطفالى عليه اللعنة !

— ولكن كيف ٠٠ ؟

— وكان أيضا متزوجا !

— ولكن الرجل المتزوج ٠٠٠ ؟ !

— خطأ حقيقة ولكنه الحب ، وأفهمنى أنه غير سعيد وأنه سيطلق لأسباب لا تتعلق بى !

— وصدقته ؟

— ما أفظع الخداع ، انه أنكر من القتل ، وسلمت بدون قيد ولا شرط ٠

— شىء فظيع حقا ٠

— عليه اللعنة ، وكانت أيامه سوداء كخداعه فكنا نلتقى فى عيادته فى جو غارات الاعتداء الثلاثى ٠

ومنذ تلك التجربة المريرة استقر سوء الظن فى أعماقها فتضاعف شعورها بوحدتها وحنينها الى الحب الحقيقى ٠ ومضى يغزوها الزمن حتى بلغت اليوم الخمسين من عمرها ، وقد تزوجت ابنتها ، وسافر ابنها للعمل فى اذاعة الكويت ، فغرقت فى الوحدة والكهولة حتى قمة الرأس ٠ وما زالت حتى اليوم محافظة على رشاقة قدها ، ومسحة من جمالها، واذا دعيت الى التليفزيون فهى تستأثر بالأنظار والأسماع بقوة شخصيتها ومرونة منطقها وغزارة معلوماتها ، واذا خلوت اليها خيل الى أنه أستمع الى وحوحة تند عن أعماقها ٠

وما زالت مواظبة على زيارة أستاذها القديم الدكتور زهير كامل ، كما نشأت صداقة حميمة بينها وبين زوجته الجديدة الصغيرة نعمات عارف ، ولا شك أنها علمت بعلاقتها بالدكتور صادق عبد الحميد، ولكنها تجاهلت ذلك تماما ، وتمنت ألا تنكشف الحقيقة لأستاذها أبدا ٠ وعلمت أخيرا — وسعدت بذلك جدا — أنها ستقوم برحلة صحفية لزيارة بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط فقلت لعلها تجد فيها تسلية عن وحدتها وتجديدا لحياتها ومادة طريفة لقلمها ٠

ناجى مرقص

لا أنسى هذا الاسم أبدا ، لم يمح من ذاكرتى كأنه اسم علم من الأعلام ، رغم أننى لم أزامله الا ثلاثة أعوام من حياتى ، ما بين ١٩٢٥ و ١٩٢٨ فى المدرسة الثانوية • أمضى فترة الدراسة الابتدائية فى السودان حيث كان يعمل والده ، ولما عاد الرجل الى مصر أقام فى العباسية وألحق ابنه بمدرستنا • وقال ناجى لى يوما :

ـ كنا اخوة أربعة ، مات ثلاثة ، وبقيت أنا •

وقال لى مرة أخرى :

ـ أمى حزينة لا تضحك أبدا ••

وكان رشيقا طويلا وسيم الوجه لطيفا مهذبا ورزينا لدرجة لا تناسب سنه ولعله كان الوحيد فى سنة أولى الذى يلبس بنطلونا طويلا • وربما كان أنبغ تلميذ صادفته فى حياتى • كان لكل تلميذ مجال فى تفوقه ان وجد ، فتلميذ يتفوق فى اللغات وآخر يتفوق فى الرياضيات وهكذا أما ناجى مرقص فكان متفوقا ممتازا فى جميع المواد ، فى العربية والانجليزية والفرنسية والحساب والجبر والهندسة والطبيعة والكيمياء والتاريخ والجغرافيا • وكان الأول دون نزاع وكان المدرسون على اختلاف جنسياتهم من

مصريين وانجليز وفرنسيين يحترمونه ويعاملونه كأنه رجل لا تلميذ • وكان بدر الزيادى يسميه عبد الحليم المصرى تشبيها لتفوقه بقوة المصارع الشهير •

وسألته يوما :

ـ كيف تفوقت فى جميع المواد ؟

فأجاب بأدبه الجم :

ـ أنتبه فى الفصل وأذاكر من أول يوم فى السنة الدراسية •

وسأله جعفر خليل :

ـ ألا تذهب الى السينما كل خميس ؟

ـ فى الأعياد والمواسم فقط •

فسأله عيد منصور :

ـ ألا تلعب الكرة ؟

ـ كلا •

فسأله رضا حمادة :

ـ أليس لك هواية ؟

فأجاب :

ـ أعزف على البيانو فى أوقات الفراغ •

فقال له رضا :

ـ انك لا تشترك فى الاضرابات أفلا تهتم بالوطنية ؟

ـ أهتم بها طبعا ولكن ••

وتردد لحظات ثم قال :

ـ ولكن أخى الأكبر قتل فى مظاهرة !

ونجح فى امتحان الكفاءة بتفوق فجاء ترتيبه بين

العشرة الأوائل فى القطر كله ، وعندما عدنا الى المدرسة فى بدء العام الدراسى الجديد لم نعثر لناجى مرقص على أثر لا فى القسم العلمى ولا القسم الأدبى . وتساءلنا عن سر اختفائه دون أن نظفر بجواب . وكان يسكن بعيدا عن حينا فى أطراف العباسية المشرفة على منشية البكرىفذهبنا الى مسكنه نستطلع فعلمنا هناك بأنه أصيب فى صدره وأنه أرسل الى جدته بصعيد مصر ليعالج وان علاجه سيستغرق عاما كاملا فى أقل تقدير . أحزننا الخبر كما أحزن جميع أقرانه ومدرسيه ، وأرسلنا اليه رسالة جماعية حملناها تحياتنا وتمنياتنا له بالشفاء العاجل . وحدث فى ذلك الوقت أن قدم مصطفى النحاس الى المحاكمة فى قضية سيف الدين فبرأته المحكمة العليا ، وذهبت وفود من الشعب الى بيت الأمة تهنئه ، وذهب فيمن ذهب والد صديقنا وهو موظف فى وزارة الحربية ، وظهرت صورته لسوء الحظ ضمن صور المهنئين فقررت الوزارة فصله . وشق على الرجل الرفت وكان فقيرا كما كان مريضا بالقلب فأصيب بالفالج وقضى نحبه . وشفى ناجى من مرضه ولكنه عجز عن مواصلة التعليم فانتهز أهل الخير فرصة عودة الوفد الى الحكم وسعوا الى تعيين الشاب الصغير فى وزارة الحربية فتعين فى وظيفة صغيرة خارج الهيئة ، كذلك قضت الظروف على أنبغ تلميذ فى جيلنا . وكثيرا ما كنت أتذكره وأتحسر على نهايته ،

وكلما صادفنى شىء من التوفيق فى حياتى الدراسية أو العملية تذكرته فداخلنى الأسى وتخيلت الأمجاد التى وئدت بضربة عمياء من ضربات العبث . ومضت أعوام فأعوام دون أن تقع عليه عيناى أو أسمع عنه ذكرا حتى التقيت به مصادفة فى كازينو حديقة الأربكية عام ١٩٦٠ . مررت به أول الأمر دون أن أفطن الى هويته اذ جذبت عينى لحيته البيضاء فحسبته فنانا ، ثم سمعت صوته ينادينى فالتفت الى وجهه وعرفته فى الحال . وتصافحنا بحرارة ثم جلسنا حول مائدة متواجهين . لم يكد يتغير وجهه لولا لحيته وشيبة رأسه ، وانبعثت من جملة منظره شفافية عذبة كالعبير الحلو أو الطمأنينة الشاملة . وتذاكرنا الماضى والزملاء ، من رحلوا مثل بدر الزيادى وجعفر خليل ، ومن نبغوا فى الحياة مثل رضا حمادة وسرور عبد الباقى وغيرهما ، ثم جاء دوره فقال :

ـ ما زلت موظفا بوزارة الدفاع ووصلت الى الدرجة الثالثة ، متزوج وأب لفتاة فى العشرين طالبة بكلية العلوم ..

وسكت قليلا ثم استطرد :

ـ اتجهت من قديم الى دراسة الروحانيات ، عن طريق الكتب والمراسلة ..

فقلت له :

ـ قرأت بعض الكتب عنها .

فابتسم قائلا :

ـ انى أدرسها وأمارسها !
ـ حقا ؟ !
فقال بوجد وحماس :
ـ عالم الروح عالم عجيب ، أعجب من عالم المادة ..
فتابعته باهتمام واحترام فاستطرد :
ـ وهو أمل الانسان فى الخلاص الحقيقى .
فقلت مجاملا وصادقا فى آن :
ـ الانسان فى حاجة الى الخلاص .
فقال بحرارة متشجعا باقبالى :
ـ حضارتنا مادية ، وهى تحقق بالعلم ـ كل يوم ـ انتصارات مذهلة وتمهد لسيطرة الانسان على دنياه ولكن ما جدوى أن تملك الدنيا وتفقد نفسك ؟
فقلت بحذر :
ـ على الانسان أن يملك الاثنين !
فابتسم بعذوبة وقال :
ـ لعلك لا تؤمن بقولى ، أو لعلك لا تؤمن به كل الايمان ، ولكن ثق من أن عالم الروح حافل بالمجاهل كعالم المادة ، وأن التنقيب فيه يعد الانسان بانتصارات مذهلة لا تقل عن انتصاراته فى غزو الفضاء ، وأنه لا ينقصنا الا أن نؤمن بمنهج روحى كما نؤمن بالمنهج العلمى ، وأن نؤمن أيضا بأن الحقيقة الكاملة هى ملتقى طريقين لا غاية طريق واحد ..
ـ حكمة معقولة ..

فرنا الى بنظرة حنون من عينيه السوداوين ـ أدركت لونهما لأول مرة ـ وقال برثاء وشفافية :
ـ ما أضعف صوت الحق وسط هدير الآلات ، ولكن ما أحوج الانسانية اليوم الى منقذ ..
فسألته بحب استطلاع :
ـ كيف تتصور المنقذ ؟
ـ أتصوره رجلا أو فكرة أو درسا باهظ الثمن !
ـ كحرب ذرية ؟
ـ ربما ، على أى حال أشعر بأن ثمة حجابا يفصل بينى وبينك ولكنه حجاب شفاف ضعيف الجذور ، وأن استعدادك لحب الحقيقة كبير ، وانى أمارس تحضير الأرواح فى بيتى فلعلك تزورنى يوما ..
وأعطانى بطاقته التى لم يطبع عليها الا الاسم والوظيفة والعنوان بشارع دير الملاك . ومع أننى تلقيت كلماته بحب لا باقتناع الا أنه خطر فى جحيم حياتى كعبير زهر اللارنج . وفى مساء اليوم نفسه قابلت الأستاذ سالم جبر فى مكتبه بالجريدة ، وحدثته عن ناجى مرقص ودعوته ، وباغراء وتحد معا عرضت عليه أن نزوره معا ، ولكنه استسخف الفكرة ، وذكرنى بأنه لم يعد يوجد فاصل بين عالمى المادة والروح ، وأن التوغل فى حقيقة المادة هو توغل فى حقيقة الروح ، وأن صديقك يدعوك الى طقوس سحرية فى عصر الفضاء ! . ولم أر ناجى مرقص بعد ذلك ولكنه يهفو على قلبى أحيانا كذكريات الصبا فأدرك أنه يعيش فى ركن من نفسى ..

نادر برهان

كان بطلا من الأبطال فى حياتنا الصغيرة بالمدرسة الابتدائيـة ما بين عامى ١٩٢١ و ١٩٢٥ . كان يكبرنا بأعوام ، وكان قويا طويل القامة ، ومنذ أول يوم لنا فى المدرسة قيل لنا انه زعيم التلاميذ بالمدرسة . وكنا نلتف حوله فى فناء المدرسة ونتابع كلامه باهتمـام . وكان يقول :

ــ لا تستصغروا أنفسكم فأنتم جنـود سعد ، أى جنود الوطن ..

وكان يقول أيضا :

ــ علينا أن نوطن أنفسـنا على قبـول الضرب أو السجن أو حتى المشنقة ، فلا قيمة للحياة بلا حرية ، ولا حرية بلا تضحية ، وقد أرسل الله لنا سعد زغلول زعيما وعلينا أن نكون جديرين بزعامته ..

وكنت أجله وأعجب به وكان رضا حمادة يعبده ولم يجرؤ سيد شعير أو خليل زكى على السخرية منه ، أما اذا حدث عن زياراته لبيت الأمة ومحاوراته مع الزعيم فكان يبهرنا لحد الجنون ، ونفد منى الصبر فاقتربت منه ذات يوم وقلت :

ــ أريد رؤية سعد بالعين فهلا أخذتنا الى بيت الأمة ؟

فنظر الى بعطف وقال :

ــ ما زلت صغيرا تسير فى بنطلون قصير ، وزيارة بيت الأمة مغامرة خطيرة لا رحلة آمنة ..

وكان اذا تقرر اضراب ومظاهرة انتظر نادر برهان حتى تنتظمنا طوابير الصباح ، ثم يتقـدم خطوات الى الأمام ويأخذ فى التصـفيق بقوة ، وسرعان ما تدوى الطوابير بالتصفيق ، وعند ذاك يبادر ضباط المدرسة الى طوابير التلاميذ الصغار فيمضون بهم الى الفصول بسـماح من التـلاميذ المضربين فنمضى ونحن نهتف بحياة سعد ، ويذهب الباقون فى مظاهرة على رأسهـا نادر برهان الى الطـريق فيلتقـون بتلاميـذ المدارس الأخرى ، وفى احدى المظاهرات أصيب برصاصـة فى ساقه فقضى فى المستشفى شهرين ثم لازمه عرج خفيف بقية عمره . وتحت زعامته اشتركت فى أول مظاهرة فى حيـاتى عام ١٩٢٤ . دعانا الى الاضراب وخطـب فينا قائلا ان الملك فؤاد يريد التلاعب بالدستور وان سـعد زغلول رئيس الوزراء ــ تلك المـرة ــ يقف فى صلابة للدفاع عن حقوق الشعب ، وان علينا أن نذهب الى ميدان عابدين لتأييد الزعيم . ولما كانت الحكومة شعبية لأول مرة ، ولما كان رئيسها هو وزير الداخلية ، فقد سمح لنا بالاشتراك فى المظاهرة باعتبارها مظاهرة سلمية ، وسرنا فى حشود هائلة من التلاميذ والطلاب وأهل البلد حتى اكتظ بنا ميدان عابدين ، ورحنا ندق باب القصر بأيدينا ونهتف « سعد أو الثورة » ..

وترامى من بعيد هدير هتاف شامل ايذانا بمقدم

الزعيم لمقابلة الملك · واشتد الضغط حول ممر ضيق شقه رجال الشرطة بصفين منهم لتسير فيه سيارة الزعيم ، وقلت لرضا حمادة بسرور غامر :

ـ سترى أعيننا سعد زغلول ·

فقال بحماس :

ـ نعم ولو لبضع ثوان ··

وتسللنا بخفة وعناد حتى بلغنا حافة الممر ، ورأينا السيارة قادمة ببطء شديد والخلق يحيطون بها ويتعلقون بأركانها ويقفون فوق غطائها · وتطلعنا بأعين ملهوفة نهمة ولكننا لم نر الا أجساد البشر ولم يتجل من الزعيم ملمح واحد ، وبؤنا بحسرة لازمتنا طويلا ·

ولما انتقلت الى المدرسة الثانوية انقطعت عنى أخبار نادر برهان · لم أره ولم أسمع عنه ، افترقت عنه عام ١٩٢٥ وانقضت أربعون عاما حتى صادفته فى مقهى أسترا شتاء عام ١٩٦٥ · كنت عائدا من لقاء نهارى مع أمانى محمد فملت الى مقهى أسترا لأشرب فنجان قهوة فرأيته جالسا وحده ، بدينا عملاقا ، ومعطفه مثنى على ظهر كرسى الى جانبه · عرفته من أول نظرة ، وخيل الى أنه لم يتغير كثيرا رغم أنه كان فى الستين ، حتى شعر رأسه ظل أسود عدا سوالفه · وأقبلت عليه باسما فنظر الىّ بانكار ولكنه صافحنى ، فلما ذكرته بالمدرسة الابتدائية والزعامة تهلل وجهه ودعانى للجلوس فجلست · قلت له :

ـ عينى عليك باردة ، لم تتغير ·

فقال ضاحكا :

ـ أنا من أسرة معمرين لا يموتون الا فى الحوادث ·

وذكرته بالزملاء وأخبرته عن المصائر فاتضح أنه لا يعرف الا رضا حمادة معرفة غير شخصية · ولما سألته عن حاله رحب بالحديث جدا كأنما كان يبحث عن متنفس له · قال :

ـ بعد الابتدائية التحقت بالمدرسة الثانوية فى أسيوط لانتقال أبى اليها ، ولكنى رفت فى عهد محمد محمود ، ورجعت فى عهد النحاس ، ثم رفت مرة أخرى فى حكم صدقى ، ثم اتهمت فى قضية الشروع فى اغتياله وسجنت ، حكم علىّ بعشرة أعوام ولكنى خرجت بعفو فى حكومة النحاس التى عقدت المعاهدة ، ووجدت أنه من العبث أن أحاول اتمام دراستى الثانوية فعيننى الوفد وكيلا لجريدة الجهاد فى الاسكندرية ··

وسكت قليلا متجهم الوجه لذكريات لا أدرى بها ثم قال :

ـ لم أحزن فى حياتى مثلما حزنت للخلاف بين مصطفى النحاس والنقراشى ، كان النحاس زعيمى ، وكان النقراشى أبى الروحى ، ولم أتصور الدنيا صالحة للحياة مع وجود عداوة بين الرجلين ، وسارت الأحداث فى المجرى الذى تذكره ، فبلغ بى التقزز مداه · ولما كانت المعاهدة قد ختمت ثورة

١٩١٩ وتحقق لنا الاستقلال ولو بعد حين ، فقد قررت اعتزال السياسة ، وصادف ذلك وفاة أبى ووراثتى لقدر لا بأس به من المال ففتحت مطعم سمك فى سيدى جابر وفتح الله علىّ ٠٠

ـ اذن اعتزلت السياسة ؟

ـ منذ عام ١٩٣٧ ٠

ثم وهو يعتدل فى اهتمام :

ـ ولكنى لم أنقطع عن متابعة الأحداث ، لعلى السماك الوحيد الذى يفلى الجريدة قبل أن يقول يا فتاح يا عليم ٠٠

ثم وهو يهز رأسه فى أسى :

ـ وكنت أتابع تدهور الأحوال بحزن ، وكلما تسلل الى الوفد ضعف أو انصرف عنه جيل من الشباب تقطع قلبى ، ولكن ما باليد حيلة ٠٠

فقلت :

ـ لكل شىء شباب وشيخوخة ، تلك سنة الحياة ٠

ـ ولكن الوفد فى حياتنا يمثل عصر الفتوة والبعث ، دلنى على أى فترة تاريخية منذ عهد ما قبل الأسر حتى اليوم ساد فيها الشعب وتعملق كما ساد وتعملق أيام الوفد ؟

ثم وهو يضحك :

ـ ولما قامت ثورة يوليو حمدت الله على القرار الذى اتخذته بملء حريتى قبل أن أرغم عليه أو على ما هو أسوأ منه ٠٠

ـ ولكنك قدرت للثورة أعمالها المجيدة بلا شك ؟

ـ الاعتراف بالحق فضيلة ، ولكنى لا أغتفر لها محاولة النيل من زعامة سعد زغلول ٠

فقلت :

ـ للسياسة مقتضياتها ، وأظنك لا تنسى موقف مصطفى كامل من أحمد عرابى ٠

فسألنى باهتمام :

ـ هل شاهدتَ جنازة مصطفى النحاس ؟ ٠ كانت رد اعتبار شعبى لسعد وللوفد ولأكبر ثورة شعبية فى حياتنا ٠٠

وأخبرنى أنه يزور القاهرة من حين لآخر منذ عامين لانتقال كريمته اليها بحكم الزواج ، ثم حدثنى عن أسرته فقال :

ـ ابنى الأكبر سماك مثلى ، الأوسط مهندس ، الأصغر ضابط طيار ٠٠

ومنذ ذلك التاريخ واظبت لدى كل تصييفة فى الاسكندرية على تناول العشاء ولو مرة فى مطعم زعيمى القديم ٠ وفى صيف عام ١٩٦٩ وجدته حزينا على غير عادته ٠ وقال لى :

ـ فى أواخر العام الماضى هاجر ابنى المهندس الى كندا !

ثم بنبرة متهدجة :

ـ وفى شتاء هذا العام استشهد ابنى الطيار فى سبيل الوطن !

هجار المنيـاوى

كان الشيخ هجار المنياوى مدرس اللغة العربية فى مدرستنا الابتدائية ، ولحق بنا فى المدرسة الثانوية ، وكان من أهل الصعيد ، ينطق بلهجتهم ، قوى البنيان طويل القامة غامق السمرة ، قليل العناية بمظهـره ، فعمته أصغر مما ينبغى ولا ذوق له فى اختيـار ألوان الجبة والقفطان ، ولكنه كان يفرض الاحترام بقـوة شخصيته والتمكن من مادته وشجاعته الفائقة ، ولم يكن متزمتا ، كان يحب النكتة ، ويروى لنـا جميـل الأشعار ، ومرة تبـارى فى فناء المدرسـة مع مدرسى الرياضة البدنية فى التحطيب ، فلعب بعصاه برشاقة أذهلتنا وانتصر على خصـمه وسط تصـفيق حاد ٠ ومرة دخل جعفر خليل الفصل متأخرا بعد أن انتظمنا فى مجالسنا ، وكعـادته فى حب المزاح ، قلد أسـتاذنا فقال له :

– عم صباحا ٠

وضحك الفصل وانبسط جعفـر ، وتركه الشـيخ هجار حتى جلس ، ثم ناداه :

– جعفر خليل ٠

فوقف فقال له بهدوء :

– أعرب « عم صباحا » ٠

وعجز جعفر عَن اعرابها ففتح الشيخ دفتر يومية التلاميذ وأعطاه صفرا ، فاحتج جعفر قائلا :

– انها صعبة !

فقال الشيخ بهدوء :

– ولم تستعمل ما لا تفهمه ؟

أما جانبه الجاد فكان فذا لا يتكرر ٠ كان فى المدرسة الابتدائية – عصر الثورة – مدرسا للغـة العـربية والوطنيـة ٠ فلدى أى مناسـبة يفتـح باب الحديث الوطنى ، يستعيد الذكريات المجيدة ، ويشيد بالأبطال، ونحن نتابعه والدموع فى أعينا ، وكان يحدث عن سعد زغلول وكأنه ولى من أولياء الله أو صاحب معجزات ، معتبرا زعامته رسـالة سماوية ومعجزة تاريخية ، ومنه عرفنا ما لم نكن نعرف عن نشأة سعد ، ومهارته فى المحاماة ، ومواقفـه فى نظـارة المعـارف ونظارة الحقانية ، وزعامته ، وتحديه لقوة الانجليز ، وسحره وبلاغته ، وما ينتظر البلاد على يديه ، وكان يقول :

– ببلاغته عبأ الشعور ، وباسمه قامت الثورة ٠٠

وكان يعرف التلميذ الكامل فيقول :

– هو من يحصل العلم ويثور على الطغاة ٠

وكنا نحبه بقـدر ما نجله ، ونتلقى عنـه الوطنية والأصالة ، وبفضله أحببنا اللغـة العـربية وعشقنا أشعارها ٠

وفى المدرسة الثانوية تغير مذاق الجهاد ، فتوارت عنا وجوه الانجليز وبرزت فى الصورة وجوه المصريين

الموالين لهم ، واحتلت الحزبية المكان الأول فى الصراع، وخاض الشيخ المعركة الجديدة بنفس القوة والصلابة، وكان يقول :

ـ المعركة هى المعركة ولكن الأعداء ازدادوا عددا فوجب علينا مضاعفة الجهاد ·

ويوم أضربنا على عهد محمد محمود ، اليوم الذى استشهد فيه بدر الزيادى ، أخرجه ناظر المدرسة فطالبه بأن يخطب التلاميذ حاثا اياهم على الانتظام فى الدراسة ، وكان فى طبعه حدة تثور على التحدى وتنفجر غضبا أعمى ، فاعتلى المنصة أمام حجرة الناظر وصاح بصوت رهيب :

ـ العلم يطالبكم بالنظام والوطن يطالبكم بالجهاد وليس لكم الا ضمائركم فارجعوا اليها ··

وكتب الناظر تقريرا عنه فرفعه الى وزير المعارف وسرعان ما تقرر فصله · ويوم غاب عن المدرسة وانتشر الخبر هاجم الطلبة حجرة الناظر حتى اضطر الى الفرار من المدرسة ، واضطرت الوزارة الى نقله حماية لحياته · وقد عاد الشيخ الى المدرسة فى عهد الوفد ولكنه فصل مرة أخرى فى عهد صدقى ، فعمل فى مدرسة بين الجناين الأهلية التى كان يملكها رجل وفدى معروف · وفى حكومة المعاهدة تعين مفتشا بالوزارة وسويت حالته تسوية عادلة · وفى انتخابات ١٩٤٢ رشح نفسه على مبادىء الوفد فنجح ، كما نجح مرة أخرى عام ١٩٥٠ · وقد التقيت به مرات فى بيت

رضا حمادة كما عرفت بعض أبنائه · ولما صدر قرار حل الأحزاب ـ بعد ثورة يوليو ـ رجع الى قريته فى الصعيد فلم يبرحها ، ولا أدرى ان كان ما زال على قيد الحياة أم انتقل الى جوار ربه · ومما يذكر أنه فى سبتمبر عام ١٩٥٢ أو ١٩٥٣ وكنت مارا أمام نادى الجيش القديم بالشاطبى ، رأيت بعض أعضاء الوفد واقفين فى فناء النادى يحيط بهم جند ، وسمعت من بعض المارة بأنهم اعتقلوا وسيرحلون الى القاهرة ، ورأيت بين الضباط الذين يشرفون على الاجراءات الضابط محمد هجار ابن شيخنا القديم هجار المنياوى · تأملت الموقف ، نظرت طويلا الى الابن ، تذكرت الأب ، ثم خيل الى أنى أسمع هدير الزمن وهو يتدفق حاملا متناقضاته المتلاطمة ·

وداد رشدى

رأيت وداد رشدى لأول مرة عندما جاءت لزيارة كاميليا زهران بادارة السكرتارية يوما من أيام ١٩٦٥ ، وكانت عملاقة ، تمتد طولا وعرضا ، ولكنها رشيقة بالنسبة لحجمها ، وقسماتها كانت كبيرة فى ذاتها ، ولكنها مقبولة وجميلة فى موضعها من الجسم المترامى ، وبصفة عامة يوحى منظرها بالقوة والجمال والطلاقة كتمثال ، وتؤثر نظرة عينيها العسليتين بجرأتها غير العادية ، هذا الى جاذبية جنسية نفاذة كالعطر الفواح • وكلما اختلست منها نظرة وجدتها تنظر الى حتى ثارت تساؤلاتى • قدرت عمرها بالثلاثين ، ومن ملاحظة يسراها عرفت أنها متزوجة ، وجعلت أتساءل عما يدعوها الى ملاحقتى بنظراتها ، وكانت علاقتى بأمانى محمد ما زالت فى عنفوانها • وخيل الى أنى عرفت السبب عندما أقبلت هى وكاميليا نحو مكتبى ، جلستا على كرسيين متقابلين أمام المكتب ، وقالت كاميليا :

ـ لا مؤاخذة يا أستاذ نريد استطلاع رأيك فى مسألة ؟

فسلمت وأنا أقول :

ـ تحت أمركما ••

فقالت كاميليا :

ـ صديقتى وداد رشدى ، ستحدثك بنفسها ••

وقالت وداد بصوت ناعم واضح ذى درجة عالية تناسب حجمها :

ـ المسألة بكل بساطة انى حصلت على ليسانس الحقوق منذ خمسة أعوام ، لكنى تزوجت ولم أتوظف ، وزوجى الآن معار فى الكويت لمدة عام ، وأفكر فى التوظف فهل يمكن اتمام ذلك عن طريق ادارة القوى العاملة ؟

فقلت :

ـ كلا ، ولكن جربى حظك بطلب خاص أو بالاشتراك فى أى مسابقة يعلن عنها ••

ـ واضح أن الأمل فى تلك الحالة ضعيف ••

ـ لا أقول انه قوى ، ولكن عليك أن تجربى ••

وقالت كاميليا زهران :

ـ انها أم لطفلتين ومع ذلك تريد أن تتوظف ••

فقالت وداد :

ـ جميع زميلاتى متزوجات وموظفات ! •

فسألتها :

ـ وماذا عن الطفلتين ؟

ـ لن ألقى متاعب من هذه الناحية ••

ـ وماذا عن زوجك ؟

ـ موافق ••

وقالت كاميليا :

ـ ساعدها بما تستطيعه ··
وزكت وداد نفسها قائلة :
ـ نحن جيران من الزمن القديم !
فتساءلت بدهشة :
ـ حقا ؟
ـ لا تذكر لأنى كنت صغيرة ، ذلك تاريخ يرجع الى عشرين عاما وكنت فى العاشرة ، ثم غادرنا حيكم منذ خمسة عشر عاما وأنا فى الخامسة عشرة ··
ـ ذلك تاريخ قديم ولكن ليس جدا فكيف لا أذكرك ؟
ـ أما أنا فأذكرك كما أذكر رضا حمادة وسرور عبد الباقى وجعفر خليل الله يرحمـــه ، وسرور عبد الباقى اليوم هو دكتورنا المفضل ، وما زلت أذكر وفاة جعفر خليل الغريبة ··
فقلت بحنان :
ـ يا لها من ذكريات ! ··
وتساءلت كاميليا بمكر :
ـ أرأيت ؟ !
وبعد مرور أسبوع على المقابلة تلفنت الى بخصوص الوظيفة أيضا ولكنى شعرت أنها لم تكن الا مماحكة للمحاورة · وعجبت ماذا تريد العمـــلاقة الجميـلة المتزوجة ؟ ، وجعلت أقارن بينها وبين أمانى محمد ، بل بينها وبين درية ، واستثار الوجد فدعا من غيابات الماضى حنان مصطفى وصفاء الكاتب · وسألتها :
ـ ألن تزورى كاميليا مرة أخرى ؟

فسألتنى بصراحة :
ـ أتريد أن ترانى ؟
فلم أجد مفرا من أن أقول :
ـ يسعدنى ذلك ··
فسألتنى بتحد :
ـ ولماذا يسعدك ؟
فانزلقت الى القول :
ـ مرآك يسعد الأنفس ·
فضحكت وقالت :
ـ الادارة عندكم مزدحمة وتفوح برائحة الأوراق ·
فارتضيت الهاوية دون تقدير للعواقب وقلت :
ـ اذن ليكن فى مكان هادىء ·
ـ أتحب الأماكن الهادئة ؟
ـ جدا ··
ـ بشرط !
ـ أفندم ؟
ـ أن تجىء بنية طيبة ·
ـ طبعا ·
ـ تذكر ذلك ·
ـ وعد ·
ـ فما أهدأ مكان فى نظرك ؟
ـ حديقة الأسماك ··
ووجدتها تنتظــر بلا ارتباك ولا حياءَ · بلا ارتباك ولا حياء كأنما تنتظر زوجها أو أخاها · وسرنا معا



فى شبه خلاء ، حتى اخترنا مجلسا تحت سفح الهضبة ، وقالت :

ـ لعلك تسائل نفسك عن سر المرأة الجريئة التى رمت بنفسها فى طريقك بلا سياسة ولا لباقة ؟

فقلت بسرور والرغبات تراقصنى :

ـ ما دمت سعيدا فلا معنى للتساؤل ·

فقالت ضاحكة :

ـ لا تنس شرطى !

ـ أنا متذكره ·

فقالت بجدية :

ـ يجب أن تعـرف أننى امرأة محـترمة وزوجـة مخلصة ·

فقلت وأنا أستشعر شيئا من القلق :

ـ لا جدال فى ذلك فعينى بصـيرة ، وسن الطيش ودعتها من قبل أن تفارقى حينا !

ـ تكلم عن ذلك العهد باحترام وعاطفة من فضلك ·

ـ له الاحترام والحب الى الأبد ··

فابتسمت بجرأة لم أعرفها من قبل وقالت :

ـ لم أقابلك مصادفة ··

ـ حقا ؟

ـ كاميليا حدثتنى عن زملائها ، وعنـدما سمعت اسمك ·· ماذا أقول ؟ ، قررت أن أقابلك ··

ـ ولكنك ترغبين فى التوظف ·

ـ لا أهمية لذلك ··

ـ لا تتركينى فريسة للحيرة ..
وهى تضحك فى سعادة ناطقة :
ـ أنا أعرفك منذ عشرين سنة !
ـ أجل .
ـ كنت من سكان العمارة الخضراء ، تذكرها ؟
ـ أمام السبيل بالشارع العمومى !
فقالت بعتاب :
ـ ولكنى كنت فى العاشرة فلم تنتبه الى .
ـ كنا نمر تحت العمارة ولا موقف لنا تحتها ، وسن العاشرة ..
ـ وسن العاشرة لا يستلفت النظر ، ولكنى بلغت الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة ولم تنتبه ..
ـ سوء الحظ اذا استحكم ..
ـ كنت وقتذاك أعتبر سوء الحظ من نصيبى أنا .
نظرت اليها فى حرج فطالعتنى بنظرة صريحة جريئة ضاحكة ، وقالت :
ـ فعلت المستحيل لألفت نظرك ولكنى لم أفلح ..
ـ يا لها من ذكريات كالأساطير !
ـ ولكنها حقيقية ، وهى تعيش فى أعماقى كخيبة لا دواء لها ..
فقلت بارتباك :
ـ لعلك تبالغين .

ـ أبدا ، كل كلام الدنيا لا شىء بالقياس الى حقيقة ذلك الماضى .
وكنت أصغى بارتياح وافتتان وبلا عاطفة ، وبصراحتها العملاقة سألتنى :
ـ أحق ما يقال عن الحب الأول من أنه لا يفنى أبدا ؟
وتذكرت فى الحال حنان ، وصفاء ، ورجعت الى قلبى الخامد ، ثم قلت :
ـ لا يخلو قول مأثور من حقيقة خالدة !
فقالت بحرارة :
ـ انه عاطفة ساحرة لا تتكرر ولذلك لا يمكن أن ينسى ..
ـ وما فائدة ذلك ؟
ـ لا فائدة .
ـ ولكنك زوجة سعيدة .
فقالت بأسى :
ـ أجل ، لا أحب أن أكون جاحدة ، ولكن العين تثبت على ما ينقصها ..
ـ لذلك فالسعادة حكمة عسيرة .
ـ زوجى رجل كامل ، انه مثال تتمناه أى امرأة ، ولكنه لا يشاركنى ميولى الخيالية ، أشعر أحيانا

ـ أبدا ، كل كلام الدنيا لا شيء بالقياس الى حقيقة ذلك الماضي •

وكنت أصغي بارتياح وافتتان وبلا عاطفة ، وبصراحتها العملاقة سألتني :

ـ أحق ما يقال عن الحب الأول من أنه لا يفنى أبدا ؟

وتذكرت في الحال حنان ، وصفاء ، ورجعت الى قلبي الخامد ، ثم قلت :

ـ لا يخلو قول مأثور من حقيقة خالدة !

فقالت بحرارة :

ـ انه عاطفة ساحرة لا تتكرر ولذلك لا يمكن أن ينسى ••

ـ وما فائدة ذلك ؟

ـ لا فائدة •

ـ ولكنك زوجة سعيدة •

فقالت بأسى :

ـ أجل ، لا أحب أن أكون جاحدة ، ولكن العين تثبت على ما ينقصها ••

ـ لذلك فالسعادة حكمة عسيرة •

ـ زوجي رجل كامل ، انه مثال تتمناه أي امرأة ، ولكنه لا يشاركني ميولي الخيالية ، لأشعر أحيانا

بالوحدة ، وتعضني أحيانا خيبتي القديمة !

وضحكت ثم استدركت :

ـ عندي تخمة من السعادة ولكن روحي ظمأى !

فسألتها :

ـ ما عمر زوجك ؟

ـ أربعون عاما !

ـ أنت في جنة ولا يجوز لك تحلمي ! ـ

فقطبت قليلا ثم قالت :

ـ أنت كبرت ، وأراهن أنك لم تعرف الحب !

ترى أين صفاء ؟ .. أما زالت على قيد الحياة ؟ ، وهل يمكن ـ لو صادفتها ـ أن يجري بيننا مثل هذا الحديث ؟ ! • وتراجعت قائلة :

ـ لا مؤاخذة ، صراحتي تخرجني أحيانا عن حدود اللياقة ، ولكني توقعت أن تحترم عواطفي ••

فقلت بحرارة :

ـ اني أحترمها من أعماق قلبي ••

فقالت بتأثر وامتنان :

ـ أشكرك •

ثم واصلت :

ـ أرجوك ألا ينقطع الاتصال بيننا ، أيضايقك ذلك ؟

بالوحدة ، وتعضنى أحيانا خيبتى القديمة !

وضحكت ثم استدركت :

ــ عندى تخمة من السعادة ولكن روحى ظمأى !

فسألتها :

ــ ما عمر زوجك ؟

ــ أربعون عاما !

ــ أنت فى جنة ولا يجوز لك تحلمى !

فقطبت قليلا ثم قالت :

ــ أنت كبرت ، وأراهن أنك لم تعرف الحب !

ترى أين صفاء ؟ أما زالت على قيد الحياة ؟ ، وهل يمكن ــ لو صادفتها ــ أن يجرى بيننا مثل هذا الحديث ؟ ! • وتراجعت قائلة :

ــ لا مؤاخذة ، صراحتى تخرجنى أحيانا عن حدود اللياقة ، ولكنى توقعت أن تحترم عواطفى ••

فقلت بحرارة :

ــ انى أحترمها من أعماق قلبى ••

فقالت بتأثر وامتنان :

ــ أشكرك •

ثم واصلت :

ــ أرجوك ألا ينقطع الاتصال بيننا ، أيضايقك ذلك ؟

ــ سأسعد به فوق ما تتصورين !

ــ اتصال روحى لن يمس احترامنا لأنفسنا •

ــ اقتراح عذب أقبله على العين والرأس •

ــ وليكن التليفون وسيلتنا حتى لا نتعرض لظلم لا نستحقه •

ــ كما تشائين •

ــ الا اذا غلبنى شوق فسنتقابل خطفا •

ــ ما أجمل أن نتقابل ولو خطفا •

ومنذ ذلك اللقاء فتحت لى حياة جديدة أبوابها مدخلتها مدفوعا بالحنان والتعلق بالذكريات وحب الاستطلاع ، وعايشت روابطها العائلية ومشكلاتها اليومية وما تزخر به من أبوة وأمومة وبنوة ، وارتباطات عاطفية بل وجنسية ، وخلافات ومسرات وأمراض وأحلام وأهواء من كل شكل ولون •

وداد بعد من أبعاد حياتى لا يدرى به أحد ولكنه جزء من كينونتى لا يتجزأ •

ـ سأسعد به فوق ما تتصورين !

ـ اتصال روحى لن يمس احترامنا لأنفسنا .

ـ اقتراح عذب أقبله على العين والرأس .

ـ وليكن التليفون وسيلتنا حتى لا نتعرض لظلم لا نستحقه .

ـ كما تشائين .

ـ الا اذا غلبنى شوق فسنتقابل خطفا .

ـ ما أجمل أن نتقابل ولو خطفا .

ومنذ ذلك اللقاء فتحت لى حياة جديدة أبوابها مدخلتها مدفوعا بالحنان والتعلق بالذكريات وحب الاستطلاع ، وعايشت روابطها العائلية ومشكلاتها اليومية وما تزخر به من أبوة وأمومة وبنوة ، وارتباطات عاطفية بل وجنسية ، وخلافات ومسرات وأمراض وأحلام وأهواء من كل شكل ولون .

وداد بعد من أبعاد حياتى لا يدرى به أحد ولكنه جزء من كينونتى لا يتجزأ ..

يسرية بشير

يرجعنى الاسم الى مهد الطفولة ، ميدان بيت القاضى وأشجار البلخ المثقلة بأعشاش العصافير ، ومن نافذة جانبية كنت أطل وأنا طفل على حارة قرمز ، وهى حارة مبلطة تنحدر فى هبوط ، وعند منعطف منها يقوم بيت آل بشير . كنت فى السابعة أو الثامنة ، وكان يعجبنى منظر الشيخ بشير وهو يجلس أمام مدخل بيته فى العصارى يسبح ، يضىء المكان ببشرته البيضاء ولحيته الشيباء والألوان الزاهية التى تعرضها عمامته وجبته وقفطانه . وعندما يمضى الى ميدان بيت القاضى فى طريقه الى الكلوب المصرى تظهر فى النافذة يسرية . لعلها كانت فى السادسة عشرة أو نحو ذلك ، يتجلى منها وجه كالقمر ، أبيض بهيج مريح مضىء يتوجه شعر فاحم ، وتناديني بصوت ناعم وتمازحنى وأنا أتطلع اليها سعيدا راضيا وعاشقا ان جاز لابن سبع

يســـرية بشـــير

يرجعنى الاسم الى مهد الطفــولة ، ميــدان بيت القاضى وأشجار البلخ المثقلة بأعشاش العصــافير ، ومن نافذة جانبية كنت أطل وأنا طفل على حارة قرمز ، وهى حارة مبلطة تنحدر فى هبوط ، وعند منعطف منهــا يقوم بيت آل بشير . كنت فى السابعة أو الثـــامنة ، وكان يعجبنى منظر الشيخ بشير وهو يجــلس أمام مدخل بيته فى العصارى يسبح ، يضىء المكان ببشرته البيضاء ولحيته الشيباء والألوان الزاهية التى تعرضها عمامته وجبته وقفطانه . وعندما يمضى الى ميدان بيت القاضى فى طريقه الى الكلوب المصرى تظهر فى النافذة يسرية . لعلها كانت فى السادسة عشرة أو نحو ذلك ، يتجلى منها وجه كالقمر ، أبيض بهيج مريح مضىء يتوجه شعر فاحم ، وتناديني بصوت ناعم وتمــازحنى وأنا أتطلع اليها سعيدا راضيا وعاشقا ان جاز لابن سبع

أن يعشق . والحق لا يمكن تفسير تعلقى بها الا بالعشق ، فما كانت قريبة ولا من سنى ، ولا أهدتنى يوما لعبــة أو قطعة من الحلوى ، ولا تحدثت بجمال وجهها . وكانت تغرينى أحيانا بالذهاب اليها فأتسلل من البيت الى الحارة ولكن الخادمة كانت تدركنى فى اللحظة المناسبة وتحملنى الى البيت وأنا أبكى وأرفس دون جدوى . ويوما أمطرت السماء ، ووقفت فى النافذة أرقب المطر وهو ينهمر فوق أديم الحارة ويجرى نهرا ليصب فى القبو القــديم ، وما لبث أن ارتفع مستوى الماء حتى غطى وجه الأرض وانقلبت قرمز جدولا راكدا يستحيل عبوره الا بالحمالين أو بالكارو . ومن خلال الأمطار المنهمرة رأيت يسرية واقفــة أيضــا فى النــافذة وهى تشـــير الى فخطرت لى فكرة قررت فى الحال تنفيذها . فصــعدت سرا الى السطح وحملت طست غسيل نحاسى ومقشة ذات يد خشبية طويلة ومضيت بها الى الطريق ، ثم أرســيت الطست فوق سطح الماء ووثبت اليه وجعلت أدفعه بالمقشة فيسبح نحو بيت بشير ، وانتبهت الخادمة ولكن بعــد فوات الأوان ، لم تستطع تلك المرة أن تخــوض المــاء الىّ فوقفت عند ناصية الحــارة تنــادى ولا مجيب . وغادرت الطست عند باب آل بشير المثبت فوقه تمساح

محنط ، ومرقت الى الداخل حافيا متشبع الجلباب بالماء ، وقابلتنى يسرية عند رأس السلم فقادتنى الى الحجرة ، وأجلستنى قبالتها على كنبــة تركيــة ، وراحت تداعب شعرى برقة وأنا غارس عينى فى وجهها المضئ ، ولا شك أننى رغم الجهد والبلل شعرت بالظفر والســعادة بين يديها ، وأرادت أن تسلينى فتناولت راحتى وبسطتها وهى تقول :

ــ سأقرأ لك الطالع !

وراحت تتلبع خطوط كفى وتقرأ الغـيب ولكنى استغرقت بكل وعيى فى وجهها الجميل •

أن يعشق • والحق لا يمكن تفسير تعلقى بها الا بالعشق ، فما كانت قريبة ولا من سنى ، ولا أهدتنى يوما لعبــة أو قطعة من الحلوى ، ولا تحدثت بجمال وجهها • وكانت تغرينى أحيانا بالذهاب اليها فأتسلل من البيت الى الحارة ولكن الخادمة كانت تدركنى فى اللحظة المناسبة وتحملنى الى البيت وأنا أبكى وأرفس دون جدوى • ويوما أمطرت السماء ، ووقفت فى النافذة أرقب المطر وهو ينهمر فوق أديم الحارة ويجرى نهرا ليصب فى القبو القــديم ، وما لبث أن ارتفع مستوى الماء حتى غطى وجه الأرض وانقلبت قرمز جدولا راكدا يستحيل عبوره الا بالحمالين أو بالكارو • ومن خلال الأمطار المنهمرة رأيت يسرية واقفــة أيضــا فى النــافذة وهى تشــير الى فخطرت لى فكرة قررت فى الحال تنفيذها • فصــعدت سرا الى السطح وحملت طست غسيل نحاسى ومقشة ذات يد خشبية طويلة ومضيت بها الى الطريق ، ثم أرســيت الطست فوق سطح الماء ووثبت اليه وجعلت أدفعه بالمقشة فيسبح نحو بيت بشير • وانتبهت الخادمة ولكن بعــد فوات الأوان ، لم تستطع تلك المرة أن تخــوض المــاء الىّ فوقفت عند ناصية الحــارة تنــادى ولا مجيب • وغادرت الطست عند باب آل بشير المثبت فوقه تمساح

محنط ، ومرقت الى الداخل حافيا متشبع الجلباب بالماء ، وقابلتنى يسرية عند رأس السلم فقادتنى الى الحجرة ، وأجلستنى قبالتها على كنبــة تركيــة ، وراحت تداعب شعرى برقة وأنا غارس عينى فى وجهها المضىء ، ولا شك أننى رغم الجهد والبلل شعرت بالظفر والسـعادة بين يديها ، وأرادت أن تسلينى فتناولت راحتى وبسطتها وهى تقول :

ــ سأقرأ لك الطالع !

وراحت تتابع خطوط كفى وتقرأ الغــيب ولكننى استغرقت بكل وعيى فى وجهها الجميل •